

توفيق الحكيم

فن الأدب

الأدب هو الكاشف الحافظ للقيم الثابتة فى الإنسان والأمة ، الحامل الناقل لمفاتيح الوعى فى شخصية الأمة والإنسان .. تلك الشخصية التى تتصل فيها حلقات الماضى والحاضر والمستقبل ..

والفن هو المطية الحية القوية التى تحمل الأدب خلال الزمان والمكان .

والأدب بغير فن رسول بغير جواد فى رحلة الخلود .. والفن بغير أدب مطية سائبة بغير حمل ولا هدف .. . ولقد كان همى دائما محاولة الجمع بين الرسول وجواده .. ولقد رأيت دائما الأدب مع الفن ، والفن مع الأدب ... لذا سميت هذا الكتاب « فن الأدب » ..

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١ ـــ محمد ﷺ (سيرة حوارية)	١٩٣٦
٢ ـــ عودة الروح (رواية)	١٩٣٣
٣ ـــ أهل الكهف (مسرحية)	١٩٣٣
٤ ـــ شهرزاد (مسرحية)	١٩٣٤
٥ ـــ يوميات نائب فى الأرياف (رواية)	١٩٣٧
٦ ـــ عصفور من الشرق (رواية)	١٩٣٨
٧ ـــ تحت شمس الفكر (مقالات)	١٩٣٨
٨ ـــ أشعب (رواية)	١٩٣٨
٩ ـــ عهد الشيطان (قصص فلسفية)	١٩٣٨
١٠ ـــ حمارى قال لى (مقالات)	١٩٣٨
١١ ـــ براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية)	١٩٣٩
١٢ ـــ راقصة المعبد (روايات قصيرة)	١٩٣٩
١٣ ـــ نشيد الأنشاد (كما فى التوراة)	١٩٤٠
١٤ ـــ حمار الحكيم (رواية)	١٩٤٠
١٥ ـــ سلطان الظلام (قصص سياسية)	١٩٤١
١٦ ـــ من البرج العاجى (مقالات قصيرة)	١٩٤١
١٧ ـــ تحت المصباح الأخضر (مقالات)	١٩٤٢
١٨ ـــ بجماليون (مسرحية)	١٩٤٢
١٩ ـــ سليمان الحكيم (مسرحية)	١٩٤٣
٢٠ ـــ زهرة العمر (سيرة ذاتية ـــ رسائل)	١٩٤٣
٢١ ـــ الرباط المقدس (رواية)	١٩٤٤

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ ــ ترجمة أبا إيبان ــ ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن غام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شىء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى وندر ونشر دار ماكملان — لندن .

الباب الأول

الأدب ويداه

يمناه الخلق الذى ينتج ويبتكر ،
ويسراه النقد الذى ينظم ويفسر ...

الخلق الذى يبتكر

ما هو الخلق فى الأدب ؟.. ما هو الابتكار الأدبى ؟..

سؤال ليس من السهل الجواب عنه فى عبارة .. فالخلق ليس معناه أن تخرج من العدم وجودًا . إنما الخلق فى الأدب والفن — وربما فى كل شيء — هو أن تنفخ روحا فى مادة موجودة.. كذلك صنع أعظم الخالقين يوم أوجد آدم. فهو تعالى لم يمد يده العلوية إلى الفضاء قائلا : « كن » فكان ، ولكنه مد يده أولا إلى الطين — مادة أوجدت قبل آدم — فسوى منه ذلك المخلوق الحى ..

لا شيء إذن يخرج من لا شيء .. كل شيء يخرج من كل شيء .. ذلك هو الدرس الأول فى الخلق .. أريد لنا أن نتلقاه عن الخالق الأكبر ..

كذلك ليس الابتكار فى الأدب والفن أن تطرق موضوعًا لم يسبقك إليه سابق ، ولا أن تعثر على فكرة لم تخطر على بال غيرك .. إنما الابتكار الأدبى والفنى ، هو أن تتناول الفكرة التى قد تكون مألوفة للناس ، فتسكب فيها من أدبك وفنك ما يجعلها تنقلب خلقًا جديدًا يبهر العين ويدهش العقل .. أو أن تعالج الموضوع الذى كاد يبلى بين أصابع السابقين ؛ فإذا هو يضيء بين يديك ، بروح من عندك ..

وإذا تأملنا أغلب آيات الفن ، فإننا نجد موضوعاتها منقولة عن موضوعات سابقة موجودة ، فالكثير من موضوعات « شكسبير » نقل عن « بوكاشيو » وبعض « موليير » : عن « سكارون » و « لوب دى فيجا » و« جوته » فى قصة «فاوست»: عن «مارلو» ومآسى راسين: عن مآسى «ايروبيدس» و «ايروبيد» و « سوفوكل » ، و « إشيل » : عن « هوميروس »، وشعراء الشعب المجهولين المتنقلين بالأساطير .. فإذا عرجنا على الأدب العربى القديم ، فإننا نجد فى الشعر معنى البيت الواحد وموضوعه، يتنقلان من شاعر إلى شاعر ، ويلبسان فى كل

زمن حلة وصياغة ، حتى اختلف النقاد والباحثون والأدباء فيمن يفضلون : أهو أول من طرق الفكرة والموضوع أم من صاغهما وأجراهما على الألسن وأتاح لهما الذيوع ؟.. على أن أرجح الرأى هو أن الموضوع فى الفن ليس بذى خطر . وليست الحوادث والوقائع فى القصص والشعر والتمثيل بذات قيمة ، ولكن القيمة والخطر فى تلك الأشعة الجديدة التى يستطيع الفنان أن يستخرجها من هيكل تلك الموضوعات والحوادث والوقائع .

إن الفن ليس فى الهيكل ، إنه فى الثوب . والفن هو الثوب الجديد الذى يلبسه الفنان للهيكل القديم . إنه الكسوة المتجددة لكعبة لا تتغير .

وليس هذا بالمطلب اليسير . فما أشق الإتيان بجديد فى موضوع غير جديد ..! وما أعسر الكشف عما لم يكشف فى بناء تقتحمه العيون وتنقب فيه العقول ، فى كل الشعوب وكل الأزمان . ومن أجل هذا كان عمل « راسين » فى قصة « أندروماك » — تلك الشخصية التى تناولها من قبله كثير من المواهب والأذهان ؛— أعظم فى تاريخ الأدب من عمل « بونسون دى تيراى » فى روايته « روكامبول » تلك الشخصية المفتعلة التى اخترعها من رأسه اختراعًا ، ونسج حوادثها العجيبة من مخيلته نسجًا .

قال « شسترتون » فيما أذكر ، مقدمًا لكتاب من كتب « ديكنز » : « إنه ما من علامة أفصح فى الدلالة على انعدام الابتكار عند بعض الشعراء ، من نزوعهم إلى البحث عن الموضوعات الغريبة . إن أرفع مراتب الابتكار قد يتسنمها شاعر يتغنى فى « الربيع »، فغناؤه يقطر دائمًا جدة ونضارة ، شأنه شأن الربيع ذاته ، ذلك الجديد النضر دائمًا ، مهما تتعاقب عليه القرون والحقب .. »

فالابتكار إذن لا شأن له بفكرة جديدة أو قديمة ، غريبة أو مألوفة ، ولا بالموضوع الطريف أو المطروق .. وقد تسألنى بعدئذ : ما هو الابتكار الفنى ؟ فأقول لك بسرعة وبساطة : هو أن تكون أنت .. هو أن تحقق نفسك ، هو أن تسمعنا صوتك أنت ، ونبرتك أنت .. إن أعظم معجزة فى الكون للخالق

الأعظم جل شأنه ، هو « شخصية الإنسان ».. ملايين الملايين من البشر تتوالد وتتعاقب ؛ فلا تطابق شخصية منها شخصية أخرى تمام الانطباق ، فى الأجسام والمشاعر والعقلية والروح والذوق والطبع .. كل شخص يظهر فى الأرض جديد جدة تنبثق معه وتختفى معه إلى أبد الآبدين . فالإنسان هو الإنسان ، ولكنه فى كل مرة يولد ، إنما يولد جديدًا .. لا يكرر بالضبط إنسانًا غيره ، ولا يشابه بالضبط شخصًا سواه .. فملايين الملايين من الناس فى كل زمان مثلهم كمثل بصمات الأصابع لا يمكن أن تتطابق كل التطابق .. يا له من معين لا ينضب من الخلق الإلهى !.. على أن هذه الجدة التى تخلق مع الناس — هذه الجدة فى المشاعر والعقل والروح والإحساس — لو لازمتنا طويلا لرأينا بها العجب ، ولكن أوضاع الحياة الاجتماعية ، وناموس القوى والضعف ، وجاذبية الأجسام الكبرى للصغرى التى تسرى على الآدميين كذلك ؛— كل هذا يفعل فعله ، فما نكاد نولد ونفتح أعيننا الصغيرة ، حتى يتلقفنا الكبار من حولنا ، ويقودونا ويلقنونا : فلا نبصر الأشياء إلا بأعينهم ولا نسميها إلا بما وضعوالها من أسماء ، وما أضفوا عليها من صفات وسمات ..

لقد كتب علينا هذا المصير : أن نفقد جدتنا ونحن فى المهد ، وأن نلف فى أردية القدم منذ الطفولة ، وأن يفقأ آباؤنا عيوننا الجديدة باللمسة الأولى ، وأن يصموا آذاننا بالصيحة الأولى . ومن فر منا ببعض البصر ، وواجه الدنيا بعينيه هو فانبهر ؛— فهو ذلك الذى نطلق عليه فيما بعد اسم « الشاعر المبتكر » .. بل ليت الطفولة أيضًا تبقى طويلا، فهى — على ما فيها من توجيه الكبار — تحتفظ بعالم خفى خاص يتصل مباشرة بأسرار الطبيعة المتحررة من منطق الناس .

هذه الطفولة — بعالمها المشيد فى أحضان الطبيعة الطليقة — تستطيع أن ترى الأشياء فى جدتها السحرية .. وصدق ذلك الذى قال : من استطاع أن يبقى طفلا ، فقد استطاع أن يصير شاعرًا !.. على أن الخطر رابض بعد ذلك فى محيط الأدب والفن أيضًا ، فهنالك الشخصية القوية ، كالنواة فى الذرة ، شدت

إليها الشخصيات الصغرى فأعمت أبصارها ، فلا ترى إلا ما ترى الكبرى ولا تقول إلا ما تقول ..

فإذا سئلت عن « الربيع » قالت ، لا ما تحس هي وترى ؛ بل ما سمعت ورأت من خلال أسطر نفس كبيرة مشرقة فى عصرها أو فى عصور الغابرين . إلى أن تتحطم الذرة ، وينفرط عقد النواة ، ويتحرر من تتكشف له نفسه .. فيقول قولا ندرك من ساعتنا أنه له ، فالصوت صوته ، والنبرة نبرته ، والفرحة فرحته ، والدمعة دمعته . فنصيح معجبين : هذا قول مبتكر ، وهو ما زاد فى حقيقة الأمر على أن حقق نفسه .

لكن .. ما أصعب ذلك على الأديب والفنان !.. ما أصعب إظهار الفنان شخصيته هو لا شخصية سواه ، وإسماع صوته هو لا صوت غيره !.. قد يبدو ذلك سهلا لأول وهلة ، وقد يعتقد الفنان أو الأديب اعتقادًا جازمًا أنه ينطق بلسانه هو دون أن يدرى ، أو يفطن إلى أنه يردد لغة من سبقوه ، ويدور فى فلك عظيم من عباقرة الأدب والفن ، وهو لا يشعر أو يريد ..

نعم .. ما أصعب تحطيم الذرة فى الأدب والفن أيضًا ! وأى دوى وانفجار أيضًا لهذا الحدث فى تاريخ الآداب والفنون ؟!.. إن بروز الشخصية مفروزة جلية هو معجزة الفنان .. كم من الجهد بذل « بيتهوفن » ، لينطلق من نواة « موزارت » ؟!.. إن آثار الجهد لم تزل باقية فى سانفونيته الأولى ، وما أروع كفاح « جوته » فى شبابه مع أقرانه الشعراء فى سبيل التحرر من تأثير « ڤولتير » والخروج عن نطاق جاذبيته !.. إنها لمضنية مؤلمة ، تلك الجهود التى تبذلها النجوم لتضىء فى حضرة الشموس !.. وإنها لتعيش فى انتظار الساعة التى تصبح فيها شموسًا بدورها تجرى من حولها النجوم .

إن مجال الخلق الأدبى والفنى لمفعم بالعجائب ، وقد يدرك المتأمل له أنه تابع لنظام الذرات والكواكب ، فأسلوب الخالق الأعظم واحد ، فى أصاغر المخلوقات وفى أكابرها ، فى طاقتها المادية وفى نشاطها المعنوى ..

إن الفنان أو الأديب يظل يبحث عن ذاته وشخصيته إلى أن يجدها، فاذا هي تملكه بعد ذلك إلى الأبد، وتطبع كل ما يلمسه بذلك الطابع، الذى لا يزول ولا يتحول. وإذا هو يعرف بطابعه، لا فيما ينشىء فقط بل فيما يحاكى أيضًا، ولو تأملنا الأدب العربى لوجدنا من شعرائه الأكابر من تعمد محاكاة غيره؛ أو تقليده، أو معارضته فى بعض قصائده، فإذا هو ـــ على الرغم من إرادة المحاكاة ـــ يخرج فنًا مبتكرًا مختومًا بطابعه هو لا طابع من حاكاه.. ذلك أن الشخصية الفنية بعد أن تتكون يصبح لها من القوة ما يجذب إليها كل شيء، ويخضع إلى أشعتها كل فكرة أو صورة أو موضوع، فكل ما تتناولهُ يُصبغ فى الحال بلونها. فالفنان أو الأديب ذو الشخصية يبتكر، حتى وهو يريد أن يقلد، والفنان الذى لم يستقل بعد بشخصيته يقلد، وهو يريد أن يبتكر.

ولكن طغيان الشخصية شديد.. فالفنان يظل يدور حول «نواة» غيره، طالبا الانفصال عنها والاستقلال بذاته. فإذا انفصل واستقل دار حول ذاته، وسيطرت عليه شخصيته. كل فنان ذى طابع هو حبيس طابعه.. انقطع شهورًا للدراسة فنان بارز الشخصية.. هب نفسك لشيطان أعماله كلها مجتمعة، فلن يمضى بك الوقت حتى تكون قد عرفته وأحببته، وسئمته وألفته، فى كل إشاراته ولفتاته، وارتفاعه وانحطاطه، وقدرته وعجزه.. إن تأمل آثار الفنان كاملة تكشف لك عن شخصيته الكاملة، فتعرف أسلوبه فى التفكير والتعبير، وطريقته فى تناول الأشياء. ولكنك ـــ وقد أحطت به ونفدت إلى لبه ـــ لا بد صائح يوما بلهجة المحبة والألفة: دائمًا هذه الطريقة!.. دائمًا هذا الأسلوب!.. لو يخرج عن ذلك قليلا؟!!..»

يخرج عن ذلك إلى أين؟.. وكيف يخرج عن طريقته وأسلوبه؟.. إنها ذاته.. تلك مأساة الطابع والشخصية؛ ما دام قد صار له طابع فلن يخلع عنه أبدًا.. ولا بالموت. كل خالق ذو أسلوب.. إن أسلوب الفنان ذى الشخصية كملامحه، لا يمكن أن يغيرها أو يبدلها أو يتخلص منها.. ذلك هو ما يسمى بالابتكار فى الفن والأدب.

النقد الذى يفسر

ما من شيء كثر فيه الخلاف مثل النقد ، وقواعده ومذاهبه ..

ما هو النقد ؟.. يقولون إنه الحكم الفصل ، وهو الميزان الدقيق ..

إذا كان « النقد » هو حكم وميزان فلا بد له إذن من دستور وقانون . ما هو الدستور أو القانون الذى يمكن أن يوضع أو يسن ؛ لنعلن بمقتضاه أن هذا الأثر الفنى جيد أو غير جيد ؟..

اجتهد أعلام النقد وأئمة البلاغة فى التقنين والاستنباط ، وخرجوا بأصول ، قالوا إن فى المقدور أن نقيس بها الخلق الفنى ؛ فنعرف جيده من رديئه ، ونميز معدنه الطيب من معدنه الخبيث . ولو صدق هذا الاختراع فى الفن كما صدق فى التعدين ، وكانت لهذه الأصول التى تقاس بها أعمال الفن والأدب ، دقة ذلك الجهاز الحساس الذى يعرف منجم الذهب من منجم النحاس ؛ لهان الأمر على النقد والنقاد والأدباء والفنانين .

ولكن هذه الأصول — أو هذا الجهاز — إذا طبقت على كثير من آيات الفن والأدب ؛ فإننا نجد اضطرابًا ، ونلحظ اختلالا ، ونقف موقف الحائر المتسائل : هل نصدق الآية الفنية ، أو نصدق الجهاز ؟!..

ذلك أن كثيرًا من بدائع الفن الخالدة يخرج على تلك الأصول ، فتراه أحيانًا لا يخلو من نقص فى البلاغة ، أو ركاكة فى العبارة ، أو أخطاء فى النحو ، أو وقوع فى اللغو .. ولكن إلى جانب تلك المآخذ روعة أى روعة ؟!.. ثم هنالك أثر فنى آخر انطبقت عليه الأصول تمام الانطباق . فلا لحنة ولا غلطة ... فصاحة ما بعدها من فصاحة ، ومنطق كحد السيف يصيب المفصل ، وقد يكل الطرف وتكد الفطنة فلا تعثر فيه على هنة من أضأل الهنات .. كل شيء فيه صحيح ، سليم ، متين ، ولكنا نحس — مع ذلك — أن لا شيء فيه يحركنا أو يهز نفوسنا .

الجمال فى الفن كالجمال فى المرأة !.. « كليوباترا » ـــ على الرغم من أنفها غير الدقيق ـــ آية خالدة فى تاريخ الحسن النسوى !.. وكم من نساء نبصرهن كل يوم لهن من الأنوف الدقيقة والعيون النجل والخصور النحيلة ما لم تظفر « كليوباترا » بالقليل منه ، وبرغم هذا لا نراهن رائعات ولا فاتنات .

ما السر فى أن امرأة قد استكملت شروط الحسن وليست بحسناء ، وأخرى شابتها عيوب وهى السحر والفتنة ؟!..

فى المرأة وفى الفن ، هنالك شىء لا ندرى ما هو ، يخرج على كل قاعدة ، ويهزأ بكل أصل ؛ هو الذى يجعل الجميل جميلا .. من أجل هذا ، انحرف النقد عن المذهب الموضوعى إلى المذهب الشخصى ، وطلع نفر من النقاد يقولون : إن الذوق هو الحكم والميزان ، ولكن ما هو الذوق ؟.. هو أيضًا مشكلة تبرز على الفور : لو عرفنا الذوق وحددناه لأصبح هو الآخر أصلا من الأصول ، ومقياسًا ثابتًا جامدًا ، يتحطم عند أول اختبار ، ونتزلق إلى المذهب الموضوعى مرة أخرى دون أن نشعر ، فلنكتف إذن بالقول بأن الذوق ملكة شخصية ، تفرز الزائف من الصحيح ، والحسن من القبيح !.. ولكن ما دامت ملكة شخصية ، كيف نفرز أيضًا الشخص الذى ركبت فيه هذه الملكة ، وكل الناس لا شك قائلون إن الذوق نابت فيهم مع أظفارهم ؟.. ونحن لو استطعنا أن نتصيد من غمرة الناس تلك اللؤلؤة الفريدة ، وهى الناقد صاحب الذوق الذى لا ينازع ولا يدافع ؛ لكانت فرحتنا به أضعاف فرحتنا بمن سينقد من الأدباء والفنانين . لكن العثور على هذا الناقد ذى الذوق يحتاج ـــ هو الآخر ـــ إلى ناقد ذى ذوق يستكشفه ، وهلم جرا .. لا ، ليس للذوق الشخصى ضابط ، وإذا ترك الحكم فى الآثار الفنية والأدبية للذوق وحده ؛ فقد ترك إذن للفوضى أو للمصادفة ، وهذا هو المطعن الذى يُرمى به المذهب الشخصى فى النقد

ولعل خير منهج للناقد أن يجمع فى نقده بين شتى الاعتبارات ، ويؤلف بين مختلف النظرات ، فيختار الأثر من بين مختلف الآثار بذوقه ، كاشفًا عن نواحى

جمال ، ثم يحلله بغربال علمه ، ليخرج لنا ما انطبق منه على الأصول وما لم ينطبق . وذلك لمجرد التحليل والبحث والدرس ، لا لإصدار الأحكام بناء على هذا الاعتبار وحده ؛ فإذا فرغ من ذلك بقى أمامه الشطر الأجل من عمله النقدى ، وهو تقييم الأثر بقيمته فى المحيط الأدبى القومى أو الإنسانى ، ووضعه فى مكانه من « خانة » النوع ، ومقارنته بالسابقين له فى ذلك السجل ؛ مبينا مدى تأثره إياهم ، ومبلغ اتفاقه معهم فى المذهب ، أو اختلافه عنهم فى المسلك ، أمكرر هو أم مؤكد أم مجتهد فى باب معروف ؟.. أم هو فاتح أو ضارب فى طريق غير مألوف ؟.. مع مراعاة الحقيقة لا الإسراف ، والدقة لا الإغراق.ذلك بأن النقد عندنا فى الأدب العربى الحديث سار طويلا فى درب مقتضب : هو أن ينقد الأثر ، كما لو كان قد وجد ملقى على الأرض ، كاللقيط لا يعرف له أب ينتمى إليه ، فهو فريد عصره ونسيج وحده .. إن الأدب أو الفن فى أى أمة وعصر ، أسرة متحدة، فيها الأدباء، وفيها الأبناء.. فيها من تكونت شخصيته فأثر، وفيها الناشىء الذى يتأثر. ولكل منهما عند الناقد عملة بها يحاسب.. فالفنان أو الأديب الذى تكونت شخصيته فأثر ، ينبغى لفهمه درس شخصيته الفنية أولا ، وشخصية الفنان أو الأديب لا تتكون إلا من كتلة أعمال ..

إن العمود الفقرى للشخصية الفنية هو سلسلة آثار ، يستطيع الباحث أن يتتبع فى حلقاتها صفاته وعيوبه ولوازمه وعاداته ، ومزاجه واتجاهاته ، لهذا كان على النقد الفنى أن يفرق دائمًا بين فنان فى أعماله الأولى ، يتلمس خطاه نحو شخصيته ، وفنان عرف له طريق واتجاه . فقضية النقد للمبتدئ تتلخص فى : « كيف صنع هذا ؟ ». وقضية النقد للناضج هى : « لماذا صنع هذا ؟ »: الأول لم نعرف له شخصية بعد ، فعلينا أن نعينه على معرفة طريقه إليها ، فنناقشه ؛ كيف أنتج ذلك الأثر ؟ ما هى حياته ؟ وما أدواته ؟ وأى خطى يتأثر ؟ وفى أى طريق يسير ؟ وبأسلوب من تشبع ؟ ولأفكار من تشيع ؟ أما الثانى ، وقد عرفنا شخصيته ووجهته ، فواجبنا أن نبحث : لماذا أخرج هذا الأثر الأخير ، ليحقق

به أى جانب من جوانب شخصيته التى نعرف عنها الكثير ؟.. لماذا صنع هذا ؟.. أترى الغرض منه تأكيد فكرة من أفكاره السابقة ؟.. أو الرجوع عن بعض هذه الأفكار ؟ أو الانحراف إلى اتجاه جديد لا نعرفه له ؟.. أو الخضوع لإحساس بعينه يلاحقه فى كل أثر من آثاره ؟.. فالنقد للأديب الجديد موجِّه ، وللأديب القديم مفسِّر .. ينبغى للنقد الفنى أن يوجه الجديد إلى شخصيته التى لم تظهر ، وأن يفسر للقديم شخصيته التى ظهرت .

الأديب القديم يفاضل بنفسه ، وينقد الأخير من آثاره على ضوء السابق من أعماله . والأديب الجديد يقارن بالأديب القديم ، وينقد عمله على ضوء أعمال من فتحوا له باب النوع الذى يعالجه ، والفرع الذى يثمر فيه .. وكل أديب قديم كان يومًا جديدًا . وكل أديب جديد سيكون يومًا قديما . فتعدد النظرة فى الأمس والغد فيه تعدد للجوانب . وبهذا يعرف الأديب إذا اكتمل كل وجوه القول فيه ، وكل ما يربط إلى سابقيه و لاحقيه .. فالأدب أو الفن أو العلم فى كل زمان ومكان ، سلسلة طويلة ، تتسلم فيه كل حلقة من الأخرى ، ثم تسلم .. ومهمة النقد هى أن يربط هذه الحلقات بعضها ببعض ؛ ليجعل منها هذه السلسلة الذهبية التى يزدان بها صدر البشرية . والنقد فى عملية الربط بين الحلقات إنما يقوم فى حقيقة الأمر بعمل إنشائى ضخم . ولسنا بمبالغين لو قلنا : إن الآثار الأدبية بغير نقد بنائى يربط بين أجزائها واتجاهاتها ، لا يمكن أن تصنع أدبًا بالمعنى المعروف فى الآداب الكبرى فمن الجائز أن تنبت قصيدة شعرية رائعة بين الزنوج بلغتهم فى غابة من الغابات ، لأن الإحساس الفنى يمكن أن ينبت فى أى مكان ، ولكنا لا نستطيع أن نتحدث عن أدب الزنوج ، إلا إذا وجد النقد الذى ينظم آثار هؤلاء القوم ، ويكشف عن مصادرها وأهدافها واتجاهاتها .. شأن النقد فى الأدب كشأن الفقه فى القضاء .. فليس الحكم العادل وحده هو الذى يصنع علم القانون ، كما يعرف فى الأمم الكبرى .. فما أكثر الأحكام العادلة التى تصدرها مجالس التحكيم عند البدو أو عند كثير من القبائل الفطرية !.. فهل نستطيع أن

نسمى هذه الأحكام قضاء بالمعنى القانونى ؟.. لا .. لماذا ؟.. لأنه ينقصها الفقه ، الذى يجمعها ويمحصها ويرتبها ويستخرج منها الاتجاهات والنظريات والمذاهب والمبادئ . فالفقهاء فى الشريعة الإسلامية والقوانين الرومانية والأوربية ، قديمًا وحديثًا ، هم الذين بغوصهم فى أعماق النصوص ، وتفسيراتهم للأحكام ، قد شيدوا هذا البناء الضخم المتناسق المتماسك لهذه الشرائع والقوانين . كذلك النقاد : أى فقهاء الأدب والفن ، بانكبابهم على الآثار الأدبية والفنية ، يستخلصون منها التفسيرات والمقارنات ، والمذاهب والاتجاهات ؛ قد أقاموا بجهودهم المتصلة صروح الآداب والفنون.فالأدب العربى القديم ، ما عاش حتى اليوم أدبًا خصبا ، وما بقى لنا تراثا غنيا : — إلا بفضل رواته ونقاده وباحثيه الذين تفقهوا فى درسه ، ووازنوا بين شعرائه وأدبائه ، وأظهروا لنا أسرار أساليبه ، وآيات بلاغته ، وكشفوا عن مؤثراته ومراميه ، ومدارسه واتجاهاته ، فى مختلف العصور والأزمان .. فالأدب الفنى لا بد له من نقد إنشائى ، كما أن القضاء العظيم لا بد له من فقه عميق . ولعل ما يبدو على الأدب العربى الحديث من فقر ، بالنسبة إلى الأدب العربى القديم ، — راجع — لا إلى ضعف الإنتاج الأدبى الحديث فى ذاته ، بل إلى ظهوره وحيدًا غير مستند إلى نقد إنشائى فى مستواه يقوم بمهمة التنظيم والتفسير والربط والتبويب ... فكان من أثر ذلك الإهمال أن بدا الأدب العربى الحديث فى صورة جهود فردية غير جدية .. وسيظل كذلك إلى أن يظهر النقاد العظام الذين يتوفرون على درسه ، ويخرجونه للناس والأجيال ، بناء متسقا ، مرتبطا حاضره بماضيه .. على أن ظهور الناقد العظيم ليس بالأمر السهل ، فللناقد صفات يجب أن تتوافر فيه ، أهمها : أن يكون كفقيه القانون ، بحرًا عميق الاطلاع فى الأدب الذى يدرسه ، والآداب الأخرى القائمة ، ماضيها وحاضرها ، حتى يتيسر له التقدير للقيم والموازنة بين الأنواع ، والتشريع للمذاهب . وأن يكون واسع الأفق ، ليفهم كل الأغراض ، قوى المعدة ، ليهضم كل الألوان .

فذلك الذى لا يستسيغ نوعا من الشعر ، أو لونا من النثر ، أو فرعا من القصص ، أو ضربا من التمثيل ، لا يجوز له أن يقدم على نقده ، وإبداء الرأى فيه . وعليه أن يتنحى ويرد نفسه عن الحكم ، شأن القاضى الذى كون فى القضية رأيا قبل البحث أو اتصلت ظروفها بعلمه قبل النظر .. ففى لغة القانون يقولون : « ليس للقاضى أن يحكم بعلمه » ذلك أن القاضى يجب أن يحكم بناء على ما بين يديه من مستندات .. لا بما يتصل بعلمه الشخصى .. كذلك فى لغة الفن يجب أن نقول : « ليس للناقد أن يحكم بميله » ذلك أن الناقد يجب أن يحكم على الأثر الأدبى أو الفنى ، بناء على قيمته الذاتية ، لا بما يمليه عليه مزاجه الخاص .. فالناقد الذى يكره مثلا شعر المديح ، إما أن يمتنع عن نقد قصيدة فى المديح ، وإما أن يتجرد من بغضه للنوع ويزنها بميزانها فى نوعها .. ولكن ليس له أن يسبها لمجرد أنها فى المديح ، وهو يكره هذا النوع من أنواع الشعر ..

هذه الصفات والملكات لو توفرت فى بضعة نقاد ، فإنهم يستطيعون أن يقيموا ميزان النقد الفنى على نحو منتج . وبقيام هذا الميزان فى أدب من الآداب ، يقوم صرحه شامخا على أعمدة الزمان .

الباب الثانى

الأدب العربى وتجدده

الأدب العربى حافظ لروحه دائما على الرغم
من تجدد منابع إلهامه ، وتغير مظاهر أثوابه .
ومن ينظر إليه بعين جديدة يبصره دائما
جديدًا ...

أثواب الأدب العربى

طالما قلت : إننا لو تأملنا الآداب القديمة لوجدنا أنها قد عاصرتها فنون كبرى : فمصر القديمة والهند والإغريق والرومان .. إلخ ، ـــ كانت المعابد العظيمة ، والتماثيل الرائعة فيها خليقة أن يعاصرها أدب يضارعها فى قوة البناء ودقة التركيب ، وروعة الفن : (الملاحم ، والقصص ، والتمثيل) ولكن الذى حدث فى تاريخ الأدب العربى ، كان غير ذلك . لقد نشأت لغة نضرة زاهرة ، فى بيئة قحلاء وسط الصحراء ، ولقد كان أقصى ما عاصر لغة « امرئ القيس » أو « لبيد » أو « زهير » من مظاهر الفنون الأخرى ، ـــ تلك المسوخ والتهاويل لآلهة من الحجر ، لا يجرؤ أحد أن ينسبها إلى الفن فى قليل أو كثير . ولعل هذا من مفاخر اللغة العربية ، أن نراها قد برزت وحدها هذا البروز بين الرمال ، كأنها عَرار أو أقحوان ، ولعل الفضل فى ذلك راجع إلى الشعر ، فالشعر زهر قد ينبت فى الخلاء ، أما النثر فيحتاج فى نموه إلى العمران .. لكن جاء العمران بعد ذلك ، بظهور الإسلام ، وتكونت حضارة إسلامية ، واسعة الأرجاء ، فأقيمت المساجد الجميلة على أنقاض الهياكل القديمة ، وشيدت القصور ، وملئت بالبدائع والطرائف والتحف ، وتقدمت الصناعات ، وازدحمت الفنون ، وابتلعت الحضارة الإسلامية فى جوفها كثيرًا من الحضارات ، ومع ذلك ، لم يحاول الأدب العربى أن يزيد فى قوالب نثره ، أو أن يساير تلك الفنون المعاصرة ، ولم يخرج ـــ فى الناحية الإنشائية ـــ عن ثوبيه المعروفين ، وهما : « الرسائل » و « المقامات » . والمقامات أعمال قصصية قصد بها سرد حكاية ، وتصوير أشخاص ، ولكن الإغراق فى الوشى اللفظى ، والاحتفال بالوضع اللغوى ، صرف الكاتب عن التعمق فى التحليل ، والإفاضة فى السرد ، والإجادة فى

البناء . فالأدب العربى الإنشائى فى تلك الأزمان ، قد عنى باللفظ أكثر مما يجب ، و لم يشأ أن ينزل عن تكلفه الذى يعتبره فصاحة وبلاغة ، ليصور ما يجيش فى نفس الشعب من إحساس ، وما يهجه من خيال .

وهنا حدث أمر عجيب : فروح الشعب لا يقهر .. هذا الشعب فى عصور الحضارة الإسلامية المختلفة ، قد تعطش للون جديد من الأدب غير لون البداوة الأولى ، لون من الأدب مستمد من إحساسه بالحياة الجديدة المتطورة المتغيرة .. أدب جديد قائم على فن مساير للفنون الزاهرة المعاصرة . فلما لم يشأ أدباء الفصحى أن يمدوا الناس بحاجتهم ، لجأ الناس إلى أدباء من بينهم لا يملكون أداة اللغة ، ولا جمال الشكل ، ولكن يملكون السليقة الفنية وروح الخلق .. وهنا ظهر الأدب الشعبى .. فما ظهور الأدب الشعبى أحيانًا إلا علامة قصور أو تقصير من الأدب الرسمى ، أو صرخة احتجاج على جمود الفصحاء .

هكذا ظهر القصص فى الشعر العربى فى صورة « عنترة » و « مجنون ليلى » وسارت الحضارة الإسلامية ، فسار معها الأدب الخيالى الاجتماعى الشعبى ، فإذا نحن أمام عمل فنى رائع هو «ألف ليلة وليلة».. ثم نبت فى كل شعب من شعوب الإسلام قصصه التى تطبعه بطابع عصره : فكان فى مصر قصة « أبى زيد الهلالى » و « سيف بن ذى يزن » و « الظاهر بيبرس » وغيرها وغيرها .. إلخ ..

ومن الغريب أننا إذا تأملنا « التصميم » الفنى ، والبناء الروائى لهذا الأدب الشعبى وجدناه من حيث الفن — لا اللغة — هو السائر فى الطريق الصحيح ، محاذيًا تلك الفنون والعلوم التى ظهرت بظهور الحضارة الإسلامية ، ولقد كان من المستغرب حقا للباحث أن يرى هذه الحضارة ذات فنون وعلوم ، ولا يجد فى أدبها آثارًا إنشائية تماثل ما عند جيرانها ، حتى كادت تتهم العقلية الإسلامية بعقم خيالها . ولكن الأدب الشعبى الإسلامى صحح الوضع أمام التاريخ ؛ وأثبت أن حضارة الإسلام سارت فى مجراها الطبيعى ، مع فارق واحد : وهو أنه فى الحضارات الأخرى ؛ مثل الهندية أو الفارسية أو الإغريقية ، كان خاصة الشعراء

والأدباء هم الخالقين لتلك الآثار . أما فى حضارة الإسلام ، فقد تخلى الخاصة عن بعض هذه المهمة لعامة أدباء الشعب وشعرائه ، ووقفوا بعيدين عن كل تعبير أو ابتكار .. حتى القرآن ، ما حاولوا أن ينتفعوا به انتفاعا فنيا ؛ فلقد أتى القرآن بجديد فى فن الكتابة — لا اللغة وحدها ؛ بل القصص والأساطير — لقد استخدم « الفن القصصى » فى التعبير عن المرامى الدينية . ولكن المدهش أن الأدب العربى لم ير فى القرآن إلا نموذجا لغويا .. ولم ير فيه النموذج الفنى . فلم يخطر له استلهام قصصه ، أو استغلال أساطيره استغلالا فنيا مستفيضا .. إن وحى الأدب العربى لم يرد أن يتحرك ، لا إلى أعلى ، ولا إلى أسفل .. لا نحو القرآن ، ولا نحو الشعب . غير أن من الإنصاف أن نستثنى واحدًا من أعلامه ، هو « الجاحظ »، فهذا الكاتب شعر بالخطأ فسلك مسلكا آخر ، ونزل إلى الشعب يستوحيه ، ويصور أسواقه وبخلاءه ولصوصه وتجاره وشرفاءه وخبثاءه ، فى أسلوب بسيط حى يعد مثلا طيبًا للنثر التصويرى فى عصور الحضارة العربية ، وهو بعينه الأسلوب الذى أثار على « الجاحظ » المسكين نقد المتنطعين من أدباء عصره ، فرموه بالعامية والركاكة والابتذال ونستطيع أن نستثنى أيضًا بعض الجانب الفنى لمقامات « الحريرى » و « بديع الزمان » فهذه المقامات من حيث رسم أشخاصها ، وتصوير المجتمع فى عصرها ، تكاد تعطينا أحيانا صورًا ناطقة على صغرها ؛ كأنها صور « المنياتور » الفارسى . ولم يفسد هذه الآثار الفنية إلا أسلوبها اللغوى ، وكأنها لم تكتب إلا لإبراز رصانة اللغة ، وثراء اللفظ ، وبراعة السجع . أما الخلق الفنى فلم يخطر — فيما يظهر — للكاتبين على بال .

وهكذا انطوت قرون ، وما زال هذا السد قائما بين النثر العربى ، بسجعه وبلاغته المصطنعة وبين خيال الشعب ورغباته وآماله .. ولو أن أدباء الفصحى هدموا هذا السد من قديم ، ونزلوا عن بعض جمودهم ، وعبروا عن مطالب عصرهم وشعبهم ؛ — لكان الأدب العربى اليوم فى مقدمة الآداب العالمية ، فهذا الأدب بما لديه من قرآن عرف القصص والأساطير ، وما راج فى مجتمعه من أشباه

« عنترة » و « ألف ليلة وليلة » ، وما وضع فى لغته من « مقامات » تعد أساسًا لفن الأقصوصة ؛ — هو أحق من يزعم للآداب الأخرى أنه أحد أساتذة الفن الروائى .

لكن واأسفاه .. إنه الأدب الرسمى اللغوى ، قد وقف حائلا دون مجرد الاقتراب من كنوز الشعب ؛ كأنما هى شىء مزر بمقام فضلاء الأدباء ، لهذا لم نجد أديبًا عربيًا جرؤ على النظر فى كتاب « ألف ليلة وليلة » مستلهمًا فنه ، متغاضيا عما فى لغته من قصور .. لأن الأدب فى عرفهم مرادف اللغة الفصحى المنمقة الرصينة المتحذلقة ، حتى أتى « الجاحظ » بتجديده ، محاولا منذ قرون تغيير تلك الفكرة قليلا فى مسألة اللغة والتصوير الشعبى ، ولكن التجديد والجمود يتعاقبان فى الأمم والآداب والفنون تعاقب النهار والليل . ومنذ أن وطئ « المغول » بسنابك جيادهم حضارة الإسلام ، والأدب العربى يعيش فى ذلك الليل الطويل .

إلى أن طلع أخيرًا فجر العصور الحديثة ، فبزغت أشعة التجديد مرة أخرى فإذا نظرنا الآن إلى الأدب العربى فى ردائه الحديث ، أى منذ انتهاء الحرب الكبرى الأولى حتى اليوم ؛ رأينا ظاهرة تسترعى الالتفات .. هى استئناف الاتجاه الذى بدأه « الجاحظ » ، ولكن على نطاق أوسع ، وبخطوات أسرع . فالأسلوب الكتابى قد تحرر نهائيًا من السجع ، وتخلى عن الوشى اللفظى ، وانطلق إلى البساطة والسهولة والمرونة . والوحى الفنى لم يعد يفرق بين مصدر الخاصة ومصدر العامة ؛ فقد تحطم السد بين الأدباء الرسميين والأدباء الشعبيين فى نظر أدباء هذا العصر .

وإذا نحن نرى الشعراء يستلهمون القصص الشعبى العربى القديم فيما ينظمون ، ونرى الأدباء يستوحون « ألف ليلة وليلة » فيما ينشئون ويدرسون كما أن إهمال القدماء للأساطير الإسلامية فى القرآن وغيره قد صحح ، واتجه الأدب اليوم إلى استغلال هذا المصدر استغلالا فنيًا !..

على أن المهم ، فى كل ذلك ، هو استخلاص الصفة المميزة لاتجاه الأدب

العربى فى ردائه الحديث ، وإن استخلاص ذلك ليس بالأمر السهل ، فإن النظرة العجلى توقع فى الخطأ . ولقد خدع بعض المستشرقين والباحثين بمظهر بعض قوالب هذا الأدب ، وخصوصًا قوالب القصص والتمثيل ، فأسرع يقرر أن الصفة المميزة لهذا الأدب اليوم هى تأثره المطلق بالآداب الأوربية .. والنظرة المتعمقة ترينا أن الأدب العربى — ككل أدب حى — لم يغمض ولا يستطيع أن يغمض عينيه عن الحضارات المحيطة به .. ولقد فعل ذلك فى كل أطواره الغابرة . فتأثره ، فيما مضى ، بالثقافة الهندية والفارسية والفلسفة اليونانية ، لا يقل عن تأثره اليوم بالثقافة اللاتينية والأنجلوسكسونية .. ذلك أن من الحمق أن نطالب أدبًا بالاحتفاظ دائمًا بردائه القديم ، أو نطالب شخصًا بأن يبقى على جسده ثوبه العتيق ، حتى نستطيع إذا قابلناه أن نميز شخصيته . هنالك فرق بين الشخص والرداء ، والأدب العربى محتفظ بشخصه وروحه دائمًا على الرغم من تغير أرديته بتغير الأزمان ، فهو فى نظر الباحث المتعمق يسير سيره الطبيعى .. والطبيعى هو أن يرتدى ثياب عصره ، ويخرج فى زى زمانه .. فلا يسخر منه أحد ويقول : إنه يرتدى فى القرن العشرين ثيابا تاريخية كالممثلين .. كلا .. إنه يعيش عصره مع العالم ، ويرتدى الزى العالمى المعاصر ، ولكنه — برغم ذلك — يحتفظ دائمًا بجنسيته وروحه وتفكيره وذكريات ماضيه ، ومشاعر نفسه .. نعم .. إن الفرق كبير جدًا بين الروح والرداء . وآداب الشعوب الحية اليوم كصورتها : رداء واحد ، وروح مختلف ..

الجاحظ وعصرنا

قلما يحتفظ الإنسان بشيء من آثار الصبا ؛ فإذا عثر على أثر من تلك الآثار وقد وخطه الشيب ؛ كان لذلك فى نفسه أجمل الوقع .. وإنى لكثرة التنقل فى الحياة وبعد الشقة فى الزمن قد فقدت كثيرًا من آثار صباى .. ولكننى عجبت ذات يوم ، وقد وقع فى يدى كتاب لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .. كتب على جلدته اسمى فوق عبارة : « سنة أولى فصل أول » بخطى الذى كان لى فى ذلك الوقت .. وما رأيت أنه مختلف كثيرًا عن خطى فى هذه الأيام .. لقد فرحت بذلك الأثر . ورجعت بفكرى القهقرى ، وأنا أتساءل : أحقا كنا نقرأ الجاحظ فى مثل تلك السن ؟!.. أغلب الظن أن هذا الكتاب لم يكن من مقررات المدارس فى ذلك العهد .. إنما هو نوع من المطالعات الخاصة التى كنا نغرق فيها خارج الدرس .. ذلك أنى لم أنس صفحة من صفحات هذا الكتاب الذى كنت أقرؤه كثيرًا ؛ فى ذلك الحين ، مع ما كنت أقرأ من آثار الأدب القديم . والحق أن الجاحظ — وقد مضى على وفاته أكثر من ألف عام — هو الأستاذ المباشر لأكثر رجال القلم فى الأدب العربى المعاصر ؛ لأنه رفع علم التجديد ، وعلم الكتاب أن الأسلوب أداة للتعبير القويم عن النفس والفكر ، لا وشى من اللغو ، ولا بضاعة من الزخرف يراد بها اللهو .. وإنى لموقن أن الجاحظ لو استطاع أن ينظر إلينا من عالمه الآخر ، لما أنكر كثيرًا من الأساليب التى ينشىء بها كتاب اليوم أفكارهم .. بل إنه ، لفرط صدقه فى تصوير نفسه وعصره ، وصراحته فى التعبير عن المشاعر الإنسانية الثابتة فيه وفى الناس ؛ — قد لا يرى إلا تغييرا يسيرا فى المحيط الأدبى ، لا فى الشرق وحده ؛ بل فى كل مكان وزمان يوجد به أدب وأدباء وكتاب ومؤلفون !.. ولنستمع إليه إذ يقول بلغته ، التى كان يكتب بها منذ

عشرة قرون : « إنى ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن : فى الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسى ؛ فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته ... وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفا لملك ، معه المقدرة على التقديم والتأخير ، والحظ والرفع ، والترهيب والترغيب ، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة ، فإن أمكنتهم الحيلة من إسقاط ذلك الكتاب ، عند السيد الذى ألف له ، فهو الذى قصدوه وأرادوه .. وإن كان السيد المؤلف له الكتاب تحريرا نقابا وحاذقا فطنا ، وأعجزتهم الحيلة ، سرقوا معانى ذلك الكتاب ، وألفوا من أعراضه وحواشيه كتابا ، أهدوه إلى ملك آخر .. وهم قد ذموه وثلبوه ، لما رأوه منسوبا إلىّ : موسوما بى... وربما ألفت الكتاب الذى هو دونه فى معانيه وألفاظه — فأترجمه باسم غيرى ، وأحيله على من تقدمنى عصره ، مثل ابن المقفع ، فيأتينى أولئك القوم الطاعنون على الكتاب ، الذى كان أحكم من هذا الكتاب — لاستنساخه وقراءته علىّ ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيرونه إماما يقتدون به .. ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم ، لأنه لم يترجم باسمى ، ولم ينسب إلى تأليفى ..» إلخ

ما الذى تغير اليوم من هذه الصورة ، وما الذى بقى ؟ ما من ريب فى أن الغرائز البشرية التى وصفها « الجاحظ » لا سبيل إلى زوالها ..

فلقد استولت على النفوس اليوم أيضًا ، روح الاستهانة بالمثل العليا .. وتملك القلوب والأجسام شيطان المتعة اليسيرة العاجلة !.. ما من أحد يريد أن ينقطع إلى علم ، أو يتوفر على فن .. إنما الكل يتطلع إلى الثمرة قبل الشجرة !.. فلم يعد للكثيرين جلد على درس ، أو صبر على كدح .. وبعضهم لا ينظر إلى الجهد الذى يجب أن يبذل ، ولكنه يبصر المراتب التى يجب أن يرقى إليها ، لا يريد أن يضيع وقتًا فى الغرس البطىء والإعداد الطويل — ولكنه يريد الثمرة عجلا متلهفًا .. لذلك قل الاطلاع العميق ، وندرت القراءة المجدية ، فاختلت الموازين ،

وفسدت القيم !..

يضاف إلى ذلك شعور بالنقص ، وضعف فى الثقة بالنفس والجنس : فالفكرة المنسوبة إلى أوربى تحترم بغير بحث ، والفكرة المنسوبة إلى مصرى أو شرقى تهمل بغير فحص .. كما أن اختلاف الثقافة : من كيف وكم ، وتباين العقلية : من قديم وحديث ، أو سطحى وعميق ، وتضارب الأذواق : من سلامة وسقم ، أو ارتفاع وانحدار ، كل ذلك يجعل مهمة الأدب الجدى اليوم عسيرة ، ويضيق نطاق الجديرين بالنظر فيه ..

ذلك هو العصر الذى نحياه .. وما أرى « الجاحظ » إلا راضيا عن نفسه ، قانعا بمصيره ، لو أتيح له أن ينظر إلينا اليوم من غابر زمانه !..

فن جديد عند الجاحظ

خيل إلىّ ــ وأنا أقرأ كتاب « التربيع والتدوير » للجاحظ ــ أنه يصنع فنًا طريفًا فى زمانه ، دون أن يدرى ، فقد أراد أن يصف رجلا يعرفه ، ويتهكم عليه .. فأمسك بالقلم وخط له صورة ، لو كانت بالرسم لا بالبيان ، لأطلق على عمله الآن : اسم « الكاريكاتور » !..

ومن مفاخر « الجاحظ » : أن يكون تصويره بالنثر ، بذلك قد يفوز فى هذا المضمار بالسبق ؛ لأن فن « الكاريكاتور » فى الرسم قديم ، عرفه التاريخ منذ عرف فن الرسم والتصوير ، فإن مضحكات البشر وحماقتهم وعيوبهم وسوءاتهم ، ورغبة البعض فى الضحك من البعض ، ــ كل هذا قديم قدم الإنسانية نفسها .. فكما عرف الشعراء منذ القدم كيف يهجون ، عرف الرسامون كيف يسخرون !..

ولقد ولد فن « الكاريكاتور » منقوشًا على الأوانى الإغريقية ، كما ولد منقوشًا على جدران « الهركيولانوم » فى « بومبى » .. بل لقد عثر عليه فى آثار مصر القديمة .

أما فى مجال الكتابة : فإن أقرب الأساليب شبهًا « بالكاريكاتور » ، قد نجده فى القرن السادس عشر .. قد نجده فى كتاب « الأحلام المضحكة » لرابليه ، وقد نجده فى كتاب « تمجيد الحماقة » لإيراسم !.. وغير ذلك من الكتابات التى تهدف إلى إبراز ما تخفيه طبائع الناس ومظاهرهم من مثالب ..

إذا صدق ظنى فالجاحظ إذن من أسبق الكتاب إلى التصوير الكاريكاتورى . لقد ظهر ــ قبله بالطبع ــ كثير من الهجائين ، شعراء كانوا أو ناثرين ، ولكننى أعتقد أن الهجاء شىء ، والكاريكاتور شىء آخر .. إن فى كل « كاريكاتور »

نوعا من الهجاء ، و لكن ليس فى كل هجاء نوع من « الكاريكاتور » !.. إنك بالهجاء تريد أن تنال ممن تهجو ، بالحق وبالباطل ، بالحقيقة أو بالافتراء ؛ دون أن تقصد فى كل الأحوال أن تثير فينا الضحك منه ، أو تظهرنا على مواضع فيه باعثة على العبث به والتندر عليه !.. كل همك فى الهجاء أن تزرى بخصمك ، وأن تطعنه فى عزته وكرامته ومواطن رفعته وقوته . أما فى « الكاريكاتور » فإن غرضك الأول ، هو أن تبحث عن الغلطة المحسوسة فى تكوينه الجسمانى ، وأن تنقب عن السقطة الملحوظة فى تركيبه النفسى ، وأن تفتش عن الخلة الممقوتة فى طبعه الخلقى ، حتى إذا عثرت على شيء من ذلك ، وأنت لا شك واجد فى أغلب الأحيان ، بادرت إلى قلمك أو ريشتك فقمت تمعن فى تجسيم هذا العيب وتضخيمه ، وإبرازه على نحو يجعله فى نظر الرائى أو القارئ طاغيا على ما عداه من صفات !.. فلا يقع البصر أو الذهن إلا على العيب وحده قائمًا ، كأنه هو الشخص كله ، وليس للشخص سواه من قوام أو كيان أو وجود ..

ولتصغ إلى « الجاحظ » حيث يقول فى كتابه عن ذلك الرجل الذى جعله فريسة لتصويره : « كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدّعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعا وتحسبه ، لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدورًا ، وكان جعد الأطراف ، قصير الأصابع ، وهو فى ذلك يدعى البساطة والرشاقة وأنه عتيق الوجه ، أخمص البطن ، معتدل القامة ، تام العظم . وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه طويل النجاد ، رفيع العماد ، عالى القامة ، عظيم الهامة ، قد أُعطى البسطة فى الجسم ، والسعة فى العلم . وكان كبير السن ، متقادم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب، حديث الميلاد .. إلخ .. »

وعلى هذا النحو يمضى « الجاحظ » يصور لنا ذلك الرجل تصويرا ، لا يريد به هجاءه ، بقدر ما يريد به إضحاكنا منه !.. وهذا هو روح فن « الكاريكاتور » ...

على أن من الشعراء من أتقن ذلك اللون بشعره أكثر مما أتقنه « الجاحظ » بنثره .. وكلنا يذكر لابن الرومى تلك الأبيات ، التى يصف بها رجلا أحدب :

قصرت أخادعه وطال قذاله فكأنه مترقب أن يصفعا
أو أنه قد ذاق أول صفعة وأحس ثانية لها فتجمعا

وهكذا زاول العرب فن « الكاريكاتور » شعرا ونثرا ، حيث لم تتح لهم الظروف أن يزاولوه رسما ونقشا .. كل شىء خطر على بال عبقريتهم .. وإنهم ليعوضون دائما ما يفوتهم فى جانب ، بالإجادة فى جانب آخر !.. قانون التعويض الطبيعى كان رائدهم الخفى فى حضارتهم .. حضارة كاملة شاملة ، آن للغرب الظالم المجحف أن ينظر إليها بعين التقدير والتوقير !..

نظرة حديثة إلى أبى العلاء

ما من شىء كان يخلب لب الشرقى فى « باريس » مثل مناظر الرقص فى مسرح « الفولى برجير » أو « الطاحونة الحمراء » .. هنالك ترى عيناه الستار ، قد انفرج عن جنة من ورق ، نضرته الأصباغ ، وأنعشته الأنوار !. قامت فيها أشجار ، تتساقط من بين أغصانها حور عاريات ، يهبطن المسرح راقصات مغنيات .. لا ذلك الرقص الذى نراه فى بلادنا مقصورا على هز الشدى والأرداف ، ولكنه رقص هو إلى الشعر أقرب ، فما مجموعة الراقصات هناك إلا بيت من الشعر !.. كل امرأة فيه كلمة !.. وكل كلمة ذات معنى نخاص من حسنها الذاتى !.. وإذا الكلمات أو الراقصات يتجمعن فى عبارة من حركاتهن المنسقة ، ولها معنى أشمل وأعم ، كمعنى بيت منظوم له روى ونغم !!.. كنا نشاهد ذلك عقب الحرب العالمية الأولى ، ونقول ما نقول فى أنفسنا معجبين بالخيال الغربى !!..

لقد أنستنا براعة الإخراج ما فى بطون الكتب !.. ذلك أن العجب الأكبر هو أن « أبا العلاء المعرى » تخيل أكثر من ذلك منذ ألف عام !.. ولنرجع إلى تصوره لحدائق الحور ، ورقص الحور فى « رسالة الغفران » ، ولنصغ إليه حيث يصف :

« ويمر ملك من الملائكة فيقول : يا عبد الله ! أخبرنى عن الحور العين ، أليس فى الكتاب الكريم :

﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكارا ، عربا أترابا ، لأصحاب اليمين ﴾؟ ..

فيقول الملك : « اقف أثرى » !.. فيتبعه ، فيجىء به إلى حدائق ، لا يعرف كنهها إلا الله . فيقول الملك : « خذ ثمرة من هذه الثمر فاكسرها ، فإن هذا

جر يعرف بشجر الحور !» .. فيأخذ سفر جلة أو رمانة أو تفاحة أو ما شاء من الثمار ؛ فيكسرها ، فتخرج منها جارية حوراء عيناء !.. إلخ ..» ومضى بو العلاء » يروى أن « الخليل بن أحمد » دخل الجنة ، وكانت له أبيات تصلح ، يرقص عليها .. فأنشأ الله شجرة من الجوز تونع لوقتها ، ثم تنفض عددًا من نمر تنشق كل جوزة منه عن أربع جوار يرقن الزائرين ، يرقصن على أبيات « الخليل » :

إن الخليـــط تصدع فطر بـدائك أو قـع
لـولا جــوار حسان مثـل الجـآذر أربـع
لقلت للظاعـن اظعـن إذا بــدا لك أو دع

أكان ينقص هذا الخيال غير مخرج يقيمه فوق مسرح ؟. ولكن الذى يدهشنى حقا ، هو أن فكرة « أبى العلاء » عن الرقص لا نرى لها أثرًا فيما ورثناه من ذلك الفن .. لقد كان ذلك الضرير مثل ، « هومير » ، يتخيل الأشياء فى سموها وعلوها ، لقد استطاع أن يرى فن الرقص على ما ينبغى له من نبل وارتفاع !.. ولكن المحيط الاجتماعى فيما أعتقد هو الذى طبع الرقص الشرقى بهذا الطابع الذى نعرف ، فقد كان هذا الفن ــ مما تزاوله الجوارى ــ لا ليعرض أمام الجماهير ، فى مكان رحب ، ولكن ليعرض أمام مولى أو سيد ، فى لحظات أنس ومتعة فى خدر من الخدور ، أو مجلس من مجالس الشراب والسرور !.. هذا المكان الضيق، وهذه الظروف الخاصة حددت شكل ذلك الذى نسميه اليوم بالرقص الشرقى ... فكان مجاله ــ كما نرى ــ جسم الجارية ... والحركة فيه لا تتعدى حركة أعضائها ، فالراقصة بلحمها وحده : هى كل مدار الرقص ، وكل مسرحه !.. ومعانى فنها لا تتجاوز إبراز محاسن أعضائها ؛ على النحو الذى يروق لرجل فى يده كأس .. أما الرقص الغربى فقد ورث أصوله عن الإغريق .. والمجتمع الإغريقى عرف الرقص فنا يعرض فى الهواء الطلق أمام الجماهير .. وكان لشيوع الألعاب الرياضية « الجمباز » وازدهار النحت ، و « التراجيديا »

أثر — ولا ريب — فى طبع الرقص الإغريقى بذلك الطابع الذى نرى صوره اليوم على بقايا الأوانى ، وأفاريز المعابد !.. رقص ليس المجال فيه جسم الراقصة وحده ، بل حركة الجسم فى إطار المكان وليس رويه ونظمه ونغمه فى التناسق ، بين حركة ردف وبطن ، بل بين تماوج راقصة وراقصة !.. فى الرقص الشرقى ، يدور الحوار دائمًا ، بين عضو وعضو من جسم راقصة !.. أما الرقص الغربى ، فالحوار يدور بين الراقصة والهواء وبين مجموعة من الراقصات والفضاء !.. وإن الأذرع والسيقان والأقدام لتتحرج وتتماوج ولكنها لا تفقد أبدًا الصلة بينها وبين الطبيعة المحيطة بها من أرض وفضاء ..

إن الراقصة الشرقية دائما فوق الأرض ، كأنها فى الطين مغروسة . أما الراقصة الغربية : فكأنها تريد أن تثبت أنها تمشى فى الهواء مرتفعة عن الأرض ، فهى تخطو على أطراف الأنامل وتثب كأنها جواد !..

إن الصلة بين الجواد والراقصة يلمحها كل من نفذ إلى روح الرقص .. لقد حدثنا « بول فاليرى » — فيما حدث عن المصور « دجاس » ، الذى حذق تصوير راقصات « الباليه » ، — أن ذلك الفنان لم تغب عنه تلك العلاقة بين الراقصة والجواد ، فقد كان يدرس خيل السباق فيما يدرس من مصادر فنه !.. فالجواد هو الآخر يمشى على أطراف حوافره متبخترًا ، أنامل أربع تحمله !.. ما من حيوان غيره يشبه الراقصة الأولى فى مجموعة « الباليه » !.. ولقد ذكر لنا أن « دجاس » وصف جوادًا ببيت من الشعر قال فيه : عصبى المزاج ، فى عريه الكامل ، وثوبه الديباج !.

هنالك أيضًا نجد شعراء العرب قد فطنوا إلى ذلك الشبه ، وتلك الصلة ، وقالوا فى الجواد مثل ذلك قبل قرون !.. وها هو ذا « البحترى » يقول :

جذلان تحسده الجياد إذا مشى

عنقا بأحسن حلة لم تنسج

وقبله قال « زهير » :

وملجمنا ما إن ينال قذاله

ولا قدماه الأرض إلا أنامله

كما قال ، كذلك « ابن المعتز » :

إذا مال عن أعطافه قلت شارب

عتاه بتصريف المدامة طافح

ما قصر شعراء الشرق إذن فى فهم روح الرقص ، ولكن الذى جنى على هذا الفن هو روح المجتمع الشرقى !.. لولا ذلك ، لكان « أبو العلاء المعرى » هو خالق « الباليه » الأول ..

الباب الثالث

الأدب والفـــن

إذا كان أحدهما الكأس فالآخر الخمر !..

مع فن الطفولة

إذا أردت أن تعرف ما هو أروع صوت كان يبهر مشاعرنا ، ونحن صغار ؛ فاعلم أنه صوت الطبلة !.. لا طبلة الجيش المظفر ، يسير تحت نوافذنا منشور البنود ، ولا طبلة حراس « المحمل » تدق من فوق الجمال المزوقة ، ولا حتى طبلة « المسحراتى » فى ليالى « رمضان » الساحرة ؛ بل طبلة صغيرة متواضعة .. هى طبلة « الأراجوز » إذا اقترب من حينا ..

عند ذاك ترى العجب : أفواجا من الأطفال ، يخرجون من بيوتهم ركضا ؛ كأنهم جنود ، يهبون من ثكناتهم على دقات طبل « الطابور » !.. ويجتمعون كالنمل فى تلك الساحة ، حيث ينصب « الأراجوز » مسرحه الضيق المرتفع ! يتطلعون إليه بعيون شائعة ، وأبصار زائغة ؛ ينتظرون ظهور تلك الأشخاص المتحركة المتكلمة الصاخبة ، أو تلك التى نسميها نحن الكبار الآن : دمى !..

لا أنسى ذلك اليوم الذى هرعت فيه إلى الساحة ، على صوت تلك الطبلة ، وفى ذيلى جارى الطفل « عطية »، وقد كان أصغر منى بنحو عامين ؛ يركض بركوضى ، ولا يدرى أين نذهب !..

فقد كان ذلك اليوم أول عهده برؤية « الأراجوز » !..

وقفنا نتندر محملقين بين الجموع ، حتى دبت الحياة فى المسرح الصغير ؛ وظهرت على خشبته دمية ، تمثل شخصية امرأة « شرقاوية » ؛ بملسها الأسود ، وبرقعها الكثيف المحلى بالجزع والخرز .. فما أشعر إلا ويد الطفل « عطية » تجذبنى جذبا عنيفا !..

ولقد نسيت فى تلك اللحظة أن له خالة من أهل الشرقية .. فلم أعره بالا .. إلى أن يئس منى ، فتركنى وجرى مخترقا الصفوف ، حتى وقف بأسفل المسرح ، فرفع رأسه إلى تلك الشخصية ، وصاح بها فى نبرة جذ أعرفها منه :

ــ خالتى !.. خالتى « أم خميس » !..

وظن مخرج « الأراجوز » أن الطفل يعابثه ، فجاراه قائلا بلسان الدمية :

ــ نعم يا بنى !..

فصاح الطفل :

ــ أمى بتسلم عليك !..

ــ أمك مين ؟..

لفظتها الدمية بلهجة ساخرة ، و لم يدركها بالطبع الطفل ، ومضى يجيب بكل جد :

ــ أمى .. « أم عطية » !..

ــ سلم لى عليها !

قالتها الدمية على عجل ، فقد ظهرت عند ذاك دمية أخرى ، تمثل خفيرًا يحمل هراوة ضخمة ، اقترب من « الشرقاوية » وقال لها : « امشى من هنا ياولية !.. » وأشبعها سبًا وشتما ، وانهال على أم رأسها بنبوته ضربًا ، فلم يكد الطفل « عطية » يرى ذلك ، حتى بكى بدمع سخين ، وترك الجمع وجرى إلى بيته صائحًا :

ــ أمى !.. أمى !.. الخفير نازل ضرب بنبوته فى خالتى « أم خميس » !.

فنهضت أمه دهشة مستغربة :

ــ خالتك « أم خميس » !.. هى فين ؟.. دى فى الريف .. وإيش جابها مصر ؟!

ــ لا .. دى هنا .. وقالت لى سلم على أمك !.. وطلع الخفير طردها وضربها بالنبوت !..

ــ ويطردها ليه ؟.. ويضربها ليه ؟.. هو له ضرب عليها ؟!.. تعال يا بنى ورينى هى فين ؟!

وقامت إلى ملاءتها ، فتدثرت بها ، وأمسكت بيد ابنها « عطية » ، وخرجا

لنجدة « أم خميس » ..

ومشيا مسرعين حتى بلغا الساحة .. وهناك وقف الطفل ووقفت أمه بوقوفه ، وأدارت بصرها فى المكان .. فلم تجد غير « أراجوز » يلعب ، وصبيان وعيال محملقين فيه مشدوهين.. فصاحت فى ابنها :

ــ هى فين خالتك يا بنى ؟

وكان الخفير لا يزال يضرب بهراوته رأس الشرقاوية ، وهى تصيح وتولول ، وتبادله لعنًا بلعن وبذاءة ببذاءة ، وتستغيث بالناس ، ملوحة بذراعيها فى الهواء !.. فجذب « عطية » والدته من طرف إزارها ، وأراد أن يخترق بها جموع الغلمان ، وهو يبكى ويشهق وينشج ، ويشير إلى الشرقاوية الغريقة فى شجارها مع الخفير ، مناديا إياها : « يا خالتى .. » صائحا بها أنه قد أحضر أمه ، لإنقاذها مما هى فيه ..

وأدركت « أم عطية » الأمر ، وفهمت حقيقة الموقف ، وخشيت أن تتعرض لسخرية لاعبى « الأراجوز » فخلصت طرف ثوبها من قبضة ابنها .. وقفلت راجعة إلى بيتها ، وهى تتميز من الغيظ ، وتقول مخاطبة نفسها :

ــ يا مصيبتى فى عبط الولد .. قال دى خالته « أم خميس » !..

* * *

هل حقا هو « عبط » ما وقع من ذلك الطفل ؟!.. لطالما طرحت على نفسى هذا السؤال .. بل تساءلت : ألا يستطيع مثل ذلك الطفل أن يميز ــ على الأقل ــ بين الأحجام ؟.. لقد كان حجم تلك الدمى الصغيرة أضأل بكثير من الحجم الآدمى ، وهو مع ذلك لم يحفل بالفروق ، ومضى يعتقد ما اعتقد ؛ ذلك أن الطفل لا يرى الأشياء بعينه . بل يراها بخياله .. إن الحقيقة عنده ليست فى الإطار الخارجى للأشياء ، بل فى المعنى الذى ترمز له !.. ليس يعنى الصبى أن يكون سيفه من صفيح أو حديد أو خشب .. إنه سيف وكفى !.. وإنه ليعطى هذا المعنى المجرد قوة أصلب من قوة المادة ، وإنه ليس يعنى الصبية أن تكون

عروسها من قطن أوليف أو طين .. وإنما هى معنى يثير فيها غرائز الأمومة ؛ فهى تحتضنها ، وتضفى عليها من الأسماء والصفات ما يخيل إليها أنها جسم حى ؛ لذلك كانت حياة الطفولة أخصب من حياة الكبر ؛ لأن الطفل — ذلك الساحر أو الفنان — يستطيع أن يقلب الصفيح حديدًا ، والقطن جسدًا نابضًا ، والزجاج ماسًا لامعًا .. لا قيمة عنده لحقيقة المادة .. يكفى أن يمسها بيده لتصبح لها الحقيقة التى يريدها ..

فطن إلى ذلك أصحاب « الأراجوز » أو « صندوق الدنيا » ؛ فتراهم لا يكلفون أنفسهم جهدًا ولا نفقة ولا حذقًا ، فى إخراج دماهم أو صورهم على نحو متقن كل الإتقان !.. لكأنهم يقولون لأنفسهم : « وما فائدة ذلك ؟.. إن المخرج الحقيقى هو الطفل نفسه !» ... نعم .. يكفى أن يظهروا له قطعة من الخشب ، رديئة الحفر والنحت والنقش ، يلفونها فى خرقة سوداء قائلين : إنها امرأة شرقاوية ، وعلى الطفل الباقى !.. إنه هو الذى يلبس هذه الخشبة لحما ودمًا ، ويمنحها حجما وروحا ، ويخلقها إنسانا حيًا يعرفه ويحادثه ويعيش معه !..

أما نحن الكبار فقد ضاعت منا القدرة على الحياة فى « المعنى » ، و لم نعد نستطيع العيش إلا فى « المادة » !...وقد انكمشت الحقائق فى نظرنا ؛ فلم نعد نبصر غير حقيقة الإطار الخارجى للأشياء ، و لم يعد فى مقدورنا أن ننفخ الروح فى شىء .. لا بد لنا إذن من فنان — وما الفنان إلا إنسان احتفظ ببعض قوى الطفولة — ينسج لنا أوهامًا وأخيلة وصورًا ، توسع لنا قليلا من أفق حياتنا المادية الضيقة .

يقرع صاحب « الأراجوز » طبلته ، وهو يعلم أنه سيجتمع حوله رهط من الفنانين الخالقين فى صورة أطفال وصبيان !.. ويعرض صاحب المسرح روايته ، حاشدًا لها خيرة المؤلفين والمخرجين والممثلين ، وهو يوجس خيفة من أن يخفقوا فى رفع جمهور الكبار ، من حياتهم الأرضية إلى عالم المعنى والخيال !

شاهدت فى عام ١٩٣٦ رواية « فاوست » لجوته ، يخرجها فى « سالزبورج » المخرج العظيم « ماكس راينهارت » ... وقد رأى — إغراقا فى طلب الروعة — ألا يلجأ إلى مسرح أو مناظر أو ستائر ، بل شيد — بالحجر والآجر — مدينة بأكملها فى سفح الجبل ، هى المدينة التى تجرى فيها حوادث الرواية ، فى القرون الوسطى ، بكنائسها القوطية وحاناتها ، وبيوتها ، ونافوراتها ، وجعل الممثلين يتنقلون بينها كما لو كانوا يتنقلون فى الحياة ، والنظارة على المدرجات — فى الهواء الطلق — يشاهدون .. ثم حضرت بعد ذلك فى « سالزبورج » نفسها رواية « الدكتور فاوست » لمارلو ، تخرجها فرقة « أراجوز » على مسرح للكبار .. ولكن أى « أراجوز » ؟!... لقد كانت الدمى فيه بنصف الحجم الطبيعى ، زاهية فى ثيابها التاريخية .. تتحرك فى مناظر خلابة ، من أشجار يانعة ، وبيوت ومدن ، تسلط عليها إضاءة ذات فن يحير العقول .. لقد كانت الجحيم التى تردى فيها « فاوست » تكاد ، من براعة الفن ، تكون جحيما حقيقية بنار ذات لهب ، والقارب الذى أوصله إلى مملكة الموت يكاد يمخر فى أمواج ذات هدير ، والعفاريت بقرونهم والزبانية بشوكاتهم !.. فن لم يترك مجالا لخيال مشاهد ، ولم يعتمد على مخيلة متفرج .. ولا عجب فهو يعلم أنه يتقدم إلى نظارة من الكبار !..

لونان من الفن شاهدتهما فى موضوع واحد وأسبوع واحد : أحدهما لجأ إلى الوسائل الكبرى ، والآخر لجأ إلى الوسائل الصغرى ، الأول أراد أن يثير خيالنا بأكبر قدر من الحياة ، والثانى بأكبر قدر من الصناعة . أولهما طرق باب تصورنا بما رآه يناسب حاضرنا ، والآخر توخى أن يحرك مخيلتنا بما يذكرنا بماضينا !..

ولكن هذه الجهود المشكورة — وإن كانت قد منحتنا المتعة الفنية — لم تستطع أن تجعلنا نعيش فى خيالها أكثر من لحظات : هبطنا من عليائها بهبوط الستار !..

لا يستطيع الإنسان أن يعيش طويلا إلا فيما يخلقه ، هو بنفسه داخل

نفسه ...

إن كل فنون الأرض اليوم ، لتعجز عن أن تجعلنى أرى ما كنت أراه فى دمى « الأراجوز » الرخيص !..

وإن كل فرح الدنيا لا يثير فى مشاعرى ما كانت تثيره دقات طبلته المتواضعة ، وهو يقترب من حينا !..

مع أهل الموسيقى

١

فن الموسيقى فى « مصر » كما عرفناه منذ ثلاثين سنة . كان يلمع فى سمائه ثلاثة نجوم : « داود حسنى » و « سيد درويش » و « كامل الخلعى » .

و لم تكن معرفتى وثيقة بسيد درويش ، ولكن رواية غنائية لى ، عرضت عليه ، فطلب فى تلحينها ستمائة من الجنيهات !.. فرأت « الجوقة » أنه قد سأل شططًا ؛ فسحبتها منه ، وعهدت بها إلى « كامل الخلعى » الذى رضى بثلاثين !...

على أننا كنا نعيش فى ذلك الجو الفنى العجيب ، الذى استطاع أن يخلقه « سيد درويش » !... كنا نتتبع آثاره الجديدة فى كل مكان ، ونعرف أحدث ألحانه — قبل أن تذاع — من فمه أو أفواه من التقطوها عنه ، فى ليلة من ليالى وحيه المنهمر !... على أنى فى ذلك الوقت كنت أكثر احتفاء بما يخرجه هذا الموسيقى المجدد ، فى النوع الجاد من « الأوبرا » و « الأوبريت » . وإنه لمن المحزن أن نرى الجيل الجديد اليوم يصغى إلى هذا الكلام دهشاً !... لا يتصور كيف ازدهر هذا اللون من الموسيقى فى الماضى ، ومات فى الحاضر ؟!...

***

كانت أغانى « سيد درويش » وألحانه الشعبية تسرى فى الناس كالنار فى الهشيم !... ولكننى ما كنت أرى منه ، أن هذا هو الذى يملؤه بالفخر ؛ فقد كان تواقاً إلى الفن فى صورته العليا !... وإنه لعجب أن يكون لمثل « سيد درويش » بثقافته البسيطة صورة عليا للفن !. أتراها غريزة الفنان الأصيل ، تدفعه إلى

البحث والغوص فيما وراء السهل والضحل من أشكال الفن ؟!... ربما كان الأمر كذلك ؛ فسيد درويش لم يكن بالفنان الذى يكتفى بالإلهام ، ويقعد عن التحصيل !... لقد رأيت « سيد درويش » بعينى يأتى معنا إلى « تياترو الكورسال » ، ليشاهد جوقة الأوبرا الإيطالية ، تعرض « توسكا » و « مدام بترفلاى » لبوتشينى و « البلياتشو » لليون كافللو !... فقد كانت دار الأوبرا » فى ذلك الوقت ترفا يستطيعه سائحونا ، ولا تطيقه جيوبنا ، وكان المسيو « داليانى » — صاحب « الكورسال » — بارًا بالفقراء أمثالنا ، من مجانين الفن ؛ فكان يستقدم لنا فرقا متواضعة ، تغذينا وتعلمنا بقليل من النفقة !.. ما من شك عندى فى أن « سيد درويش » كان يرى من أسرار هذا الفن الأوربى ، أكثر مما كنا نرى ، وكان ينتفع ، ويتمثل ، ويهضم أضعاف ما كان يتهيأ لمثل بنيتنا الفنية العادية .. وكان من أثر ذلك أن طمع فى أن يصل بفنه إلى مرحلة التجرد الأعلى — التجرد من الشعبية ، والصور المحلية — وأن يقدم موسيقى موسومة بطابعه وحده — لا طابع بيئة بالذات ؛ فقال للمرحوم « محمود مراد » عندما قدم إليه رواية « البروكة » ممصرة عن الرواية الفرنسية « لا ما سكوت » : إنه لا يريدها فى صورة مصرية ولا شرقية !.. ولكنه يريدها على أصلها ، بجوها الفرنجى ، وأشخاصها الأوربيين ، لأنه مقدم على محاولة جريئة لن يحيد عنها !.. إنه يريد أن يفرض موسيقاه — بطابعها الخاص — على ذلك الجو الأجنبى !..

وتم له ما أراد ، وأخرج هذه الرواية بفرقته الخاصة التى كان أنشأها أخيرًا ، واستأجر لها مسرح «دار التمثيل العربى» ، الذى كان مجاورًا لشارع « وجه البركة » !..

ولا أنسى أبدًا تلك الليلة التى ظهرت فيها « البروكة » لأول مرة ؛ كانت ليلة انهمر فيها المطر ورعدت السماء ، وامتلأت شوارع « القاهرة » بالوحل والماء !..

ولكننا — نحن أنصار « سيد درويش » و محبيه وإخوانه — ما كنا نشعر قط بما فعلته الطبيعية من حولنا !.. إنا نعرف أن الطبيعة عدو الفنان ؛ لأنها تغار منه ، وتعده منافسًا لها فى الإبداع — وماذا يهم ؟.. لو أن السماء انطبقت على الأرض فى تلك الليلة لما فطنا إلى ما يجرى ؛فحبنا للفن كان أقوى من الطبيعة ذاتها !..
ورفع الستار عن « البروكة » أمام عدد من النظارة لا يزيد عن الأربعين أو الخمسين ، بما فيهم الأنصار والأصدقاء !.. وجرت الألحان تصور مختلف المناظر والمواقف والعواطف : من نشيد الجيوش الظافرة مثل لحن : « املا الكاسات » .. إلى قوله : « الاحتفال بالانتصار » .. إلخ ، إلى وصف الريف بدجاجه وخرافه التى تصيح : « ماء .. ماء » فى لحن : أحب خرفانى السمان » إلخ .. وغيرها من الألحان التى لا تسعفنى الذاكرة الساعة بحصرها !.. خرجنا من تلك الرواية فى شبه ذهول !.. وكان الليل قد انتصف ، ولكنا لم نذهب إلى بيوتنا ، أو نأو إلى فراشنا ؛ فذاك عهد ولى — ما كنا نعرف فيه المضاجع قبل الفجر !..

* * *

جلسنا فى قهوة — أو على الأصح « خمارة » — مجاورة لدار التمثيل العربى .. وما لبث « سيد درويش » أن أقبل علينا ، مع الصديق المرحوم « عمر وصفى » ... وقد نفض عنه ثياب التمثيل . وهو يقول : ما رأيكم ؟..
لم يخطر فى بال الفنان المسكين أن يسألنا عن رأينا فى كساد الحفلة وخواء الصالة !.. ولا خطر فى بالنا أنه يسألنا فى ذلك ، فقد كنا ندرك أن الرأى المطلوب هو أجل من ذلك عنده وأسمى — لا لأنه كان يريد الإفلاس أو يكره المال ؛ — بل لأن فرحة الفنان بفنه تبهره أكثر مما يبهره المال ، وأن النشوة التى تبعثها خمرة الفن تذهب دائمًا بلب الفنان فى أول الأمر ، فتذهله عن كل شىء !..
أدركنا ما يريد فقلنا !!... لست أذكر والله ما قلنا .. ولكن الذى لا شك قد حدث هو أنه قرأ فى وجوهنا الجواب : أنه قد انتصر !..

وفى اليوم التالى قابلت زميليه « كامل الخلعى » و « داود حسنى » « وأبديت لهما ما خامرنى من تلك الرواية الرائعة ، فهز كل منهما رأسه هزة أعرف مغزاها ، كانا من أنصار القديم ، أو على الأقل كانا فيما يبدعان — من فن شرقى جيد مكين — يسيران فى التجديد بحذر واحتياط ، لذلك كان لهما فى « سيد درويش » رأى : إنه فى عرفهما ملحن خارج على القواعد والأصول ، والمعقول والمنقول !..

وتلك هى التهمة الأبدية لكل مجدد جرىء ..

على أنى لا أعتقد أن « سيد درويش » كان يتعمد التجديد قهرًا أو افتعالا « ولم أسمعه يتحدث فى ذلك ، كما يتحدث أصحاب النظريات أو قادة النهضات — ولكن التجديد عنده ، فيما أرى ، كان شيئا متصلا بفنه ، ممزوجا بدمه .. لا حيلة له فيه .. شيئًا يتدفق من ذات نفسه ، كما يتدفق السيل الهابط من القمم !.. كانت الألحان تتفجر منه ، كأنها تتفجر من ينبوع خفى — حتى عليه هو . لقد سمعته ، وسمعه بعض أصدقائنا يقول ذات يوم :

« أستطيع أن ألحن كل شىء : أستطيع ألحن الجرائد اليومية !.. »

نعم !.. لقد أحس أن لا شىء يقف أمام نبع ألحانه المتفجر ، لا النظم واجب له ولا الأوزان !.. أى كلام عادى كان يستطيع أن يصب فيه لحنا يحييه ، كما يصب ماء الحياة فى العود اليابس !.. عند ذلك فهمت لماذا كان يقول لى دائما « كامل الخلعى » : « زن لى كلامك وزنًا آخر ، حتى يستقيم مع اللحن الذى عندى » !.. إن « كامل الخلعى » موسيقى متمكن ، وهو — من غير شك — أرسخ قدما فى أصول الموسيقى من « سيد درويش »، ولكن أين له عبقرية هذا الأخير ؟! تلك العبقرية ، أو ذلك السحر الخفى الذى ما مس كلاما حتى قلبه نغما تحار فيه العقول !..

ومع ذلك ، لم يصب « سيد درويش » قدرًا كبيرًا من تقدير الناس ، بل إنه كان يقابل أحيانًا بالسخرية ، كلما ظهر على المسرح بجسمه الضخم وصوته

الفحل !.. ولا أنسى يوم مثل البطل فى رواية « شهرزاد » ؛ لقد حـزنت وثرت ، وأنا أرى الجمهور يستقبله بالنكات ، وهو يرفع عقيرته ويغنى : « أنا المصرى كريم العنصرين ... » .. لم يعرف الجمهور أن يقدر فيه صحة النغم قبل رخامة الصوت ، ولم تهذب بعد الحاسة الفنية للجمهور المصرى ، ليدرك أن صحة صوت الرجل هى فى رجولته وقوته ، لا فى طراوته وحلاوته !.. وأنا شخصيًا كنت أطرب لصوت « سيد درويش » ؛ لأنى ما فهمت الموسيقى قط إلا على هذا الوضع .

لا جدال فى أن الثورة المصرية كان لها هذا الأثر فى توجيه « سيد درويش » إلى الإشادة بالمفاخر القومية ، فى إطار من الصوت الصلب ، والعواطـف الملتهبة ، والأداء القوى ؛ كما كان لهذه الثورة فضل فى كل ما اتسم به فن هذا الموسيقى من تجديد ؛ فقد خاض أعوامها شابا متفتح القلب لكل ما تأتى به — فى الأفكار والأحداث من جديد .. فى حين أن كهول الموسيقيين فى ذلك الوقت ؛ من أمثال « كامل الخلعى » و « داود حسنى » ؛— ما تأثروا بالثورة ، ولا أثروا !.. وهل يستطيع أن يدرك أعاجيب الثورة ، أو يشعر بحرارتها إلا الشباب ؟!.. لقد انكشفت لعينى وقلبى معجزة « مصر » عام ١٩١٩م ورأيت الثورة فى كل مراحلها ، تسفر عن روح خفية باقية أبد الدهر ، نابضة ، تسعف « مصر » بين حين وحين . ظل هذا الشعور يلاحقنى حتى سجلته فى « عودة الروح » ؛ فالمعروف أن الثورات لا ينطبع أثرها إلا على قلب جديد ملتهب ، ولا يملك مثل هذا القلب إلا الشباب فى فورة شبابهم ؛ لهذا كان « سيد درويش » — ابن الثورة — هو قلبها الجديد الملتهب الذى تأثر بها ، وأخرج فنا قاد به الموسيقى الشرقية إلى أفق جديد .

٢

ما من ريب فى أنهم اليوم قليلون أولئك الذين عرفوا المرحوم « كامل الخلعى » فى أوج مجده الفنى !.. من ذا كان يستطيع أن يصاحب ذلك « الفنان العجيب » ، دون أن يتعرض لضحكات الضاحكين ؟!.. لقد كان ذلك الموسيقى من سلالة أولئك « البوهيميين » الذين لا يعرف أحد أعقلاء هم أم مجانين !.. كان إماما من أئمة فنه ؛ وكان له فى الموسيقى الشرقية كتاب ينم عن غزير علم ، ورسوخ قدم ؛ فقد عرف فضله الشيخ « سلامة حجازى » فحباه بتقديره — وإن كان لم يسلم من شذوذه ، فلقد صادفه ذات يوم ، وقد طرح عوده وفنه ، وحمل صندوقا لمسح الأحذية ، جعل يجوس به خلال المقاهى والمشارب ، فناداه الشيخ متعجبا قائلا : « جرى إيه يا سى كامل ؟! » ، وأراد أن ينفحه مبلغا من المال يعينه على عسر حاله ، فقال الفنان وكأنه لا يعرفه : « قرش تعريفة واحد ثمن المسحة !».. ولم يأخذ غيره ، ومسح له حذاءه ومضى رافعا رأسه ، معتزا بنفسه !..

أما أنا فقد عرفته ١٩٢٣م ؛ إذ كلفته « فرقة عكاشة » أن يلحن رواية لى .. فكان من الضرورى أن ألقاه من حين إلى حين ، وأن أصغى إليه ، وقد وضع على رأسه « كلبوشا » من صوف ، وارتدى معطفا قصيرا مرقعا فوق سروال من « عبك » ينتهى بقبقاب فى قدمه من خشب .. وفى صدره العود يضرب عليه بأنغام رائعة ، لا يفسدها إلا صوته الأجش الذى يقطعه سعال التبغ الرخيص — يخرج من حنجرته كأنه خارج من « ماسورة » خربة ، فى « ماكينة » طحين !.. ولكن العجيب ، أنى كنت أطرب لذلك الصوت ، وأرى كأنه يخرج من بلبل ذهبى الفم فضى الحنجرة !.. حتى إذا انتهى من بعض الألحان ،

طرد العود وهب واقفا ؛ ليذهب معى إلى « التياترو » لتحفيظ الجوقة .. فنهبط ذلك السلم ـــ فى منزله فى حى « القلعة » ـــ الذى كان يخيل إلى فى كل مرة أنه سينهار بنا أثناء النزول ؛ لوهنه ورقة خشبه وطقطقته وأطيطه تحت أقدامنا الثقيلة ، فنخرج إلى الطريق ، وأنا أحمد الله فى سرى على السلامة والعافية ، وألتفت إلى صديقى الموسيقى ، فألاحظ العجب !.. إنه ينزل ويسير معى فى الشارع بعين الثياب التى كنت أحسبها ثياب المنزل .. عجبًا !.. أوَ يستطيع إنسان أن يمشى هكذا فى الطريق ؟!.. وإلى أين ؟.. إلى « تياترو الأزبكية » فى أهم شوارع « القاهرة »، ولكن لا عجب من ذلك ، فإنى لم أنزعج من منظره وقتئذ ، ولم أخجل من مصاحبته !.. إنه « كامل الخلعى » وكفى !.. وليتنا كنا نذهب راكبين بمنأى عن العيون ، ولكنه كان يصر على المسير ، فالمسافة فى نظره قصيرة ، إنه شارع « محمد على » ، لا أكثر ولا أقل ، ففيم ركوب « سوارس » أو « الترام » ؟!..

هكذا كنا نسير ؛ هو بثيابه التى كثياب الشحاذين ، وأنا بملابس « الأفندى » الكاملة التى توحى بالاحترام . وما كنا مع ذلك نمضى توا .. إن « سى كامل » له أطوار ؛ فهذا بائع « كيزان » صفيح ، لزوم المطبخ أو الزير ، فما أشعر إلا والموسيقى الذى يترنم بجوارى بأجمل الألحان ، قد وثب إلى البائع وصاح به فجأة : « بكم الكوز يا جدع ؟ .. وما يمضى قليل إلا و « كامل الخلعى » قد اشترى بكل ما معه نحو عشرة كيزان ، ما يدرى كيف يحملها ، وقد ربطها له البائع ووضعها فوق كتفه ، واستأنفنا السير وأنا أقول له : « أنذهب بها إلى التياترو ؟» فيقول على الفور : وماله ؟.. وهو أنا سارقها ؟ »

وعندما أسأله عما دعاه إلى شراء كل هذا العدد ، يجيب : « كلها منافع .. » ، ويقص علىّ كيف أن كوز الحمام دائما يضيع ، فأقسم أن يشترى كل كيزان البلد حتى تبطل حجة أهل المنزل ...! كلام معقول ؛ إن فن « كامل الخلعى » كان يجعلنى أرى كل تصرفاته معقولة ، ولكن الأمر الذى لم أستطع أن أجد له سببا معقولا ، هو ما حدث بعد ذلك ! لقد سرنا فى شارع « محمد

على » ، إلى أن وصلنا إلى ميدان « باب الخلق » ، وعندئذ طلع علينا شحاذ من أولئك الشحاذين الذين يضعون « الطرطور » على رءوسهم ، ويلبسون رداء مرقعا بمختلف الألوان ، ويحملون « المبخرة » النحاسية ، يلقون فيها لكل قادم أو كل تاجر أو كل حانوت بما فى جعبتهم من « مستكة » وقرنفل وعود وعتروت وعين العفريت وغيرها من أنواع البخور وهم يبسلمون ويحوقلون ؛ اقترب هذا الشحاذ صائحًا :

ــ « أهلا سى كامل » !

وتصافحا ، ومشى معنا ؛ كأنه صديقنا ، وما كدنا نسير إلى ميدان « العتبة » حتى لحق بنا زميل بمبخرته ، فصافح هو أيضًا وسلم وانضم ، ومشينا إلى « التياترو » هكذا ثلاثة شحاذون بما فيهم « سى كامل » يحمل كيزانه الصفيح بدل المباخر ، وأنا رابعهم ــ لم أفطن إلى صفتى بينهم ، ولم ألق بالا إلى من قد يصادفنى من معارفى وزملائى أهل الحقوق والقانون ، وما هم قائلون ؟.. إنه الفن ؛ ما كان شيء يعنينى ويبهرنى مثل الفن وأهله !.. كان لكلمة الفن فى أذنى وقتئذ رنين دونه رنين الذهب فى تيجان القياصرة ، وبريق دونه بريق الجوهر فى عروش الأكاسرة !.. أى حياة تلك التى كنا نحياها فى ذلك العهد ؟!.. حياة ما أرحبها وأعمقها وأجملها ، فى ذلك الإطار من ورق « الكرتون » المزوق ، ومناظر المسرح المبطنة بالخيش والقماش ، تصدح فى أرجائها الألحان والأغانى ، وتسود الكلمات والمعانى ، وترسل المصابيح أضواء تخسف بجانبها الأقمار وتكسف الشموس !..

ذلك أن الفن هو حلم يعيش فيه الفنان !.. هو وهم ، له دولته وحدوده وقوانينه وعروشه وتيجانه !.. لا يكتفى الفنان بالحياة فى هذا الوهم لنفسه ؛ فهو إن فعل ذلك واكتفى به ، لم يعد فنانا ، بل سمى فى الحال مجنونا ، وكان مقره مستشفى « المجاذيب » !..

ولكن الفرق الوحيد الذى أنقذ الفنان من هذا المصير ، هو أنه نجح فى أن ينقل إلى الناس وهمه وأن يدخلهم دولته ، وأن يخلق شخوصا وهمية ، يأنسون إليها كما

يأنس ، ويعيشون معها كما يعيش ..

ما المجنون فى بعض الأحيان إلا فنان ، احتفظ بوهمه لنفسه . وعاش فيه وحده.

وما الفنان فى بعض الأحيان إلا مجنون ، استطاع أن يفرض وهمه على الناس ، وأن يجعلهم يحبون هذا الوهم ، وما ينتج عنه من مخلوقات ، لا يملكون لها دفعا ، ولا عنها غنى ولا بعدا !..

لقد اشترى الفنان إذن خلاصه بهذا الثمن .. لقد أشرك الناس معه فى الاستمتاع بأوهامه وأحلامه ، فكفوا عندئذ عن اتهامه بالجنون ، وإلا اتهموا أنفسهم معه !.. والناس منذ فجر التاريخ لا يمكن أن يعتبروا أنفسهم إلا عقلاء !..

الفن جنون ، ولكن المجتمع ساهم فيه وأحبه ورعاه . والفنان فنان ، ما استطاع العيش فى خلقه وحلمه ، فإذا خرج منهما فقد خرج من مملكته الذهبية ، خروج المجنون من مستشفى الأمراض العقلية !..

غير أن المجتمع يستقبل الخارج الأخير بقوله : « عدت إلى نور العقل ، لقد شفيت إذن .. فحمدًا لله !» ويستقبل الخارج الأول قائلا : « عدت إلى نهار العقل ، لقد انطفأ سراج أحلامك ، وخرجت من عبقريتك ، إنا لله وإنا إليه راجعون !» .

مع أهل التصوير

لست أعلم شيئًا كثيرًا عن ذلك المصور ... كل ما كنت أعرف عنه أن اسمه « أوتو » وأنه من أهل الشمال « النرويج أو السويد أو الدنمرك » وأن له لحية كثة شقراء ، وأنه يحمل دائمًا تحت إبطه لوحات غريبة الرسوم ، فاقعة الألوان، فقد كان ينتمي إلى تلك المدرسة الفنية ، التى أثارت فضول الناس فى ذلك العهد ، بما كانت تلجأ إليه من وسائل غاية فى الإغراب ، ونظريات غاية فى الإغراق !..

كان هذا المذهب الفنى الجديد هو « بدعة » الحرب العالمية الأولى ، فلكل حرب –فيما يظهر– بدعة فنية تأتى فى أعقابها . وتملأ «باريس» حديثا عنها وضجيجا . كان« الكوبزم » فى التصوير هو « موضة » باريس فى ذلك الحين ، يتحدث الناس فيه حديث العارفين ، وأغلبهم لا يعرف عنه شيئا ، ولكنك لن تصادف واحدًا لا يقول لك : « الكوبزم » طبعا أحبه .. « الكوبزم »، هذا شيء جميل جدًا .. دعك من كل أنواع التصوير .. تلك أشياء عتيقة ولكن « الكوبزم » !..

وكان هذا مصدر عذابى !

لطالما وقفت الساعات والأيام ، أتأمل لوحات هذا « الكوبزم » ، وأضرب رأسى بيدى لأفقه ما فيها من جمال ، وأتهم نفسى بالجهل تارة ، وبالغباوة تارة ، وبموت الشعور تارة ، ثم أتحامل على ذهنى المسكين ، أرغمه على فهم أسرار الإبداع فى هذه اللوحات التى تصور (مثلثات) و (دوائر) و (مكعبات) و (مربعات) ، داخل بعضها فى بعض ، وقد صبغت بالأحمر الكابى ، والأزرق الزاهى ، والأصفر الفاقع ! .. ثم أخرج من قاعات تلك المعارض الفنية أقول مع القائلين : « جمال ! .. إبداع ! .. عبقرية ! ...

لبثت على هذا الحال زمنا وأنا أتألم لعجزى عن إدراك كنه هذا اللون من الفن ، وكان هذا الجهل منى بأمره سوط تعذيب ، تلهبنى به الأقدار ، أو قل ألهب به نفسى بيدى !.. فماذا سيجرى لى لو عرفت أو جهلت هذا « الكوبزم » ؟

ولكنه جنون تلك المرحلة من الشباب ! لقد كانت كارثة الكوارث أن أجهل نوعا من الفنون ، أو فرعا من المعارف !.. كان نهم (المعرفة) يكاد فى ذلك الحين يفقدنا صوابنا .. كان أشد الألم على نفسى أن أكتشف فيها قصورًا عن العلم والتحصيل ؛ وكانت تلك النقود القليلة فى جيبى تبذل ، عن طيب خاطر ، فى كتاب قبل أن تنفق فى طعام أو شراب ..

* * *

فما كدت أبصر ذات مساء ذلك المصور « أوتو » ـــ وكنت قد عرفته فى أحد مقاهى « مونمارتر » ـــ حتى تعلقت بذراعه ، وقلت له :

ـــ هل لك فى قدح من « البيرة »

ـــ أين ؟

ـــ هنا فى هذه الحانة الصغيرة ...

ـــ إذا رفضت فإنى لست فنانا .. أقصد فنانا مفلسا .. أعنى فنانا عبقريا من مذهب « الكوبزم » !

ـــ آه .. « الكوبزم » .. هلم بنا !!

وأدخلته إلى تلك الحانة الصغيرة ، بجوار ملهى « الطاحونة الحمراء » ، وجلسنا إلى خوان ، وبادرت فطلبت له قدح « البيرة » ، ودفعت ثمنه الزهيد فى الحال قبل أن يفيق الضيف ؛ فيكثر من الطلب ، ويبهظ فى النفقة ، ورأيت أن أحتال فى الكلام حتى لا أظهر له أنى أسأله خدمة ؛ فيستغل الفرصة ، فقلت له بنبرة الحديث الثافه العابر :

ـــ كنت اليوم فى متحف « اللوفر » .. أتدرى ماذا فعلت طول

الوقت ؟.. مررت أول الأمر بالقاعة المربعة ، حيث وقفت لحظات ، أتامل لوحة « أعراس قانا » لذلك المصور البندقى القديم « بول كالياري فيرونيز » ..

فصاح بى :

— « فيرونيز » ؟.. أتسمى هذا مصورًا ؟. لا ياسيدى !.. هذا نقاش مسارح !.. ماذا رأيت فى « أعراس قانا » غير أعمدة قصور وهياكل ، وسور شرفة من المرمر ، وجمعًا محتشدا حول موائد ؟!.. هذا منظر من تلك المناظر التى ترسم للتراجيديات على الكرتون والقماش !..

فلم أجادله .. ومضيت أقول :

— ثم ذهبت أتأمل لوحة « المسيح فى القبر » ، للمصور الفلمنكى « فان دايك » ..

فقاطعنى :

— « فان دايك » !.. بمسيحه المطروح العارى ، إلا من تلك الخرقة حول بطنه ، وقد لوى عنقه وتدلى رأسه ، وتلك المرأة التى عند قدميه ، تشبك يديها على صدرها حزنا !.. وتلك التى عند رأسه كالوهى ، تشير إلى السماء بعينيها . ياله من مشهد مؤثر !.. ولكنك تتأثر للحادث المؤلم ولا دخل للتصوير هنا !.. « فان دايك » يعتمد فى لمس قلبك على عاطفتك الدينية ، لا على ريشته وحدها !.. وهذا ياسيدى ليس بالتصوير !..

فلم أناقش ، واستطردت :

ثم لفتت نظرى لوحة المصور الفرنسى « كورو » عن الصباح ، أو ما يسميه « ذات صباح » تلك الأشجار الباسقة فى الريف ، وقد تنفست أوراقها بنسائم الفجر ، والقرويون والقرويات من حولها يرقصون ، ممسكة أيدى بعضهم بأيدى بعض ؛ كأنهم من طيور تلك الأشجار الفرحة بالصباح !.. لكأنك تلمس رقة هواء الصبح ، تهب عليك من إطار اللوحة !..

فهز رأسه صائحا :

ــ « كورو » !.. أتظنه بما ذكرت يحسب فى المصورين ؟.. كلا يا صاحبى .. أدرجه فى الشعراء إذا شئت ، ولكن إياك أن تسميه مصورا !.. الشعر شيء والتصوير شيء آخر ..

فلم أماره ، واستأنفت قائلا :

ــ ثم صادفتنى لوحة المصور « هوراس فرنيه » عن معركة « وجرام » .. ونظرت إلى « نابليون »، فوق حصانه الأبلق ، يراقب من خلال منظاره الطويل المعركة المحتدمة ، ودخان البارود يغطى الأفق ، وقواده العظام من حوله ، يجذبون أعنة جيادهم الصاهلة الصاخبة !..

فقاطعنى محتدما :

ــ أظنك ستقول لى أيضا : إن « هوراس فرنيه » مصور !.. لا يا سيدى .. هذا كثير !.. لك أن تقول إنه مؤرخ ؛ فربما صدقت !.. وإذا أردت الدقة فقل « مؤرخ مزيف » !.. ولو كنت تعرف كيف يصور المعارك هذا الرجل ! .. أقسم لك إنه لم يشاهد معركة فى حياته ، حتى ولا فى الحى الذى يقطنه ، بين صبية يلعبون « البلى ».. وكل ما يلهمه ، ويوحى إليه ، وينقل عنه ؛ ــ قد ذكره بنفسه فى تلك الصورة عن « معمله » !.. بضعة سيوف صدئة ، ودروع قديمة مدلاة ، على الجدار ، وحصان هزيل لا يجد له علفا ــ هو ذلك الذى تراه فى لوحات معاركه ؛ أبلق مرة ، وأحمر مرة ، وأسود مرة !..

فلم أعارضه ، ومضيت أحدثه عن لوحات للمصورين : « بوسان » و « جيروم بوج » و « رافائيل » وغيرهم ، فانتظر حتى أفرغ فى جوفه آخر قطرة من قدح « البيرة » ثم وضعه على الخوان ، وقال ساخرا :

ــ « بوسان » ــ هذا الذى يجب أن يدعى « نحاتا » لا « مصورا » : ــ بأجسام عارياته الرخامية ووقفاتهن المتصنعة ، وإيماءاتهن المترفعة !.. هذا يا سيدى فن يقرب من « النحت » !.. أما « جيروم بوخ » ، بنماذجه البشرية العجيبة الخالية ، فهو روائى !.. أما « رافائيل » ، بتأنقه فى رسم يد « المادونا »

وقدم الطفل ؛ فقد بلغ القمة فى « الرسم » لا فى « التصوير ».. ومن غيرهم ؟.. ستذكر لى « جروز » هذا الخطيب .. و « ديلاكروا » هذا الأديب !..

فلم أر فائدة فى استمرار الحديث معه على هذا النهج ، وآثرت الدخول إلى قلب الموضوع ؛ فقلت له :

ـــ وما التصوير إذن فى رأى « الكوبزم » ؟..

ـــ « الكوبزم » هو التصوير نفسه .. هو كل التصوير .. هو حقيقة التصوير !..

ـــ كيف ؟

ـــ عجبا !.. لا تؤمن بذلك ؟

ـــ أومن .. أومن .. ولكنى أريد الاستزادة من الإيمان ليطمئن قلبى !..

ـــ التصوير ـــ أى « الكوبزم » ـــ يبنى على الحقيقة ، لا على الوهم !.. فلنفرض مثلا أنى أردت أن أصور دجاجة !.. هل تظننى أصورها كما اصطلح الناس على منظرها وهيئتها ، فى وهمهم المجمع عليه منذ الأحقاب ؟.. كلا يا سيدى .. إنما أصورها طبقا لحقيقتها الهندسية !.. ولأوضح لك ذلك بطريقة عملية .. أحضر لى دجاجة !..

فحملقت فيه دهشا مأخوذا .. وقلت :

ـــ الآن .. هنا ؟.. دجاجة .. حية ؟..

ـــ حية ، مطبوخة .. هذا لا يهم !..

ولم يمهلنى ، وأشار إلى « الجرسون » .. فلما حضر ، وجهه إلىّ حتى أطلب أنا له ما أراد ، فخرجت من فمى الكلمة ، ولا أدرى والله كيف خرجت :

ـــ دجاجة !..

فأسرع « الجرسون » يلبى ، ثم عاد بفرش للخوان ، وطبقين ، ووضع أحدهما أمام الضيف، والآخر أمامى ثم ذهب ورجع بطبق معدنى كبير فيه ورك دجاجة محمرة سمينة !.. وأنا كالمذهول أشاهد ما يحدث وأعد ما فى جيبى !..

فلما وضع بيننا ورك الدجاجة ، أدركت أن لا مفر ، وعزيت نفسى ، وقلت : كل شيء يهون فى سبيل المعرفة — ولى نصيب فى هذا العشاء على كل حال — ولكنى لم أكد أثوب إلى رشدى ، حتى رأيت مصور « الكوبزم » قد مد يده بالشوكة ، ونقل ورك الدجاجة بأكمله إلى طبقه .. وشرع يقول :

— انظر !.. ما هى الحقيقة الثابتة فى أعماق هذا الورك ؟.. إنه على شكل « مثلث » .. تلك هى الحقيقة الوحيدة .

ثم رفع السكين ، ومزق جلدها المحمر وغرز فيه الشوكة ، وجعل يلتهمها التهاما ، وأنا أنظر إليه ، مشاهدًا متفرجًا ! وفى أعماق نفسى ، ألم وأسى :

— كلا .. هذه ليست الحقيقة الوحيدة !..

و لم يفطن إلى ما بى .. ومضى يطعم ويتنعم .. ويقول :

— على أنى أغشك إذا قلت لك إن هذه كل نظريتنا فى التصوير !.. التصوير فى مذهبنا فن يجب أن يستقل بوسيلته عن كل وسائل الفنون الأخرى : فلا ينبغى أن يرتكن على موضوع ؛ لأن الموضوع من مستلزمات فن الشعر . ولا أن يقوم على شخصيات ؛ لأن ذلك من مقومات فن الرواية . ولا أن يستند إلى بناء ؛ لأن هذا من ضرورات فن العمارة . ولا أن يحاكى الأجسام الآدمية ؛ لأن هذا من فن النحت . ولا أن يعبر عن مشاعر عاطفية ؛ لأن هذا من فن الموسيقى !...

فقاطعته مستغربا :

— حتى الموسيقى !؟..

— الموسيقى لا يسمعها مصور إلا بعينيه ؛ وإذا تكلم عن الأنغام فإنما يعنى الألوان !.. المصور الحق هو رجل ضرير الأذنين !.. وسيلة التصوير الوحيدة التى يتميز بها عن كل وسائل الفنون هى : اللون !.. الألوان هى وسيلة التصوير وغايته .. لا ينبغى للمصور أن يقص على الناس موضوعات ، ولا أن يمس عقولهم ولا قلوبهم ، ولكنه وجد ليخاطب حاسة واحدة فيهم : بصرهم !.. التصوير شعر العين ، وسيلته وغايته : اللون ..

وكان قد أتى وحده على طبق الدجاجة ، ومسح فمه الملوث بدهنها بالمنشفة البيضاء ، فالتفت إلى قائلا :

ــ ولأوضح لك ذلك بطريقة عملية : أحضر لى طبق « سلطة » !..

ولم ينتظر هذه المرة حتى آذن للجرسون ؛ بل ناداه وطلب إليه ؛ كأنما قد أمسى مفهوما أنه يتناول العشاء كاملا ، على مائدتى . وجاء الجرسون بطبق السلطة فنظر المصور « الكوبست » إلى « السلطة » وقال :

ــ انظر إلى هذا البنجر الأحمر ، والخس الأخضر ، والجزر الأصفر .. ما هى الحقيقة الثابتة فيها ؟.. هذه الحقيقة ..

ــ عرفتها يا سيدى !.. عرفتها جيدًا !..

قلتها مقاطعًا ، وأنا ألمح يده تمتد بالملعقة والشوكة الخشبيتين إلى أعماق الطبق . ولكنه مضى يقول :

ــ دعنى أخبرك !.. هذه الحقيقة ، يضيع معالمها المصور الكلاسيكى وهو يصور هذا الشكل .. إنه يعنى بالدقة رسم الجزرة ، وورقة الخس ، وقطعة البنجر ، وهذا أمر لا أهمية له ــ أما نحن أتباع مذهب « الكوبزم » فلا نحفل بهذه الحذلقة التى تخفى الجوهر !.. يكفى عندنا أن نبرز حقيقة هذه الألوان الثلاثة : الأحمر والأخضر والأصفر .. هذا هو التصوير !..

وفرغ من محو طبق « السلطة » وحده .. والتفت إلى منصة « البار » فأبصر عليها وعاء كبيرًا ، تعرض فيه فاكهة نضرة طازجة .. فقال لى :

ــ إن المصور « سيزان » له طريقته فى تصوير التفاح ، وقد أثارت طريقته جدلا واهتماما فى حينه .. ولكنك قد تسألنى عن طريقة « الكوبزم » ..

ــ طريقة عملية .. ما فى ذلك من شك !.. ولكن لا داعى لمعرفة تصوير التفاح .. خير لى أن تحادثنى ونحن سائران فى الشارع ؛ فلدى موعد هام ، والوقت متأخر ، والمشى مفيد للهضم ، بالنسبة إليك !.. يا « جرسون » !..

وناديت خادم المطعم ، وأنا ناهض ، ودفعت له كل ما كان فى جيبى من

فرنكات أجرًا لهذا العشاء ، فنهض صاحبى المصور مرغما ، وخرج معى إلى الطريق ، وهو يقول لى :

ــ التصوير هو « الكوبزم » و « الكوبزم » هو التصوير .. هل عرفت الآن ؟!..

ــ عرفت كل شىء والحمد لله ، وقدرتى لا تحتمل أن أعرف أكثر من ذلك !.. الوداع يا سيدى !..

مع أهل الإنشاد

لن أنسى ذلك الشخص العجيب الذى قابلته ذات ليلة فى تلك الحانة من حانات « مونمارتر » !.. فى ذلك العهد البعيد ، الذى كنت أرتاد فيه تلك الحانات !.. كانت حانة صغيرة الحجم ، حقيرة الشأن ، لا يشرفها غير جوارها من ذلك الملهى الشهير « القط الأسود » !.. ولقد علمتنى الأيام ألا أزدرى المشرب المقفر ؛ ففيه غالبًا الخدمة الطيبة ، والنفقة الزهيدة ، وهو خير مأوى لأوقات الضنك وأيام الفقر ، فى أواخر الشهر !.. ذهبت ووقفت على بار « الزنك » ، وطلبت قدحا من النبيذ الأبيض ، مع طبق من المحار البرتغالى الأخضر !.. والتفت حولى ، فلم أجد فى المحل غيرى ، وغير رجل إلى جانبى فى « البار » على رأسه قلنسوة عوجاء على طريقة أوباش الحى الخطرين !.. وهو يرفع كأسه ويرشف منها جرعات كبيرة ، ويضعها ، ثم يرفع عقيرته بغناء — أو على الأصح — بإنشاد شىء كأنه شعر :

« من أنا » !..

شاعر ؟.. ربما !..

لا .. لأن يراعة نفسى ما سطرت يوما — وما تسطر — غير كلمة واحدة جنون !..

من أنا ؟..

مصور ؟.. ربما !..

لا ..

لأن ريشة نفسى ما صبغت — وما تصبغ — غير لون واحد : سواد !..

من أنا ؟..

موسيقى ؟.. ربما !..

لا .. لأن أوتار نفسى ـــ ما عزفت ـــ غير نغم واحد : شجون !..

من أنا إذن ؟..

لقد نظرت من خلال « عدسة » إلى قلبى ؛ لأعرف من أنا ؟.. فإذا أنا « بهلوان » يتأرجح على حبال نفسى !.. »

* * *

ورفع كأسه ، وأفرغ ثمالتها فى جوفه .. وأرسل إلى ابتسامة من يتساءل :

ـــ ما قولك أيها الزميل ؟

فرددت إليه الابتسامة بخير منها .. وقلت له :

ـــ ليس من الضرورى عندى أن تكون شاعرًا ، أو مصورًا ، موسيقيًا .. أو حتى «بهلوانا» .. المهم عندى هو ألا تكون لصا !

ـــ أمعك نقود ؟..

ـــ لو كان معى نقود لذهبت إلى « القط الأسود » .. ولكن أوباش الحى ، ولصوص « مونمارتر » من أصحاب القلانس المعوجة ، لا يفرقون بين الموسرين والمعدم ، قبل أن يضعوا السكين فى ظهره ، والأيدى فى جيبه !..

ـــ لا أظن أن فى منظرى ما يدل على أنى لص ، ولا فى منظرك ما يدل على أنك ضحية .. أغلب الظن أننا من فصيلة واحدة !.. يا « جرسون » !.. املأ قدح الزميل ..

ولم يدع الساقى لى وقتًا للاعتراض ؛ فسرعان ما امتدت يده بالزجاجة ، يسكب منها فى قدحى .. فشكرت الرجل ، ثم قلت له :

ـــ هذا الذى كنت تنشده مؤثر جدًا!.. كيف تقول إنك لست شاعرًا وهذا الشعر جيد ؟!..

ـــ إنه ليس لى ؛ بل للشاعر الإيطالى « بالازيتشى »!..

ـــ يخيل إلى أنه خارج من أعماق نفسك أنت ؛ فما من شك فى أنك تحس كل

كلمة فيه !..

ـــ هذا حق !..

ـــ أتشعر بكل هذا القلق حقًا ؟.. لكأنى بك مكلوم الفؤاد ، وأنت تتساءل هكذا عمن تكون ؟!..

ـــ اسمع !.. اسمع !..

ورفع كأسه .. ورفع عقيرته بالإنشاد :

ـــ تعال !.. ولنلق بقاربنا فى نهر النبيذ !..

ولنقذف بآلامنا فى روح الخمر ؛ الجديد منه والمعتق !..

هات لى كأسًا من نبيذ .. فى لون الورد ورائحة المسك ..

وإذا أردت الشمس فى منتصف الليل :

فاطرح النقاب عن بنت الكروم ؛ بوجهها المورد المحموم !..

إياك إياك يوم أموت ؛ أن تضع فى الترب جثمانى !..

بل احملنى إلى الحان ، وضعنى داخل الدن !.. »

* * *

وعجبت لهذا الشعر ، واستروحت منه نسيما آتيا من بعيد !..

فقلت للرجل :

ـــ أنت القائل لهذا ؟..

ـــ لا .. بل الشاعر الفارسى « حافظ » !..

ـــ هنا فى « مونمارتر » أسمع هذا الشعر !.. وممن ؟.. منك أنت ؟.. من أنت ؟..

ـــ ألم تسمعنى الساعة ألقى هذا السؤال على نفسى ؟..

ـــ ألست فنانا ؟..

ـــ ألم تسمعنى أتلقى الجواب عن ذلك الآن ؟..

ـــ إنك على كل حال رجل مثقف !..

— وما نفع ذلك لقلبى ؟!..

— ماذا تصنع فى الحياة ؟..

— أحب !..

— أقصد عملك فى الحياة ؟!..

— أحب !

— وحبيبتك ؟..

— لها شعر غزير كغابة ، ووجه شاحب كنجم ، وجسم نحيل كطيف .. بهذا الشعر الغزير ، والوجه الشاحب ، والجسم النحيل ، كيف كانت تستطيع العمل بيديها ، والسعى إلى رزقها ؟.. لقد رأت أيسر الأمور لها أن تبيع شفتيها .. القبلة بكذا .. وما علمها أحد أن هذا قبيح !.. ولقد قبل الملجأ طفلها ، أما هى فماتت فى آلام الوضع ، وهى تخرجه للدنيا !.. ويا لها من صيحات ، كانت تطلقها فى فراش المستشفى ، ومن حولها الممرضات والأطباء فى الأردية البيض !.. يا له من صراخ ، كصراخ الدابة فى المجزرة ، لتعطى لحمًا .. وتعطى دمًا !.. والآن ، هى بلا حراك فوق سرير الجميع فى دار الجميع ! وهى لن تصرخ بعد الآن ولن تصيح .. أشلاء آدمية ، رثة دامية ؛ أشلاء امرأة خلقة مهلهلة ، لا تصلح للوطء بالأقدام !..

ولكنها مع ذلك قد أدت واجبها كامرأة !.. واجبها كما فهمته ، وكما قدرت عليه .. أن تحمل فى بطنها جنينًا تسعة أشهر ، وأن تمنح الوجود روحا جديدا .. هذا هو الجوهر : أن تعطى « الحياة » وهى تبذل فيها « الموت » ثمنا !.. فى نظر الله ، وفى نظر البشر ، قد أدت هذه المرأة ما عليها من حساب !..

* * *

وسكت الرجل بعد أن قال ما قال ، بصوت حزين النبرة ، عجيب الإلقاء ، كئيب الرنين . وانحنى على كأسه ؛ كأنما يخفى الفجيعة المعلقة بأهدابه فى صورة عبرة ، خيل إلىّ أنها سقطت على الرغم منه ، فى شرابه ، وامتزجت بخمره ..

وتمثلت لى مأساة الرجل واضحة جلية ، وأدركت مغزى الشعر الذى كان ينشده منذ قليل ، وسر التساؤل القلق عمن يكون ؟!.. وعما يحس فى الدنيا ، وعما يجيد ؟.. وما هو فى الحقيقة — كما بدا الآن لى — إلا مشنوق ، يترجح على حبال قلبه !.. وفهمت : لماذا يريد أن يلقى بقارب حياته فى نهر النبيذ ، راجيا الغرق فيه بآلامه ؟.. نعم !.. لم يبق عندى شك فيما يعذب الرجل !..

وتملكنى حزن شديد من أجله ، ولم أدر ما أصنع لأخفف عنه !.. لقد كان ليأسه ومحنته جلال ، يسخف معه كل مقال — كان الصمت خير ما ينبغى لى وله . فتركته وفؤادى يتقطع ألما لحاله ، حتى فطن إلى أمره ، فرفع رأسه ، كمن يفيق من سكر ، ودفع ثمن ما شرب وما طلب لى ، وحيانى بإشارة خفيفة ، ومضى خارجا من الحانة بخطى ثقيلة ، كخطى من يشيع جنازة ، ولبثت أنظر إليه وهو يمضى ونبراته تطن فى أذنى ، حتى اختفى عن عينى ، ولم أر لى مقامًا فى الحانة ، فانصرفت بعده وبى رغبة فى البكاء ؛ فمشيت فى الطريق أنشج ، وأمسح دموعى بمنديلى ، حتى مررت بملهى « القط الأسود » فقلت لنفسى :

« أدخل لأرفه عن نفسى ، وأزيل عنها الكآبة !.. ولقد تعشيت ، فلن أطلب فيه غير قدح من القهوة السوداء بلا لبن ، وليكن ما يكون ..»

دخلت .. وجلست مستخذيا إلى خوان صغير متواضع فى طرف المكان . ليس مما يتهافت عليه .. وقلت : « من يدرى ؟.. قد يقع فى نصيبى أحد الساقين الظرفاء ، يرق لحالى ، فلا يعاملنى معاملة الأثرياء » وملهى « القط الأسود » لا يشابه غيره من ملاهى « مونمارتر » وصناديق ليلها .. فالبضاعة التى كانت تعرض فيه ليست أجساد الحسان ، بل ثمرات القريحة والظرف والبيان .. كان الساقون و « الجرسونات » يحملون للزبائن الطلبات وهم مرتدون — لا ثياب الخدم — بل ثياب أعضاء المجمع الأدبى الفرنسى ، فى « التشريفة » الرسمية ، بلونها الأخضر ووشيها الذهبى المقصب .. حتى إذا غص المحل — وأكثر رواده من جلة أهل « باريس » أدبا وفضلا وثقافة وظرفا — ظهر المغنون والشعراء

والمنشدون ، وتتابعوا الواحد تلو الآخر ، يغنون الأغانى القديمة والحديثة ، ويلقون الشعر الجيد والطريف من القديم والحديث .. ولقد كان لهذا الملهى أثر فى الأدب الفرنسى ، ومن بين منشديه و شعرائه خرج فى الأدب والفن أئمة وأعلام ..

* * *

طفقت أصغى إلى المنشدين ، وقد برزوا تباعًا يلقونْ قصائد من شعر فيون ، وبودلير ، وفرجيل ، وكيتس ، وبترارك ، ودانونزيو .. إلخ ، ويغنون أغنيات من القرون القديمة ، ومن وحى الساعة .. ويحكون نوادر ظريفة ، وكلمات لبقة طريفة — إلى أن جاءنى « جرسون » فى ثياب « الأكاديمية » انتزعنى من إصغائى ليسألنى طلبى !..

فقلت له بصوت المتوسل :

— باسم الشعر والأدب ، أطلب قدحا من القهوة ، بلا لبن ولا سكر .. فأنا الليلة حزين على زميل مسكين ..

— ماذا جرى له ؟

— شنق فى حبال قلبه !..

— وترجح فيها « كالبهلوان » ؟..

— كيف عرفت ذلك ؟

قلتها كالمرتاع عجبًا !..

فأشار « الجرسون » بإبهامه إلى مقدمة المكان .. وغادرنى ماضيًا إلى عمله يحضر القهوة ، فنظرت حيث أشار ؛ — فإذا بى أبصر منشدًا قد ظهر يقول بصوت ، أعرف نبرته ورنينه وإلقاءه :

— « من أنا ؟..

شاعر ؟.. ربما .. »

ومضى فى القصيدة حتى أتمها ، ودخل فى القصيدة التالية عن نهر النبيذ

وقارب آلامه ، والدن الذى سيجعله قبره ومرقده ، ففرغ منها ، وولج فى قصة الحبيبة ؛ ذات الشعر الغزير ، والوجه الشاحب ، والجسم النحيل !.. تلك التى استصعبت العمل بيديها ، وآثرت العمل بشفتيها ، فرواها بصوته المتهدج المؤثر الحزين ، حتى ختمها وقال : إنها للشاعرة « آدانجرى » !.. فصفق الحاضرون طويلا ، وانحنى هو للجمهور طويلا ، ولست أذكر : هل صفقت له مع المصفقين ، أو صفقت لغفلتى ؟.. كل ما أذكر هو أنى نهضت على قدمى ، وتقدمت نحوه حتى يرانى ، وأنا أصيح :

— « مرحى !.. مرحى !..»

فلمحنى ، وعرفنى ، وانحنى شاكرًا ، مبتسما ، غامزًا لى بعينه !.. واختفى وقد انتهت « نمرته » وتركنى أجرع قهوتى السوداء ، وأندم على دموعى ، التى ذرفتها من أجله !..

الباب الرابع

الأدب والدين

الدين والأدب ، كلاهما يضيء من مشكاة واحدة ..

السماء هى المنبع

هنالك صلة ــ فى اعتقادى ــ بين رجل الفن ورجل الدين ؛ ذلك أن الدين والفن كلاهما يضىء من مشكاة واحدة ، هى ذلك القبس العلوى الذى يملأ قلب الإنسان بالراحة والصفاء والإيمان .. وإن مصدر الجمال فى الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذى يغمر نفس الإنسان عند اتصاله بالأثر الفنى .. من أجل هذا ، كان لا بد للفن أن يكون مثل الدين ، قائمًا على قواعد الأخلاق .

وهذا رأيى !. ولكنه ليس رأى كل المشتغلين بشئون الفن .

فلقد اشتد الجدل من قديم بين طائفتين ؛ طائفة تقول : إن الفن ينبغى له أن يكون أخلاقيًا ، وطائفة تقول : إن الفن يجب أن يتحرر ــ حتى من الأخلاق ؛ لأن الجمال فى الفن ينبع من الإتقان ، وأن الإجادة فى تصوير الدمامة والرذيلة لا تقل فضلا عن الإجادة فى تصوير الحسن والفضيلة !.. هذا صحيح .. وإنى لأشد الناس تمسكا بحرية الفن، وإدراكا لقدسية هذه الحرية، ولا أتصور فنا لا يصور الرذيلة، كما يصور الفضيلة، ولا يبرز القبيح، كما يبرز الحسن!.. وإن الدين أيضًا ــ فى تنزيله ــ يصور لنا رجس المشركين ، وإثم الكافرين ، وقبح الأشرار والمفسدين ؛ كما يبرز لنا فضل المؤمنين وإحسان المحسنين ولكن المقصود ليس حرية التصوير ، فهذه مكفولة فى الفن ، ملحوظة فى الدين . إنما المقصود هو ذلك الإحساس الأخير الذى ينقله الفن والدين إلى النفوس !..

ما من ريب فى أن الإحساس الأخير ، الذى ينقله الدين إلى النفوس ــ مهما يكن لون الصورة . ولون التصوير ــ هو إحساس أخلاقى .

فهل هذا هو واجب الفن أيضًا ؟.. أو أن الفن حر حتى فى إحداث الأثر الذى يريد ؛ غير مقيد حتى فى إقرار المشاعر غير الأخلاقية فى نفوس الناس ؟..

يقول « شوبنهور » : إن النية لا قيمة لها فى الأثر الفنى .. أى أن نيات الفنان الصالحة أو الطالحة لا تقدم ولا تؤخر فى القيمة الفنية لعمله ..

ويقول « جويو » : إن الروح الأخلاقى عند الفنان كعبقريته يجب أن ينبعا معا ، وفى وقت واحد ، من أعماق طبيعته .. وإن الفن غير الأخلاقى هو على كل حال أحط مرتبة ؛ حتى من وجهة النظر الفنية الخالصة .. ذلك أن الفن العالى ليس ذلك الذى يثير فى النفس أحر المشاعر وأعنفها فحسب ، ولكنه الذى يثير فيها أكرم المشاعر وأرحمها . إن خطر الفن يرجع إلى تلك القدرة العجيبة فيه تلك التى يستطيع بها أن يستدر عطفك على مخلوقاته ، ويستلبك إعجابك بصوره.وإن العطف والإعجاب يعديان كالمرض . فإذا أبدع الفن فى تصوير نوع من الشذوذ أو الانحطاط ، وحملك بهذا الإبداع على أن تعطف على الانحلال وتعجب بالتدهور ؛ فإن مجتمعا بأسره يمكن أن تسرى فيه العدوى عن طريق هذا الفن »

ما مهمة الفن الحق إذن ؟ أهى أن يقف فى المجتمع واعظًا ومرشدًا وهاديا إلى سواء السبيل ؟..

من المجمع عليه أن الوعظ والإرشاد ليسا من وظيفة الفن ؛ لأن وظيفة الفن هى أن يخلق شيئا حيا نابضا ، يؤثر فى النفس والفكر .

ما هو نوع هذا التأثير ؟.. هنا المسألة !..

إن نوع التأثير هو الذى يحدد نوع الفن ؛ فإذا طالعت أثرًا فنيًا : قصيدة أو قصة أو صورة ، وشعرت بعدئذ أنها حركت مشاعرك العليا أو تفكيرك المرتفع ؛ — فأنت أمام فن رفيع !.. فإذا لم تحرك إلا المبتذل من مشاعرك ، والتافه من تفكيرك ؛ فأنت أمام فن رخيص .

هنالك سؤال آخر : ما مصدر هذا التأثير فى العمل الفنى ؟.. أهو الأسلوب أم اللب ؟.. أهو الشكل أم الموضوع ؟..

إن الأثر الفنى الكامل فى نظرى ، هو ذلك الذى يحدث فينا ذلك الشعور الكامل بالارتفاع !.. وقلما يحدث هذا إلا عن طريق السمو فى اللب

والأسلوب ؛ لأن ضعف « الشكل » وسقم الأسلوب يحدثان فى النفس شعورا بالقبح والضيق والاشمئزاز ؛ وهذا ينافى الشعور بالجمال ، والتناسق ، والانسجام !..

شأن الفن ، هنا أيضًا ، شأن الدين .. فما من رجل دين — يثير فى نفسك إحساسا علويا حقا : إلا إذا كان فى طريق حياته ، مستقيم السلوك ، سليم الأسلوب !.. بغير ذلك يختل التناسق بين الغاية والوسيلة ، وبهذا الاختلال يداخل النفس شعور الشك فى حقيقة رجل الدين !..

لو علم رجل الفن خطر مهمته ، لفكر دهرا قبل أن يخط سطرا !.. ولكن الوحى يهبط عليه فيسعفه — ومعنى هبوط الوحى أن شيئا ينزل عليه من أعلى ؛ — شأنه فى ذلك شأن المصطفين من أهل الدين !.. وهل يمكن أن يهبط من أعلى إلا كل مرتفع نبيل ؟..

للدين والفن .. السماء هى المنبع !..

الماء الحى

« .. وكان لا بد له أن يجتاز « السامرة ».. فأتى إلى مدينة فى « السامرة » يقال لها « سوخار » بقرب الضيعة التى وهبها يعقوب ليوسف ابنه.. وكانت هناك بئر يعقوب .. فإذا كان « يسوع » قد تعب من السفر ، جلس هكذا على البئر ..

فجاءت امرأة من « السامرة » لتستقى ماء .. فقال لها « يسوع » :

ــ أعطينى ؛ لأشرب !..

لأن تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة ليبتاعوا طعاما ..

فقالت له المرأة السامرية :

ــ كيف تطلب منى لتشرب ، وأنت يهودى ، وأنا امرأة سامرية ؟

لأن اليهود لا يعاملون السامريين ..

أجاب « يسوع » وقال لها :

ــ لو كنت تعلمين عطية الله ، ومن هو الذى يقول لك : أعطينى ؛ لأشرب ؛ ــ لطلبت أنت منه ، فأعطاك ماء حيا !..

فقالت له المرأة :

ــ يا سيد .. لا دلو لك ، والبئر عميقة ؛ فمن أين لك الماء الحى ؟.. ألعلك أعظم من أبينا يعقوب الذى أعطانا البئر ، وشرب منها هو وبنوه ومواشيه ؟!..

أجاب « يسوع » وقال لها :

ــ كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضًا ، ولكن من يشرب من الماء الذى أعطيه ، يصير فيه ينبوع ماء ، ينبع إلى حيوات أبدية .. »

طالعت هذا القول فى إنجيل « يوحنا » ونحن على أعتاب عام جديد من مولد « يسوع ». وتساءلت : كم من البشر انطفأ فيه ذلك العطش ، ونبع فيه ذلك الماء

الحى ؟!.. ما من ريب أن العدد قليل : ذلك أن ملايين العطشى كثيرون فى كل جيل !.. إن لكل إنسان بين جنبيه بئرًا عميقة . ولقد رأيت من الناس من يلقى فى بئره دلوا من ذهب ؛ فلا يجد الدلو فى القرار غير نضوب وجفاف !.. ورأيت منهم من يلقى فى بئره دلوا من ذكاء ؛ فلا يجد الدلو فى القرار غير حصى مرصع وحجارة مرصوفة !..

أين الماء ؟.. وأى دلو يصل إليه ؟..

إنه موجود — ليس فى كل النفوس ، ولكنه ينبع فى النفس التى تلقت بركات السماء !.. وقد لا تشعر هى بوجوده ، وقد لا يشعر بذلك أيضًا الناس المحيطون بها ؛ لأن هذه النعمة أسمى من أن تراها كل العيون ..

هناك أمثلة كثيرة ، ولكن أبسطها ، وأقربها إلى فهم العامة ، مثل ذلك النجار الذى كان يعمل فى حانوته طول النهار ، فإذا جاء المساء ذهب بربح يومه إلى داره ، فتعشى هو وعياله ، ثم رفع عقيرته بالغناء !.. فغنى ، وأنس ، وطرب بعض ليله ، ثم نام بين أسرته نومًا هنيئًا هادئًا لذيذًا حتى الصباح ، وكان له جار غنى يرى هذه الحال منه ، ويتعجب ويقول فى نفسه : « كيف يكون لهذا النجار على فقره مثل هذا الصفاء .. وأنا الغنى ، لا أنام ولا أهمد ، ولا يطفئ المال عطشى للثراء ! ..» ثم عزم على أن يدبر للنجار أمرًا .. فألقى فى داره الحقيرة بكيس مملوء بالذهب ، وجعل يترقب ما يحدث ، وعندئذ حدث العجب ؛ فقد انقطع الغناء الذى كان يرتفع مرحا من دار النجار ، وسكت القلب المغرد السعيد ، ولغط الذهن المفكر المكدود ، وذهب النوم الهنيء ، وحل السهاد الطويل ، وشغل النجار ، نهاره وليله بأمر ذلك المال الذى هبط عليه ؛ كيف ينتفع به ويستغله وينميه ؟.. ومرت الأيام والليالى ، وقد خيم على دار النجار ذلك السحاب الذى يخيم على دار جاره الغنى !.. سحاب الهم الذى لا يزول ؛ — لقد بدأ الجرى الدائم خلف السراب !.. لقد غاض النبع من البئر ، وجاء العطش الذى لا ينطفئ أبدا !..

* * *

درس « يسوع » ليس للأفراد وحدهم ؛ بل للدول أيضًا !.. هذه الحروب — التى لا ينطفئ سعيرها — إنما هى علامة عطش !.. متى تؤمن الدول القوية أن هذا العطش ، لا يطفئه الطغيان ولا السيطرة ؟.. كل دولة تشرب من بئر « السيطرة » تعطش أيضًا !..

أجراس « الميلاد » تدق فى أديارك وكنائسك أيتها الدول الكبرى ؛ فلا تغترى ولا تظنى « القنابل الذرية » تطفئ عطشك ؛ — بل ثقى أن الذى يطفئه إلى آخر الأزمان ، هو ذلك الماء الحى ، الذى تحدث عنه السيد المسيح !؟

الحقيقة الكاملة

يروى الفيلسوف الصينى « لى هتز » هذه الأسطورة المملوءة بالحكمة :

« فوق تل من تلال غابة نائية ، كان يعيش رجل شيخ ، مع ابن له وجواد .. ذات صباح هرب الجواد واختفى ؛ فأقبل الجيران على الشيخ يعزونه فى نكبته بفقد جواده .. فقال لهم الشيخ :

ــ « ومن أدراكم أنها نكبة ؟ .. »

فصمتوا وانصرفوا واجمين !.. ولم تمض أيام حتى عاد الجواد إلى صاحبه من تلقاء نفسه ، لا وحده ، بل مصطحبا معه عديدًا من الخيول البرية .. فعاد الجيران إلى الشيخ ، فرحين مهنئين بهذا الغُنْم الموفور ، وهذا الحظ السعيد ، فنظر إليهم الشيخ بهدوء ، وقال :

ــ « ومن أدراكم أنه حظ سعيد ؟.. »

فسكتوا مذهولين ، وانصرفوا متحيرين ، ومرت الأيام !.. وجعل ابن الشيخ يروض الخيول البرية ، فامتطى منها جوادًا عنيدًا ، فسقط من فوق صهوته إلى الأرض ، فكسرت ساقه ، فرجع الجيران مرة أخرى إلى الشيخ محزونين ، يبثونه ألمهم لما وقع لولده ، ويعزونه فى هذا الحظ العاثر !..

فقال لهم الشيخ برفق :

ــ « ومن أدراكم أنه حظ عاثر ؟.. »

فانصرفوا صامتين !.. ومضى العام ! وإذا حرب تقوم ، وجند الشباب ، وأرسلوا إلى الميدان ؛ فلاقى أكثرهم الحتف ، إلا ابن الشيخ ؛ فإن العرج الذى بقدمه أعفاه من الذهاب إلى الحرب ؛ وأنقذه من ملاقاة الموت !.. »

* * *

إلى هنا تنتهى قصة الفيلسوف الصينى ، ولو أنه استرسل فيها لما فرغنا من تعاقب السعد والنحس على الحادث الواحد ، ذلك أن لكل شىء نهاره وليله ، يدوران حوله بغير انقطاع،ولكن الإنسان فى نظرته القصيرة وذاكرته الضعيفة ؛ — لا يرى الحادث إلا فى حلقاته المنفصلة ، وأجزائه المتقطعة ، ونتائجه المؤقتة ، ومؤثراته المفاجئة . فعينه لا تستطيع أن تشمله فى جملته ، لأن جملته ممتدة فى الغد ، وعين الإنسان لا ترى الغيب !..

* * *

ولو استطاع إنسان أن يشمل بنظرته الأمس واليوم والغد ، وأن يتتبع حادثا واحدًا أو رجلا بعينه ؛ لرأى العجب !.. فهذا الغنى الذى يملك الملايين سيرى أمواله قد بددها وارث ، وهذا الوارث سيكون له أولاد فقراء ، ومن هؤلاء الفقراء يخرج واحد ينشئ ثروة ، وهكذا دواليك : يأتى المال من العدم ، ويذهب المال فى العدم ؛ ويولد من السعد نحس ومن النحس سعد !.. ساقية لا تقف عن الدوران ولا تقف طول الزمان . ليس هناك فى حقيقة الأمر حظ زاهر ولا عاثر لأن الساقية الدوارة لا تبقى أحدًا فى موضعه ولا شيئًا فى مكانه !.. إن ما نسميه « الحظ » ليس إلا وقوف نظرنا المحدود على وضع من الأوضاع فى وقت من الأوقات ؛ وإن فرحنا أو بكاءنا لهذا الحظ ليس سوى قلة صبرنا على انتظار البقية؛ — شأننا فى ذلك شأن المشاهد لقصة تمثيلية !.. إنه يضحك أو يبكى لكل ما يصيب البطل ؛ دون أن ينتظر ختام الرواية .. لعل أداة الشعور والإدراك فينا قد جعلت على هذا التركيب المناسب لحياتنا القصيرة ؛ فنحن نأخذ كل حادث يمر على أنه البداية والنهاية ، لا أنه الحلقة فى سلسلة طويلة !..

* * *

إن الإنسان الذى أعطى الحكمة ، ليس — فى حقيقة الأمر — إلا ذلك

الذى أعطى العين التى ترى الأشياء فى جملتها لا فى جزء منها ، وفى تعاقبها لا فى وقوفها !.. الأديب العظيم أيضًا له تلك العين التى ترى الحقيقة الكاملة فى حياة البشرية؛ــ تلك العين التى تبصر الساقية فى دورانها .. وهذا ليس بالأمر الهين !.. إنه للبشر من أصعب الأمور ؛ من أجل هذا كانت الحكمة فى الأرض نادرة ؛ لأن الحكمة وحدها هى التى ترى الساقية وهى تدور .. هى التى ترى الحقيقة الكاملة !..

ثورة العقل

جاء فى أساطير الصين : « أن قردًا صعد إلى السماء ، وجعل يثرثر ويفاخر ، ويتيه ويختال ، ويزعم أن « البراعة » قد تجسدت فيه ، وأن « الحذق » ليس إلا بعض معانيه ، وأنه أحق الكائنات بمكان علوى لا يدانيه مخلوق !.. وظل يحدث فى السماء من الصياح والضجيج ، ومن الثورة والاحتجاج ، ما حمل « بوذا » على النظر فى الأمر ، فدعا القرد وقال له :

ــ إذا كنت حقًا بارعا كما تقول فاقفز من راحة يدى اليمنى ؛ فإن استطعت ذلك ؛ فإنى أضعك فوق عرش من تلك العروش التى تتوق إليها ، وإن عجزت عن ذلك ؛ فإنى أعيدك إلى الأرض ؛ لتكفر فيها عن ذنبك طوال السنين ، قبل أن تأتى إلىّ مرة أخرى بثرثرتك !..

سمع القرد ذلك ، وقال فى نفسه :

ــ « بوذا » هذا ليس إلا مغفلا !.. إنى أقفز مائة قدم ، وراحة يده ليست أطول من شبرين ، فكيف يعجز مثلى عن القفز خارجها ..؟!

وبدت الاستهانة والسخرية على وجهه ولم يجب، فقال له « بوذا » :

ــ ألم تسمع ما عرضت عليك ؟.. ما جوابك ؟..

ــ أأنت جاد فيما عرضت ؟.. أأنت واثق من أنك ستعطينى ما وعدت ؟..

ــ بالطبع ..

ــ وأنا قبلت !..

قالها القرد باعتداد وتحد واطمئنان !.. عند ذاك بسط « بوذا » يده اليمنى ، فبدت للقرد فى حجم ورقة « اللوتس » ، واعتلاها ، وبدا له أنه يملأ راحتها ، فانتفخ قليلا ، وملأ بالهواء صدره ، ثم جمع كل قوته ، وقفز .. وإذا الريح من

حوله تكاد تصفر لسرعته ، ومرق فى الفضاء كالسهم والريح بأجنحتها تحمله ، حتى وقع آخر الأمر عند مكان أبصر فيه خمسة أعمدة ضخمة قائمة ، تكاد تمس السحاب ، فتأملها فى سموقها قائلا فى نفسه : « لقد وصلت بلا شك إلى آخر العالم !.. لم يبق علىّ إلا أن أرجع إلى « بوذا » وأساله وعده وأطالبه بالعرش !.. لكن مهلا .. يجب أن تتخذ الحيطة مع « بوذا »، حتى لا يقوم بيننا جدال ، فلنترك ها هنا برهانا يدل على أنى بلغت هذا المكان ..»

ودنا من العمود الأوسط ، وبال عند قاعدته ، و لم يجد غير هذا أثرا يتركه ، مبالغة فى الكبر والاعتداد والغرور ..

ثم قفز عائدا من حيث أتى ، حتى استقر فوق يد « بوذا » اليمنى ، وصاح به صيحة الظفر :

ــ لقد ذهبت كما ترى ورجعت ، وإنك لتستطيع الآن أن تعد لى العرش الذى يليق بى ويرضينى ..

فقال « بوذا » بهدوء :

ــ أيها القرد الثرثار !.. إنك لم تغادر راحة يدى طول الوقت ..

فصاح القرد محتجا :

ــ ما هذا الكلام ؟.. إنى ذهبت إلى نهاية العالم ؛ حيث أبصرت بعينى خمسة أعمدة شاهقة تلمس السحاب ، وقد توقعت تكذيبك هذا ، فتركت هناك أثرًا لى .. تعالى معى ، وأنا أجعلك ترى بعينك !.

فقال « بوذا » بهدوء :

ــ لا حاجة بى إلى ذلك .. انظر فى قرار كفى اليمنى ، فانحنى القرد ينظر بعينيه البراقتين .. فأبصر عند قاعدة الإصبع الوسطى فى كف « بوذا » بلل ذلك الأثر الذى أحدثه... »

* * *

ذلك القرد عندى ، ليس سوى رمز « للعقل » البشرى !.. إنه بسارع

نشيط ، قفاز براق ، وقد استطاع — بسرعة حركاته — أن يوجه أنظارنا إليه وحده ، وأن يعلق اهتمامنا به ، وأن يقصر آمالنا عليه ؛ بل لقد نجح أحيانا فى أن يوهمنا أنه هو وحده مصدر الحركة الكبرى فى الوجود !.. ولقد كشف لنا حقًا ببريق عينيه ، عن أشياء أثارت فينا العجب ، فتبعه منا خلق كثيرون ، به وحده يؤمنون ، لا يرون إلا ما يريهم ، ولا يصدقون إلا ما يضع عليه أيديهم .. وقد تملكه الغرور ، فصاح يقول :

— أنا كل شىء ... ولا وجود لغير ما أكشف عنه .. وفى قدرتى أن أثب إلى كل القمم !..

فتجلت « القدرة الإلهية » قائلة :

— أيها العقل « أو القرد » !.. فى قدرتك أن تثب إلى الشجر ، ولكنك لن تثب إلى السحب !..

فقال العقل :

— سأثب قريبًا إلى ما فوق السحب ؛ لقد عرفت سر الذرة ، وأنا فى طريقى إلى بلوغ القمر ، والوثوب إلى بقية الكواكب ، والإحاطة بكل ما فى الكون !..

فمدت « القدرة الإلهية » يدها قائلة للعقل :

— تحيط بكل ما فى الكون أيها الأحمق ؟.. انظر إلى كفى هذه إنك مهما تقفز — فلن تستطيع أن تبلغ نهايتها ، أو تخرج عن محيطها ، أو تدرك ما حولها ، وما خارجها !. إنى أتحداك أن تحاول ..

فقال العقل : وأنا قبلت التحدى ..

وحدثته نفسه أنه لا بد منتصر !..

فما تكون هذه اليد أمام ضوء فلسفته وبريق علمه ؟.. يكفى أن يسلط عليها عينيه المشعتين بالعلم والفلسفة ؛ ليكشف حدودها ومعالمها !.. وجمع كل قواه ، وقفز بكل ما فى ساقيه : من منطق واستقراء وتجاريب واستنتاج ، واستعان بكل ما فى يديه من تصور وتخيل ، وتفكير واستغراق ، ووثب وثبة ظن

بها أنه بلغ فعلا حدود الكون !..

ولكن « القدرة الإلهية » قالت مشفقة به :

لا تجهد قواك عبثًا . ولا تحاول المستحيل . إنك لم تزل فى كفى ، نقطة حائرة ونطفة عاجزة . لك أن تقفز ما شئت ؛ لأنى خلقتك هكذا قفازا ، ووضعت فى طبيعتك القفز والوثب ، ولا ينبغى أن تخرج عن طبيعتك التى ركبتها فيك ، ولا أن تكف عن حركتك التى فطرتك عليها ؛ فإنك إذا جمدت وخمدت . خالفت سليقتك التى أردتها أنا لك متحركة متجددة ، ولا يجوز لك أن تقف عن الوثب فتعارض إرادتى !.. ولكن .. إياك أن تغتر بمدى قفزاتك وتتوهم أنك بالغ بها ما لا يمكن أن تبلغ ؛ فتعرض نفسك لذل الخيبة ومرارة اليأس وسخرية المقدرين لنشاطك !..

وأومأت « القدرة الإلهية » إلى شىء لا يكاد يرى فى قرار كفها ، وقالت للعقل :

انظر .. أترى إلى هذا الأثر السائل الزائل ؟.. إنه كل ما أحدثت أنت : من علم ، وفكر ، وفلسفة ، وتجربة ، وخيال ، وتأمل ، منذ مبدأ العصور !..

فنظر « العقل » متضائلا إلى آثاره النفيسة الخالدة ، فرآها فى كف « القدرة الإلهية » ليست أكثر من ذرة بلل فان متطاير ، أقل شأنا من ذلك الأثر الذى أحدثه القرد عند إصبع « بوذا » .

معجزة الدين

لماذا لا يظهر فى هذا العصر أنبياء ؟.. سؤال يطرحه كثيرون ولا يتلقون عنه جوابًا مقنعًا .. لقد ظهر فى هذا العصر من يدعى شفاء الأمراض ، ومن يزعم الاتصال بأرواح الموتى .. ولكن قلما يظهر من يدعى النبوة .. لماذا ؟ السبب .. ولا شك هو أن المتنبئ يعلم أنه سوف يطالب بالإتيان بمعجزة ، وما هى المعجزة التى تستطيع أن تقنع الناس فى عصرنا الحاضر ؟..

كان المتنبئون فيما مضى لا يحتاجون إلى عناء كبير فى خداع العقول ؛ لأن أبسط الأشياء ، كان يكفى أن يعد فى نظر البسطاء عجيبة تحير اللب ؛ بل إن بعض مدعى النبوة ، إذا أحرجوا ، كانوا يلجأون إلى الفكاهة ؛ يفلتون بها من أعواد المشانق وأسياف الجلادين !..

والكتب القديمة مملوءة بنوادرهم ؛ فهذا رجل ادعى النبوة فى أيام « هرون الرشيد » فلما مثل بين يديه وسأله عما يقال عنه ، أجاب بكل جرأة :

ـــ نعم !.. إنى نبى كريم ..

ـــ أى شيء يدل على صدق دعواك !

ـــ سل عما شئت .

وكان يقوم حول عرش «هرون الرشيد » مماليك مرد الوجوه ، فقال لمدعى النبوة ، وهو يشير له بإصبعه إليهم :

ـــ أريد أن تجعل هؤلاء المماليك المرد بلحى !..

فأطرق المتنبئ ساعة ، ثم رفع رأسه وقال :

ـــ كيف يحل لى أن أجعل هؤلاء المرد بلحى ، وأغير هذه الصورة الحسنة ؟.. أنا أجعل لك إذا شئت أصحاب اللحى مردًا فى لحظة واحدة ..

فضحك منه « الرشيد » وعفا عنه .

وتنبأ شخص فى عهد « المأمون » فطالبوه بمعجزة فقال :

ـــ أطرح لكم حصاة فى الماء فتذوب ..

فقالوا : رضينا ..

فأخرج الرجل حصاة معه وطرحها فى الماء فذابت :

فقالوا : هذه حيلة ، ولكن نعطيك حصاة من عندنا تجعلها تذوب .

فقال : وهل قال فرعون لموسى : لا أرضى بما تفعله بعصاك ، فدعنى أعطك عصا من عندى تجعلها ثعبانًا ؟..

فضحك « المأمون » وتركه ، وإذا رجل آخر يأتى إليه ويدعى أنه « إبراهيم الخليل » .

فقال له « المأمون » : إن « إبراهيم » كانت له معجزات ..

فقال الرجل : وما معجزاته ؟

ـــ أضرمت له نار ، وأبقى فيها ، فصارت عليه بردًا وسلامًا .. ونحن نوقد لك نارًا ونطرحك فيها ، فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك ..

فقال الرجل : أريد واحدة أخف من هذه .

فقال له « المأمون » : فمعجزات « موسى » إذن ؟..

ـــ وما معجزاته ؟..

ـــ ضرب بعصاه البحر فانفلق ، وأدخل يده فى جيبه فأخرجها بيضاء ..

ـــ هذه علىّ أصعب من الأولى !..

ـــ فمعجزات « عيسى » !..

ـــ وما هى !..

ـــ إحياء الموتى !

وهنا صاح الرجل :

ـــ مكانكم .. قد وصلت !..

وأشار إلى القاضى « يحيى بن أكثم » الواقف بجوار « المأمون » وقال :

ـــ أضرب لكم رقبة القاضى وأحييه لكم الساعة ..

فقال القاضى « يحيى » من الفور :

ـــ أنا أول من آمن بك وصدق ؛ فاضرب عنق من لم يؤمن !..

فضحكوا منه .

جاء فى زمن « المأمون » أيضًا مدع للنبوة .. فقال له « المأمون » :

أريد منك بطيخًا فى هذه الساعة ،..

فقال المتنبىء : أمهلنى ثلاثة أيام .

فقال « المأمون » أريده الساعة .

فقال الرجل : ما أنصفتنى يا أمير المؤمنين : إذا كان الله تعالى ـــ الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ـــ ما يخرجه إلا فى ثلاثة أشهر ؛ أفلا تصبر أنت على ثلاثة أيام !..

تلك كانت مشكلة المتنبئين فى الماضى : المعجزة !.. أما اليوم فإنه لو قام رجل يدعى النبوة . وقال للناس : انظروا ؛ ثم مد يده إلى القمر فخلعه من موضعه فى الفضاء وصره فى منديله ؛ كأنه بطيخة ؛ وسار به متنقلا فى أرجاء العالم .. فما الذى يحدث ؟

يحدث أن يهب علماء الأرض لفحص هذه الظاهرة ؛ فيقول الفلكيون : إن هذا العمل الخارق قد دل على أن فكرتنا القديمة عن الأجرام السماوية كانت فكرة خاطئة ، وأن المراصد والمجاهر ما كانت تسجل وتظهر غير أوهامنا مكبرة مضخمة ، وأن القمر فى حقيقته ليس أكثر من فقاعة كبيرة من « الغاز الخفيف » استطاع أن يجذبها رجل فى تكوينه خاصية ينجذب إليها ذلك النوع من « الغازات » بهذه السرعة الهائلة التى أدت إلى انكماش حجم القمر الأصلى فصار فى حجم البطيخة ..

ويقول علماء الكيمياء: إن الحدث يستلزم إعادة النظر فى تركيب المواد التى تتألف

منها الأجسام السماوية ، فهى لا شك قابلة للتحول السريع من الصلابة إلى الرخاوة ، ومن الضخامة إلى الضآلة — وما من شيء يمنع رجلا ذا طبيعة خاصة من أن يجرى هذا التحول .

ويقول علماء النفس : إن الأمر لا علاقة له بالقمر ولا بغيره ، وإن الرجل ذو قدرة نفسية وقوة مغناطيسية يستطيع بهما الإيحاء على نطاق واسع ، فهو منوم هائل للجماعات ، ويكفى أن يقول فى الناس ، حتى لو كانوا علماء : إنه قد محا بيده وجود الشمس من لوحة السماء ؛ كما يمحى الرسم من فوق السبورة ، حتى يصير هذا الزعم فى النفوس حقيقة ملموسة ؛ وتمحى الشمس فعلا فى نظر الناس جميعًا على اختلاف مراتبهم وعقولهم ؛ وهذه ظاهرة كانت تكشف فى بعض الأشخاص من حين إلى حين ، ولكن على نطاق ضيق وقدرة محدودة ؛ ولا شيء يمنع من ظهورها فى شخص على نحو يخرج على كل قياس .

وهكذا يمضى كل باحث فى كل فرع : يفحص ويمحص ، ويفترض ويستنتج ، وتكثر المجادلات الفنية ، وتتلاطم النظريات العلمية ؛ ولكن ما من واحد من هؤلاء العلماء ، يأخذ نبوة الرجل على سبيل الجد ، أو يحاول التسليم بوجود صلة مباشرة بين هذا الرجل و « الله » !..

لم تعد المعجزة فى عصرنا الحاضر دليلا على النبوة ؛ فنحن فى عصر المعجزات ، تتعاقب كل يوم ؛ كأزياء السيدات ، فمعجزة القنبلة الذرية التى ظهرت فى عام مضى أصبحت قديمة فى هذا العام !..

والموسم القادم كفيل بأن يطلع علينا بمعجزة جديدة ، يستقبلها الناس بالعجب لحظة ، ثم يعتادونها وينصرفون عنها ؛ وينتظرون غيرها فى الموسم التالى .. وهكذا دواليك .. لم يعد عالمنا الحاضر يطالب النبى بمعجزة ؛ فلو أتى بها لأدخلها العلم معملِ بحثه دون أن يعتبرها برهانًا على أنه مرسل من الله !..

عصرنا الحاضر خليق أن يعفى النبى من المعجزة التى تثبت شخصيته ؛ فلماذا لا يظهر المتنبى ، إذن وقد أزيلت من طريقه العقبة الكبرى ؟!..

لا يظهر ؛ لأنه سيطالب بأصعب معجزة ، وهى : « الشريعة » !..

تلك الشريعة السماوية الإنسانية التى تصلح للناس كافة ، ويكون فيها صلاح الناس كافة ؛ فى آخرتهم ودنياهم ، وفى سمائهم وأرضهم !.. كيف تنزل هذه الشريعة دون أن تكون تكرارا لما سبقها من شرائع ؟..

لا بد إذن من شيء جديد !.. ولا بد أن يكون الله قد أراد ذلك فعلا ..

كل معجزات الأرض قليل إلى جانب « المعجزة العظمى » ، وهى « الديانة » التى يفجرها الله من نوره ؛ فيتبعها أفواج البشر مبهورين ، شاعرين أنها سكبت فى شرايينهم ، ومزجت بدمائهم ، إلى يوم الدين !..

الإيمان بالحياة

فى إحدى المصحات فتاة قاتلت الموت حتى انتصرت ، وهى الآن فى طريق الشفاء ، تجلس الساعات الطويلة من فترة النقاهة تقرأ وتفكر وتتأمل !.. وهى فيما يبدو ــ قد فقدت بعض الإيمان بالحياة ، وخيل إليها أن الأفق ملبد بالظلام ، فهى تمد يديها تلتمس النور !.. إنها كسفينة غالبت الأمواج ، وقارعت الأنواء ، وخرجت من زوبعة الليل ــ بعد أن كاد يطويها اليم ــ تتمايل وتئن ، باحثة عن الهداية فى شعاع منارة أو خيط فجر !..

اتجهت إلى ؛ لأدعم إيمانها وأبدد حيرتها ، وكان الواجب أن أجيبها فى رسالة خاصة ، فالأمر يعنيها وحدها ، ولكن خطابها الحامل عنوانها ضاع منى ، ووقعت أنا فى حيرة من أمرى ، لا أدرى : أأسكت عنها أم أخاطبها فى كتاب ؟!.. واخترت الحل الأخير ؛ لأنى خجلت أن أصم أذنى ، وأقبض يدى عن نفس تتخبط فى الشك وتطلب الغوث !..

أيتها الفتاة !.. أتدرين أين المنارة التى تهديك إلى الإيمان بحياتك ؟.. هذه المنارة قائمة بين جنبيك .. إنها قلبك !..

هذا القلب الذى ظل ينبض فى أحلك ساعاتك كما ينبض محرك السفينة فى أعنف ساعات العاصفة ، هذا القلب لماذا استبسل هكذا دفاعًا عن الحياة ؟.. لماذا لبث يدق دقات كأنها صرخات فى وجه الفناء ، يفزعه بها ، ويرده على أعقابه ؟.. لماذا يسير بخطواته المنتظمة أو المضطربة الليل والنهار ؛ لا تهمد له حركة ، ولا تخمد له نبضة ، ولا يخرس له لسان ؟.. إنه حارسنا ضد الموت. إنه على حصن حياتنا الديدبان !.

قلبك يذود عن الحياة ويناضل عنها نضال البطل ، لأنه يؤمن بالحياة ..

إنما الذى يشك هو عقلك .. هو تفكيرك ومنطقك .. هو ذلك الشىء المصطنع فينا .. ذلك الشىء الذى اخترعناه بأيدينا ..

أما القلب المؤمن بالحياة ، الحارس لها ، الذائد عنها دون أن نتدخل فى عمله بأذهاننا ، فهو ذلك الجزء الأصيل فينا .. ذلك الجزء الذى وضعه الله !..

لا يستطيع عقلنا ، لحسن الحظ ، أن يصدر أمره إلى القلب فيقف نبضاته ، كما يصدر أمره إلى الأيدى والأقدام فيقف حركاتها ..

لا أحد غير الله يستطيع أن يصدر أمره إلى القلب !..

ولقد أمر الله قلبك أن يصمد للمحنة فصمد ، وما دمت قد انتصرت على الموت ، فلماذا لا تنتصرين على الحياة ؟!..

ما الذى يخيفك من غدك ؟.. أشباح ربما كانت تتصاعد من جوف كتبك ومطالعاتك وتأملاتك !.. ليس أقسى من خيالاتنا !.. ليس أفتك بنا من أيدينا وصنع أيدينا ، وليس أرحم بنا من يد الله وما خلق وأبدع !.. نصيحتى إليك أن تتركى الكتب برهة ، وتتأملى الطبيعة !. استيقظى مع الفجر ، واستنشقى نسماته ، وأصغى إلى العصافير وهى تفتح أعينها ، وتترك أعشاشها ، وتقف قليلا فوق الأغصان المرصعة بالندى تنفض ريشها ، وتشقشق وتنشر أجنحتها ، وينقر بعضها البعض مداعبا ، ويفر بعضها من بعض ملاعبا !.. كلها غبطة بالفجر ، وكلها فرح بالحياة ، لا يقعدها عن ذلك سحب ملبدة ولا جو مطير !.. إنها تحتفى بالفجر فى اليوم المشرق ، واليوم المكفهر ، وتحتفل بوجودها إذا صفا الأفق وإذا أظلم بالضباب !.. لكأنها أنشودة الحياة تطير فى الجو ، صادحة منذ مطلع النهار ، تلقى فى سمع القلوب اليقظة المؤمنة ، ما يملؤها تفاؤلا بالوجود واستبشارا !..

أيتها الفتاة !.. هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك ؟..

لا تلتمسى المعونة عند مفكر ، ولا عند عالم فيلسوف !.. بل التمسيها عند عصفور !.. ذلك المخلوق الصغير ، الذى وضعت فيه قدرة الله إيمانا بالحياة !..

الباب الخامس

الأدب والعلم

ما أعجب العلم إذا تراءى لعين الأدب ! ..

باب العلم المغلق

كلما رجعت بالذاكرة إلى أيام حداثتى ، لاحت لى أمور غريبة . من ذلك أنى لم أكن معنيًا بالأدب وحده ، فأنا أذكر اليوم جلياً أنى فى الثامنة عشرة من عمرى كنت أقرأ « هربرت سبنسر » ! ... ولست أدرى : ما الذى كان يعجبنى من هذا الفيلسوف ، وما الذى استطعت أن أحصل منه فى مثل تلك السن ؟ ... وهل هى المصادفة التى أوقعته فى يدى ، أو هو الزهو بأن أقرأ لمفكر ، كان يملأ أسماع الدنيا فى ذلك الوقت ؟ ... كل ما كنا نعرف عن « سبنسر » يومئذ ، هو أنه مؤسس الفلسفة التطورية فى « إنجلترا » ... ولم أقرأ له بالطبع مبادئ التطور فى علوم الأحياء ، والنفس ، والاجتماع ؛ — بل اكتفيت بعلم الأخلاق ! ... وهذا أقصى ما يحتمله عقل شاب فى الثامنة عشرة ... ومع ذلك فإن ذاكرتى الآن لاتستطيع أن تخبرنى : أفهمته حقاً كما ينبغى أن يفهم ؟ ... من المستحيل أن أكر راجعا بعمرى إلى الوراء كل هذه الأعوام ؛ لأعيش تلك اللحظات التى كنت أطالع فيها مثل هذه الكتب ، وأراقب عملها فى رأسى . وأسجل أثرها فى نفسى !... ولكن ... ما جدوى ذلك ؟ ... فلأكن قد عجزت عن فهم « سبنسر » ، وليكن ما فهمت منه غير ما قصد ، وليكن ما حصلت منه أضأل مما يجب — هنالك حقيقة لا شك فيها : هى أن بذرة قد ألقيت فى نفسى من كل ذلك ، دون أن أشعر .. ومضت الأعوام بعدئذ بالفعل على نحو آخر ، شغلت فيها بألوان أخرى من الكتب « والفن » ، والأدب ! ... وإذا فى شبابى — وأنا على أبواب الثلاثين — يقع فى يدى عالم آخر ، هو « لا مارك » مكتشف القوانين الأساسية لتطور الكائنات الحية ، قبل « داروين » بخمسين سنة ! ... ما الذى أوقعه فى يدى هذا أيضاً ؟ ... أهى المصادفة أم الصيت المدوى ؟ ليس

صيته قطعاً ، فإن اسم « لا مارك » ، لم يكن من الأسماء المعروفة إلا فى محيط الخاصة من العلماء ! ... قرأت له — قبيل الثلاثين — رأيه فى العادة الموروثة وتكوين الغرائز ، وتطور العضو تبعًا للوظيفة ، قبل أن أقرأ « أصل الأنواع » الذى كان قد ذاع وشاع ، حتى كاد يصبح فى أوربا من الكتب المقروءة بين عامة المثقفين ؛ فإن « داروين » ، من الوجهة العلمية ، جاء متمما لنظرية «لا مارك» بأن أضاف إليها نظرية الاختيار الطبيعى وبقاء الأصلح فى العراك من أجل الحياة !.. ولكنه، من حيث التأليف ، قد وضع كتابه هذا بأسلوب سائغ ، يمتع الأديب الذى ليس له بالعلم صلة ، ولا إلى النظريات رغبة ! ... ليس بعجيب على الإطلاق أن يعجب أديب « بداروين » ، ولكن العجيب أن يقع لأديب هذا الاتصال بثلاثة من الفلاسفة والعلماء فى مراحل مختلفة من حياته ، ويتضح له فيما بعد أن أولئك الثلاثة هم أنفسهم أبطال نظرية التطور فى العصور الحديثة ! ...

أهى المصادفة ؟ ... وما هى المصادفة ؟ ... أتراها ، كما يقول « هنرى بوانكاريه » العالم الرياضى ، مجموعة الأسباب المعقدة الخفية عن إدراكنا ، التى تؤدى إلى نتيجة مقصودة بعينها..لست أدرى.. كل ما أعرف،هو أنى فى ذلك الوقت كنت أكتب رواية « شهرزاد » ، ومن ينعم النظر فيها يجد فكرة تطور الإنسان — لا على نحو يؤيد التطور المطلق فى خط مستقيم — بل التطور المحدود فى دائرة مفرغة ، كدائرة الأجرام العظمى والصغرى فى أفلاكها السماوية والذرية .. فهل نستخلص من هذا أن هناك قدراً يدفع الشخص إلى قراءة ما سوف يلزم له فى عمله ... أو أن طبيعة الشخص هى التى تميل به إلى هذا اللون أو ذاك من ألوان الغذاء الفكرى ؟! ... ليس من السهل الجواب ، وإن كنت أعتقد أن البذرة الأولى التى ألقيت فى نفسى منذ الحداثة . قد فعلت فعلها فى الخفاء ، وإذا الحنين إلى ذلك النوع من الكتب يعاودنى من حين إلى حين ، — لقد بلغ بى الأمر حداً قد يدهش البعض ، فأنا أجد اليوم عسراً فى قراءة القصص ، وأجد اللذة فى مطالعة كتاب علمى — على أن الصعوبة عندى ، هى

أن أعثر على كتاب فى صميم العلم ، من تأليف عالم يستطيع أن يكتب ، فإن أكثر العلماء لايستطيعون أن يجلوا أفكارهم إلا فى نطاق معادلاتهم الرياضية ، ومصطلحاتهم الفنية التى لا يقدر على متابعتهم فيها غير العلماء .. أما أولئك الذين يبسطون العلم تبسيطاً سطحياً فى كتب مقروءة للناس ، فلا أرى لهم قيمة فكرية كبرى بالنسبة إلىّ ! ... بقى أولئك الذين أعنيهم وأحب أن أقرأ لهم ، وهم فى الغالب من طراز العلماء المطعمين بالفلسفة ، أو الفلاسفة المتصلين بالعلم ، يتخذون من العلم مادة تفكير وتأمل ، لا موضوع بحث فنى فى معمل ، ويفرغون نتائج تفكيرهم فى كتابات ، نستطيع فى أغلب الأحوال أن نتابعهم — إن لم يكن فى مسالكها ، فعلى الأقل — فى مراميها ! ...

ما أعجب العلم إذا تراءى لعين الأديب ! ..

إنى لأسائل نفسى أحياناً : كيف استطاع العلماء أن يطلعوا على أعاجيب الكون دون أن ينقلبوا أدباء ؟ ... أما الأدباء فلا ينبغى أن يطلعوا على هذه الأعاجيب إلا بقدر ... وإلا انقلبوا مجانين ! ...

قل الروح من أمر ربى

جاء فى أخبار السيرة النبوية ، أن « النضر » و« عقبة » أقبلا على رءوس « قريش » فى حى من أحياء « مكة » صائحين :

ـــ يا معشر قريش ! .. قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين « محمد » : سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، وعن الروح ، فإن أخبركم عن اثنين وأمسك عن واحدة فهو نبى .

فلما جاء « محمد » تقدم إليه « النضر » سائلا :

ـــ يا محمد ! ... أخبرنا عن الروح : ما هى ؟

ففكر النبى لحظة ، ثم قال :

ـــ أخبركم بما سألتم عنه غدا ...

وتركهم وانصرف مطرقا ، وسار فى سبيله مفكراً ، وجاء الغد ومضى ، وتعاقبت الأيام والنبى ساجد عند غار حراء ، يتأمل ويفكر على غير جدوى ؛ حتى أرجف أهل مكة وقالوا :

ـــ وعدنا « محمد » غدا ، واليوم خمس عشرة ليلة ، قد أصبحنا منها ولا يخبرنا بشىء ! ... واشتد البلاء على النبى ، فصاح مستغيثا بربه :

ـــ أى رب ! ... إليك أشكو بلائى ... أى رب ! .. ابعث لى وحيك ! ... لقد سألونى عن الروح ولا أعلم بم أجيب ... أى رب ! ... أنسيتنى ؟ ... اللهم إنى لفى بلاء ... اللهم إنى لفى بلاء ! ...

وعند ذاك ، هبط « جبريل » بالآيات :

ـــ ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا ﴾ .. ﴿ ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا ، إلا أن يشاء الله .

واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا ﴾ ...
﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ .

* * *

إنى أجد دائما فى هذا الحادث سمة من سمات العظمة فى النبى ؛ فهو قد فكر فى المسألة تفكيراً صادقاً خلال تلك الأيام الطويلة ، وقلبها على وجوهها ، ولم يهتد فيها بنفسه إلى جواب ؛ فهو لم يكن بالنبى الذى يبيح لنفسه الكذب على الناس ، فيخترع لهم جوابا بارعاً يسيراً يجوز على عقولهم الساذجة فى تلك الأزمان ؛ — ولكنه أخذ الأمر مأخذ الجد ، وحاول فى الغار حل المسألة ، فلما هاله إعجازها استنجد بربه ، فسمع منه ذلك القول الحكيم ! ..

على أن موضع الدهشة عندى ، هو أن « محمدا » فى عصره وبيئته ، قد رأى ببصيرته المسألة فى إعجازها ، بنفس العين التى يراها بها علماء العصر الحديث ! .. إنى لم أدهش « لجوته » يوم قال عن الروح قولا مماثلا فى قصته « فوست » ! ... فجوته قد مارس علوم النبات والتاريخ الطبيعى ، ودرس من قوانينها ما وضعه أمام هذا الإعجاز وجها لوجه .. إن مسألة الروح لايمكن أن تبدو أمراً معجزاً للطاقة البشرية حقاً إلا أمام رجل علم ، غاص بكل ما أعطى للإنسان من ملكات مفكرة فى أعماق الأبحاث النظرية والعملية معا ... وحتى رجل العلم المغلق فى أبحاثه ، المخدوع بالنتائج الأولى البراقة لاكتشافاته ، — قلما يبصر بعد المرمى ، أو يفطن إلى استحالة المطلب ، حتى يخطو فى تأملاته العليا خطوات ...

فلقد حبس نفر من العلماء أنفسهم فى معاملهم منذ أكثر من أربعين عاماً ، واضعين نصب أعينهم هذه المسألة : « أفى مقدور العلم يوما أن يخلق ... — صناعياً — مادة لها كل خصائص المادة الحية ، أى القدرة على النمو والتمثل ؟ ..

لقد جرّأهم على هذا المطمع اعتقادهم أن « الحياة » — فى

جوهرها ـــ ليست سوى تفاعل القوى الكيميائية الطبيعية ، فهى إذن قابلة أن تصنع فى المعامل صنعا .. ولو أنهم ما اجترأوا بعد على أن يتصوروا إمكان الوصول دفعة واحدة إلى صنع « خلية »، فالخلية فى نظرهم جهاز ، قد بلغ فى تخصصه ودقته أسمى المراتب ، وما هى إلا نتيجة تطور استلزم الملايين من الأعوام !.. ومع ذلك فقد انكب العلماء يبحثون .. فما استطاع أحد منهم سوى « رافاييل ديبوا » و « لبتلر بيرلك » و « هيريرا » المكسيكــى ، و « ستيفان لبدوك »، أن يأتوا إلا بكائنات منحطة فيها شبه حياة استنبطوها من الأملاح ونظائرها ، واتضح لهم بعدئذ ، أنها جميعها لا تدخل نطاق الكائنات الحية بمعناها الحقيقى !..

على الرغم من ذلك يقول لنا البيولوچى « چان روستان » هذا القول المفعم بالتفاؤل :

« إذا توصل العلم يومًا إلى خلق الحياة ، فإن ذلك سيتم حتما بوسائل أخرى ، وبالرجوع إلى طرائق الكيمياء العضوية التى لا تقهر ، وإن النجاح الذى بلغته حتى الآن ، فى هذا المجال ، ما عاد محل جدال ،ـــ فهى اليوم قادرة على أن تخلق ـــ صناعيًا ـــ عددا كبيرا من مواد النشاط الحيوى ، مثل القلويات حتى الهرمونات .. إلخ »

أما علماء الطبيعة « الفيزيقا » ، فمنهم من يتجه وجهة أخرى ، ويضع المسألة على أساس آخر ، مثل « شرودنجر » الذى يبحث فى أصول الحياة ، وهل هى تقوم على أسس القوانين الفيزيقية ، دون أن يتفاءل أو يتشاءم !..

أما أنا ، الذى ليس بعالم ، ويحاول جاهدًا أن يتابع العلماء فى أبحاثهم ، ويلقى العنت الشديد فى مطالعة آثارهم ، ويتحامل متجلدا على تفهم كتبهم ، ـــ فإنى أتساءل متشائما :

لنسلم ، جدلا ، أن هؤلاء العلماء قد نجحوا فى خلق خلية حية ،ـــ فما قيمة هذه الحياة الظاهرية إذا لم تكن منطوية على تلك الخصال الكامنة العاقلة ، التى تميز

بعد نموها شخصية النوع ، حيوانا كان أو إنسانا ؟.. تلك هى الروح !.. إنها ليست مجرد حياة بيولوجية عمياء صماء ، تنمو داخل معمل نموا آليا ، — إنما المقصود بالروح ذلك الشىء الخفى الزائد على مجرد الحياة البيولوچية !.. فهل فى مقدور العلم أن يخلق لنا يومًا خلية نملة مثلا ، فيها روح النملة ، بما فطرت عليه من سليقة الادخار والكدح والنظام ؟..

ما أظن العلم يستطيع أن يخلق ذلك ، ولا أقل من ذلك ..

ويبدو لى أن العلم قد عرف أخيرًا حدوده ، وفطن إلى قصوره ، وامن بوجود شىء خلف تحليلاته ومركباته .. شىء خفى لا يسميه الروح .. ولكنه هو فى حقيقة الأمر ذلك الروح الذى أشار إليه الدين !..

ولنصغ إلى العلامة « ا . م . جود »، وهو يتحدث عن التحليل العلمى للإنسان ، قال : « لو أن علماء الطبيعة ، والكيمياء ، ووظائف الأعضاء ، والتحليل النفسى ، والاقتصاد ، والإحصاء ، وعلم الأحياء إلخ .. اجتمعوا ، ليقرروا الحقيقة عن الإنسان بعد الفحص الدقيق والتحليل العميق ، كل فى دائرة اختصاصه ، لما استطاعوا أن يخرجوا بحقيقة الإنسان !.. لأن كل هذه التفاصيل المتفرقة عن الإنسان لو جمعت لما كونت الإنسان ، فالإنسان ليس هو مجموعة الدقائق التى يتكون منها تركيبه المادى والحيوى والنفسانى ، — إنه أكثر من هذه المجموعة .. إنه شخصية !.. هذه الشخصية شىء يفلت دائما من غربال العلم ووسائله !.. هى شىء لا تحسه إلا إذا كنت لهذا الإنسان صديقا ، والصداقة والحب من الأشياء التى لا يمكن أن يحسها العلم »

ويمضى « جود » بعدئذ يحدثنا عن نتائج التحليل العلمى لنكتة فكاهية ، بلهجة لا تخلو من السخرية !.. فيقول لنا : إن السير أرثر إدنجتون حاول أن يبحث فى طبيعة النكتة، وقد رأى أنها قابلة للتحليل، شأنها فى ذلك شأن أى مركب كيميائى ، فشرح جوفها وفك أجزاءها ، وقرر ما ينبغى أن يكون عليه النموذج الكامل لنكتة فكاهية !.. وكان المنطق يقضى بعدئذ أن نضحك للنكتة ، ولكنا

لم نضحك !.. شيء فيها قد تبخر عند التحليل ، ولو حاولنا عندئذ أن نضم أجزاء نموذجية ، لنكتة مثالية حللها العلماء وقرروها ،ــ لما ظفرنا مع ذلك بالضحك !..

والضحك الذى ينسبه جود إلى النكتة ، أسميه أنا : الروح !.. على أن العلم قد بدأ يعترف صراحة أن الدين هو خير طريق يوصل إلى هذه الغاية !..

قال « شرودنجر » : « إن بصيرتنا الدينية : لها من القوة ، والمتانة ، والضمان ما لبصيرتنا العلمية !.. »

وقال « إينشتين » : « بصيرتنا الدينية هى المنبع وهى الموجه ، لبصيرتنا العلمية » .

هذا الاعتراف هو ، ولا شك ، كسب للدين ، فما كان أحد فيما مضى ــ أى منذ قرن من الزمان ــ يتصور العلماء يقولون عن الدين مثل هذا القول !..

ذلك كان حقًا مسلك الفلاسفة والعلماء فى الإسلام ، ولكن العلم لم يقف فى وجه الدين تلك الوقفة المسرفة فى التحدى والغرور إلا فى القرن التاسع عشر . ومن يدرى ؟.. ربما يتحتم علينا ، فى الغد أن نتابع سير العلم ، لنثبت أقدامنا فى الدين !..

فما من شيء يرينا دائمًا قدرة الله إلا عجزنا البشرى ..!

العلم متغير

يخيل إلينا غرورنا العلمى ــ فى العصر الحاضر ــ أننا نستطيع أن نبهر أى عقل عظيم من عقول الماضى ، وأن نشعره بعجزه الذليل ، وتقدمنا الجبار ، وأن نضعه موضع الحيرة ، والعجب ، والذهول ، أمام اكتشافاتنا الميكانيكية ، والبيولوچية ، والذرية !... ولكثير من الكتاب والمفكرين اليوم تصورات أدبية وفكرية ؛ لما يمكن أن يكون عليه الحال لو ظهر فى زمننا الحديث رجال من أمثال : أفلاطون ، ونيوتن ، وأبى العلاء !.. يتصور « مترلنك » الأمر على هذا النحو ، فيما لو ظهر اليوم « أفلاطون » واطلع على آثار حضاراتنا القائمة !.. إنه يراه ملقيًا علينا أسئلة تحتاج إلى أجوبة خليقة بذهنه النادر .. أسئلة عن خطواتنا الثابتة الظافرة ، فى مختلف ميادين النشاط البشرى .. سيسألنا ــ بالطبع أول ما يسألنا ــ عما صنعناه فى ميادين الأخلاق ، والاجتماع ، والسياسة !.. أى ربح إنسانى ظفرنا به فى تلك النواحى؟؟.. فماذا يمكن أن نجيب ؟.. لا شىء !.. ما من شىء قد تم بعد ، فكل تجاريبنا، وكل خيالاتنا ، ومثلنا العليا وأكاذيبنا ، تتقدم فى وسائلها ونتائجها عما كانت عليه فى عهد « أثينا » .. ما خلا شيئًا واحدًا قد تحقق مبطننا بالنفاق والرياء ــ، هو إلغاء ذلك الرقيق !.. ولو فطن « مترلنك » قليلا، لأدرك أن الرقيق قد ألغى فى الأفراد،ولكنه مباح فى الجماعات !.. وإذا كان من حق الفرد اليوم أن يعيش حرًا ،ــ فإنه ليس من حق بعض الشعوب أن تعيش حرة !.. لم يكف إذن مرور أكثر من ألفين من الأعوام لمحو هذا الظلم الإنسانى فى أبسط صوره !..

فإذا سألنا « أفلاطون » بعدئذ عن حال الفن ، والفكر ، والأدب ، فما نستطيع أن نقول له : إنا تقدمنا فى ذلك عن « أثينا » تقدما يذكر !.. ومن منا قد يجيبه جوابا قاطعا لا تردد فيه : إنا لم نزل نحتذى النماذج الإغريقية دون أن نبزها

فى الكمال والإبداع !..

فإذا سألنا عما وصلنا إليه فى الفيزيقا ، والكيمياء ، والطب والجراحة ، والفلك والتاريخ الطبيعى ، وعلم الأحياء ، .. إلخ ، — فإنه هنا سيجد لدينا أجوبة تدهشه حقا !.. سينظر — بعين العجب — إلى آلتنا البخارية والكهربائية ، وطائراتنا ، وأسلحة حربنا ، و « الراديو » و « الرادار » .. إلخ — فتصيبه رعدة فى أول الأمر ، ولكن عندما تخف وطأة الصدمة ، سيلتفت متسائلا :

— ما الذى يمكن أن يضيفه كل هذا إلى ملكات الإنسان الروحية ؟.. إنه على حق ، فكل هذه المخترعات قد يسرت لنا سبل الحياة المادية ، إن كل طفل فى مجتمعنا العصرى قد شب ، وألف وفهم هذه الاكتشافات أكثر من « أفلاطون »، ولكن هل كل إنسان فى زمننا له ذلك الروح المتألق ، والثقافة المصفاة ، والذوق المهذب الذى لأفلاطون ؟..

هذا رأيى أنا الشخصى !.. لو ظهر اليوم « أفلاطون »، لكان هو دائمًا « أفلاطون » تلك الشخصية الإنسانية الممتازة فى كل عصر وفى كل زمان ..

ولنفرض أنه ظهر حقًا ، فهل هو صالح للحياة فى وقتنا الحاضر ؟.. وهل يحب هذه الحضارة ؟.. وأى نوع من الناس يتخذهم أصدقاء ؟.. وأى بلد من البلاد يطيب له فيه المقام ؟..

أسئلة لم يجب عنها أحد بعد .. ولأحاول الإجابة السريعة فأقول :

إن « أفلاطون » يستطيع أن يعيش فى زمننا هذا مبجلا ، قادرًا على أن يكسب رزقه بعرق الجبين ! إن أى جامعة تقبله أستاذًا لفلسفته ، يحاضر فيها باللغة اليونانية ، إذا شاء !..

أما أين يقيم ؟.. فمن المحقق أن « أمريكا » ستصنع المستحيل ، كى تغريه بالإقامة فيها ، والتدريس فى إحدى جامعاتها ! ولكننى أشك كثيرًا فى أن « أفلاطون » يحب هذه الحضارة الأمريكية الآلية الصاخبة ، أو يطيق المقام فى ناطحات سحبها الجوفاء — وهو الفيلسوف المشاء — أو يرضى أن يعطى

صورته وحياته الخاصة طعاما لصحفها ومخبريها ، أو يحادث فنانيها دون أن يلوذ بالفرار !..

ولكنه سيجد له دائمًا أصدقاء : من الأدباء والفلاسفة ، وأساتذة الجامعات ، ممن يقرءون له ، ويدرسون آثاره — وهم بذلك يقيمون له خير دليل على أنه حي فى كل زمان !. يعيش معهم دون أن يروه ، فليس هو بالصديق المستجد ، وإنما هو لهم صديق الفكر والروح من قديم ! نعم !.. ما دام للروح قيمة فى ذاتها ، بمالها من شخصية وذوق وتهذيب ، — فالإنسان العظيم قدير على الاحتفاظ بقدره ومقامه فى كل زمان ومكان مهما تتجدد المعارف ، ويقفز العلم ، وتتعدد الاكتشافات ، وتتغير الظروف والأحداث !..

إن الروح ثابتة ، والعلم متغير ..

هذا أيضا دليل على أن الروح — لا العلم — هى مصدر الخلود !..

وجدتها .. وجدتها

فى تاريخ العلوم قصة صغيرة طريفة ، يتناقلها الناس فى كل العصور ، منذ القرن الثانى قبل الميلاد : « حيرون » ملك « سيرقوسة »، طلب ذات يوم إلى صائغ حاذق أن يصنع له تاجا من الذهب الخالص ، فأذعن الصائغ للأمر ، ومضى إلى عمله وانكب عليه ، حتى أتم صنعه ، وقدمه إلى الملك !.. فلما رآه الملك ، داخلته ريبة فى الصائغ البارع ، وقال فى نفسه : من يدرينى أن هذا التاج قد صنع من ذهب خالص ؟.. ومن يثبت لى أنه لم يخلط بقدر وافر من الفضة ؟.. واستولت على الملك هذه الفكرة ، حتى أرقت ليله ، وأقضت مضجعه،ـــ فلم ير بدًا من أن يستشير فى ذلك علامة العصر ، « أرشميدس » قائلا له : « أريد منك ، أيها العالم الحكيم ، أن تكشف لى هذا الغش ـــ إذا كان ـــ وأن تتحقق لى من صفاء الذهب فى هذا التاج ، على شرط ألا تمسه بسوء ، وألا تحدث فيه أثرًا !.. »

فمضى « أرشميدس » ، يبحث وينقب طويلا ـــ على غير جدوى ـــ عن الوسيلة التى يعرف بها مقدار الذهب ، دون أن يمس التاج ، وأعيته الحيلة ، وكاد يسلم أمره لليأس !.. حتى كان يوم ذهب فيه إلى الحمام ليغتسل فى حوضه !.. فبينما هو مغمور فى الماء ، لاحظ أن أعضاءه تفقد وزنها فى الماء على نحو ظاهر ، وأنه يستطيع أن يحرك ساقه فيه ويده ، فتتحركا بسهولة تثير العجب .. فى تلك اللحظة أشرقت بصيرته بلمحة من لمحات الوحى قادته إلى اكتشافه المشهور : « قانون الكثافة النوعية للأجسام ». فما تمالك عند ذاك أن خرج من الحمام ـــ بعد هذه الإشراقة من الإلهام ، وهو ثمل بفوزه ، قد نسى ما سبق من أمره ـــ وجرى فى الطريق عاريًا ـــ دون أن يشعر أو يعى ، وهو يصيح بالإغريقية : « يوريكا ! .. يوريكا !.. » أى : « وجدتها !.. وجدتها ... »

أنا أيضاً حدث لى مثل ذلك ذات يوم — أنا الذى لا يفقه شيئا فى العلوم ... خيل إلىّ أنى اكتشفت حقيقة علمية ! .. وهل من الضرورى أن يكون الإنسان عالما طبيعيا ، أو كيميائيا ، أو فلكيا ، لتكشف له الطبيعة عفوًا عن سر من أسرارها ؟!.. إن الطبيعة امرأة قد يحلو لها أن تنزع نقابها أمام من لا يعنيه أمرها ، وتحتفظ وتتمنع على من يجرى خلفها ويقفو أثرها ، أو قل : إنها استهانت بشأنى ، أو لم تفطن إلى وجودى ، فخلعت — على مقربة منى — إزارها .. ومكنتنى من الاطلاع على سر من أسرارها ، وكان ذلك أيضًا داخل الحمام !.. لكأن الطبيعة هى الأخرى ، لا تخلع برقعها ولا تتجرد فى حقيقتها العارية إلا فى حمام !..

نعم ما من شك عندى فى أنى اكتشفت اكتشافا علميا ، قد لا يقل فى الخطر والأهمية عن اكتشاف « أرشميدس »، وقد تجلى لى الوحى مثلما تجلى له فى حمام !.. وكل الفرق بينى وبين الحكيم الإغريقى هو أنى نسيت أن أخرج من حمامى إلى الطريق عاريًا أصيح : « يوريكا !.. يوريكا !.. » أى : « وجدتها .. وجدتها !.. »

فالذى فعلته هو أنى ارتديت ثيابى بكل تعقل ورزانة ورباطة جاش !.. ولا غرو ، فنحن الآن فى عصر العقل المادى ، وورق البنكنوت !.. وخرجت من دارى إلى الطريق بكل تؤدة ووقار ، وذهبت من فورى إلى صديق لى ، عالم معروف من علمائنا الراسخين فى العلم ، ودخلت عليه وابتدرته قائلا :

— أتعرف من الذى أمامك ؟..

— طبعا .. أعرف !..

— أراهنك بعشرة جنيهات على أنك لا تعرف ..

— لماذا تريد أن تخسر نقودك ؟

قالها وهو يخرج من محفظته ورقة مالية بالجنيهات العشرة ، واثقا متحديا .. فصنعت مثلما صنع .. وأخرجت ورقة مالية مثل ورقته .. وكلى ثقة واطمئنان ، فنظر إلىّ باسما قائلا :

ـــ والآن ؟.

ـــ والآن .. تكلم أنت .. من أنا ؟

ـــ أنت صديقى فلان ..

ـــ أبدًا .. أبدًا .. أنا « أرشميدس »..

فحدق فى وجهى ليتأكد له اكتمال قواى العقلية .. و لم أمهله . فقد اقتحمت الموضوع اقتحاما ، وقلت له :

ـــ إنى لا ألقى الكلام جزافا يا صديقى .. عندما أقول لك إنى « أرشميدس » فيجب أن تصدقنى !.. لقد اكتشفت ـــ مثله وفى مثل ظروفه ـــ حقيقة علمية .. قد تقلب علم الكهرباء التطبيقية رأسًا على عقب ، وقد تغير نظام الصناعة الحاضرة وتقرر مصير المصانع الحديثة ؛ بل تغير نظر الخبراء العالميين فى مشروع خزان أسوان !..

فالتفت إلىّ العالم باهتمام يخالطه حذر :

ـــ ماذا تقول ؟.. أنت تكتشف ؟..

ـــ و لم لا ؟. يضع سره فى أضعف خلقه !..

ـــ قصدى .. أنك لست بعالم كهربى ..

ـــ وماذا اخترع العلماء الكهربيون المنتشرون فى الأرض ، العاكفون على الدرس والتدريس فى المعامل والجامعات ، وهم يعدون بالألوف ؟!. كثير من أسرار الطبيعة تتجلى بالمصادفة للبسطاء أمثالى ، قبل أن يتلقفها العلماء المحترفون ويبحثوها ويقرروها حقائق علمية !..

فبدا على وجه صديقى العالم أنه اقتنع ، فأطرق مفكرًا قائلا :

ـــ فى قولك شىء من الوجاهة ، ولا شىء بمستبعد !..

ـــ الوحى فى العلم كالوحى فى كل شىء ـــ يهبط على كل إنسان ؛ فما المانع أن تهبط على مثلى حقيقة علمية مجردة عارية ؟.. لا حظ أنها هبطت فى حمام .. وأنى أبصرها بإدراكى ، وأراها ببصيرتى .. وألمسها بيدى .. وأحسها فى

كفى .. ثم أقدمها إليكم معشر العلماء الجالسين فوق المكاتب ، تقلبون فى أوراق وسجلات وملفات ، لتلبسوها بعد عريها ثيابًا خداعة براقة ، من صيغكم الفنية ، ومعادلاتكم الرياضية ، لتبدو فى أعين الناس ، حقيقة علمية وقورًا جديرة بالاحترام والتقديس !..

— قولك لا يخلو من صواب !.. إن عمل بعض العلماء ، كعمل الخياطة التى تلبس « الحقيقة » الثوب الذى تصلح به للظهور فى المحافل ، ولكن يجب أن تعترف أنه ما من امرأة تستطيع أن تظهر فى الطريق عارية .. كذلك « الحقيقة » !..

— وكيف استطاع « أرشميدس » أن يظهر فى الطريق عاريًا ؟..

— لا تنس أنه كان عالما .. لقد شغل باله فى الحمام بإلباس « الحقيقة » رداء ، ونسى نفسه !..

— إنى معترف بأن « حقيقتى » عارية ، ولذلك جئت إليك لتصنع لها ثوبا حتى نخرجها إلى الناس جميلة المنظر ، جليلة المظهر !..

— لا مانع عندى .. هات لى هذه « الحقيقة » !..

— كلا يا صاحبى !.. فلنتفق أولا على الشروط .. إن النتائج التى ستترتب على هذا الاكتشاف ذات أهمية كبرى ، خصوصا من الناحية المالية — فلمن يكون حق الاختراع ، وما يدره من موارد ، لا تعد ولا تحصى ؟!..

فهرش صديقى العالم رأسه ، ثم قال :

— مهما يكن من قدر الاكتشاف فإن كل قيمته فى التجارب العلمية التى تجرى عليه ، واستخلاص القوانين التى يمكن استخدامها فى التطبيق العملى والصناعى ..

— ما معنى ذلك ؟ اعرض شروطك ، بلا مداورة ولا التواء !..

— تريد الصراحة ؟: للمكتشف الثلث ، وللعالم الثلثان !..

— ياللمبالغة !.. لجسم الحقيقة الثلث وللخياطة الثلثان !؟..

ــ إنك لست الحقيقة ، ولا جسمها !.. ما أنت إلا رجل عابر ، صادف « الحقيقة » فى الطريق عارية كاللقيطة ، لا تعرف لها مأوى ولا هدفا ، فسحبتها أنت من يدها ، وقدتها إلىّ ؛ لأزيل عنها وسخها وهملها و « عبلها » ، وأصقلها ، وأجلوها ، وأدثرها ، وأظهرها !.. بالاختصار ، هل تقبل المناصفة فى الحقيقة ؟!..

ــ نزولا على حكم الصداقة وحدها .. أقبل !..

ــ اتفقنا .. هات اكتشافك !..

ــ اسمع يا سيدى : كنت فى الحمام منذ أيام .. وكان فى « الدش » خلل « ثقب متسع » فيما أذكر ، يندفع الماء منه فوق الجسم بقوة شديدة .. فاستقبلت هذا الماء المضغوط بكفى من ذلك الارتفاع ، فإذا بى أشعر فى اليد برعشة ، كتلك الرعشة التى تحدث لمن لمس سلكا من أسلاك الكهربا !.. هنا أدركت لساعتى أن ضغط الماء فى ذاته يولد قوة كهربية .. وعلى هذا القياس فإن الماء المندفع من عيون خزان أسوان ، يولد كهربا بطريقة مباشرة بمجرد الضغط والاندفاع .. وهو لم يخطر ، ولا شك ، على بال أحد من خبراء مشروع الخزان ، لأن الذى خطر ببالهم هو الانتفاع بضغط الماء فى إدارة « مراوح » ، تحرك بعد ذلك « دينامو » ، هو الذى يولد الكهربا !.. أما اكتشافى ، فهو أن الماء نفسه فى مساقطه ، يولد كهربا ــ بغير حاجة إلى « دينامو » !..

ما قولك فى هذا الاكتشاف ؟..

فنفخ صديقى العالم نفخة ، خيل إلىّ أنها أطارت كل صرح آمالى ... وبعد أن تمهل قليلا ، ليستجمع ما بقى من احترامه المبدد لى ، قال فى نبرة سخرية مكظومة :

ــ أتدرى ماذا اكتشفت ؟..

ــ ماذا ..

ــ البحر الأبيض المتوسط !.. نعم شأنك بالضبط شأن رحالة يأتى فى هذا

العصر ، ليعلن إلى الناس أنه اكتشف بحرًا عظيمًا ، فإذا سألوه عنه ، قال : هو هذا البحر الذى يحد من الشمال بأوربا ، ومن الجنوب بأفريقيا ..

يا صديقى الفاضل .. كل جسم فى حركته يولد كهربا ، أنت الآن وأنت ترفع يدك ، تولد كهربا ، وأنت تضعها فى جيبك ، تولد كهربا ، وأنت تتناول هذه الجنيهات العشرة من أمامى ، تولد كهربا !.. عجبًا !.. ماذا أرى ؟.. انتظر ، حتى نبت فى أمر الرابح للرهان !..

وكان السيف قد سبق العذل ، وامتدت يدى فاختطفت الورقة المالية ، التى كنت قد أخرجتها ، وجازفت بها ، فقد لمحت شبح الخيبة والهزيمة فى الأفق ، فأسعفتنى البديهة بضرورة الانسحاب السريع .

ونهضت وأنا أقول لصاحبى ، لأغطى انسحابى :

ـــ أحقًا أنى لم أكتشف شيئًا جديدًا ؟..

ـــ دعك من هذا الهراء !.. وحدثنى عن الرهان !..

ـــ ليس فى الأمر هراء .. كل شيء جديد عندى ما دمت أحسه بنفسى لأول مرة !. فلتمتلىء الدنيا بالحقائق العلمية ، فكل حقيقة لم تدخل مدار إحساسى وإدراكى فهى لم تولد بعد !.. أنا الرابح للرهان ؛ لأن العبرة هى بأن أعتقد ـــ أنا فى لحظة من اللحظات ـــ أنى « أرشميدس » !.. وقد حدث هذا ، ولا يهمنى اعتقادك أنت ، ولا اعتقاد الآخرين ، ومع ذلك فالذنب ذنبى ، فلقد كان فى مقدورى ـــ بكل سهولة ـــ أن أقنعك وأقنع الناس !..

ـــ كيف ؟..

ـــ لو أنى فعلت ، كما فعل « أرشميدس » ، وخرجت من الحمام إلى الطريق عاريا !..

ـــ لا تنس أنه فى عصره لم يكن قد أسس بعد مستشفى المجاذيب !..

فهززت رأسى ، تأسفًا وترحمًا على عصره السمح الحر ، وتركت صاحبى العالم ، وأنا أقول فى نبرة المصر على حقه وفوزه ورأيه :

ـــ وبعد ذلك يسمون عصرنا الحاضر العصر الذى يشجع فيه المكتشفون !..

الباب السادس

الأدب والحضارة

إذا أبصرت شعاعـا ، فاعلـم أن وراءه كوكبا .. وإذا رأيت أدبا ، فاعلم أن وراءه حضارة .. وما من خطر يهدد الشعاع إلا انفجار الكوكب !..

الحضارة فى الغد

يعجبنى من مفكرى الغرب ، براعتهم فى إبراز فضائل الحضارة الغربية ، وما من شك عندى فى أن لهذه الحضارة فضائل ، ولكن الذى أشك فيه أحيانا ، هو ما تنطوى عليه براعة هؤلاء المفكرين من مقاصد وأغراض .. من ذلك أنى وقفت طويلا عند هذا القول « لريمون فرجناس » فى حضارة الغرب .. قال « إن هذه الحضارة الغربية قد ولدت فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، من امتزاج الروح الإغريقى بالروح المسيحى ؛ فهى إذن قد اتخذت مهدها هذه البلاد ، المحدودة الرقعة الضيقة الآفاق ، وجعلت إطارها هذه الطبيعة الرحيمة الهادئة ؛ بجداولها الجارية ، وأشجارها المثمرة بالزيتون !.. إنها حضارة وديان .. يعيش فيها بسلام الإنسان ، وصديق الإنسان !.. وإن ساكن الوادى لا يحسد عادة جاره على واديه ، ولا يطمع فيما لديه ، ولا يتمنى أن يطرده من أرضه ليحل فى مكانه .. ربما كانت تلك نظرة أقرب إلى الشعر !.. وربما اعترض عليها معترض ، بما يزعمه أهل الشرق ، من أن حضارة الغرب هى حضارة حروب وفتوح !. نعم .. حضارة الغرب تعرف الحروب ، ولكنها حروب من أجل الكرامة ، لا من أجل التوسع والفتح » !!..

هكذا يفكر ويتكلم هذا المفكر الغربى إنه يجمل الحقائق تجميلا رائعًا ، وليت ما يقول صحيح !.. إذن لكانت « أوربا » هى الجنة الموعود بها المتقون ، ولكانت الحروب قد انقرضت من الأرض ، والأطماع قد زالت من الصدور .. ولكن الواقع يقول لنا غير ذلك ، مع الأسف الشديد !.. الواقع يقول لنا وهو يشير بإصبعه : « اتبعوا الشمس حيث تسير ، وافحصوا كل شبر من أرض يقع عليه منها شعاع — تجدوا راية غربية وفتوحا حربية ومطامع استعمارية ! »..

ويمضى ذلك المفكر الغربى فى تصويره قائلا : « إن فكرة الوادى — وهى

الصورة التى يعتز بها ــ قريبة إلى فكرة السعادة ؛ لذلك تبدو له الحضارة الغربية كأنها حضارة الشعوب السعيدة .. أو على الأقل حضارة أمم أقل تعرضا من غيرها لقسوة الحياة وكوارث الطبيعة !.. هذا الهناء ــ النسبى فى نظره ــ هو الذى أدى إلى ذلك الاحترام لذات الإنسان فى حضارة الغرب !..

ردى بسيط على ذلك المفكر : أن الطبيعة قد رحمت الغرب حقًا ، وحبست عنه كوارثها ، ولكنه هو لم يرحم نفسه ، فقد خلق لذاته من الكوارث والمحن ، وأنزل بأرضه من الخراب والدمار ، ما لم يخطر للطبيعة على بال !.. كل منبع للسعادة يسممه ، حتى منبع الدين ، وكل جار له يحطمه ، حتى لو كان مصدرا للعلم والتفوق والاختراع !.. لقد ولد الغرب فى أرض السعادة حقًا ، ولكنه رفض السعادة !..

ويقارن ذلك المفكر بين نظرة الشرق ونظرة الغرب إلى الإنسان قائلا : إن أولئك الذين ذهبوا إلى بلاد الشرق ، هالهم ما رأوا من ثبات الشرقيين وهدوئهم أمام تلك الخطوب والكوارث التى تودى بحياة الملايين ــ لكأن أهل الشرق يرون فى الأوبئة والمجاعات والزلازل أسبابا طبيعية ، وحلولا سماوية لمشكلات ازدياد السكان وقلة الطعام !.. فالأموات يخلون مكانهم ، ويتركون زادهم للأحياء .. وتلك نظرة تخالف كل المخالفة نظرة الغرب الذى يرى حياة الفرد الواحد لها من القيمة ، ما لا ينبغى النزول عنه للغير بأى ثمن .. إن التسليم بشقاء فرد ــ لضمان خير الآخرين ــ أمر يناقض التفكير الغربى ..

هذا كلام طيب ، مهما يكن فى جوهره من الأثرة الفردية !.. ولكن إلى أى مدى صدق هذا التفكير فى ميدان الواقع الغربى نفسه ؟.. إن المحافظة على حياة الفرد وسعادته وحقوقه ، مبدأ عظيم !.. ولو ثبت أنه من ابتكار الحضارة الغربية وحدها ، لما وسعنا إلا الانحناء لها احتراما !.. ولكن المبدأ الآخر الذى ينسبه ذلك المفكر إلى الشرق ــ وهو مبدأ تضحية الفرد من أجل المجموع ــ هو أيضًا مبدأ

لا يقل سموا عن المبدأ الغربى .. وفى رأيى أن كل حضارة كاملة يجب أن يقف فيها المبدآن جنبا إلى جنب ، ولا يدرى أحد ما الذى سيكشف عنه الغد .. ولكن الذى نراه اليوم ، هو أن العالم قد انقسم إلى معسكرين ؛ كل منهما قد اتخذ من أحد المبدأين رايته ؛ فالمعسكر الشرقى تمثله الآن « روسيا » بمبدئها الذى يقول : « إنه يجعل للدولة الأهمية الكبرى ، وللمجموع القيمة الأولى » — على حين أن المعسكر الغربى يقول : إنه يجعل للفردية الأهمية الأولى ، وللفرد القيمة الكبرى !..

هل يثبت لنا الغد أن الطرفين على حق ؟.. وأن العالم لم يعد يطيق تعدد الحضارات ؟.. وأن دنيا المستقبل لن تقبل إلا حضارة واحدة ، ترفرف بجناحيها الكبيرين على الأرض ؟.. وتضم تحتها أسمى المبادئ متسقة ، وأنبل الأفكار مجتمعة ؟؟..

الحضارة والشرق

الحضارة الأوربية هى أحيانا كرداء المساخر ، يجمع من الألوان كل متنافر !.. فهى فى الوقت الذى تمنح فيه النساء حق الانتخاب ، تحرمهن من التصرف فى أموالهن ، وتجعلهن فى حكم القاصر ، وتجعل الأزواج عليهن فى أموالهن أوصياء !..

فكأن المرأة فى نظر الغرب ، تصلح لتدبير شئون الدولة ، ولا تصلح لتدبير شئون مالها !.. وعلى هذا الأساس المتناقض ، منحت بعض الدول نساءها الحقوق السياسية ؛ــ مفتخرة مزهوة :ــ فدخلت نساؤها مجالس النواب ، وفى أقدامهن أغلال الحرمان من حقوقهن المالية والشخصية !..

ثم رفعت هذه الدول الصوت مجلجلا فى هيئة الأمم المتحدة ، مطالبة بمنح هذا الحق السياسى لكل النساء فى بقية الشعوب ..

يا للمهزلة !.. لكأن صوت المدفع هو الذى يتيح اليوم للغرب المسلح أن يطلق صوتا سخيفًا فى شئون المجتمع ، يسميه صوت الحكمة والتقدم !.. ولست أدرى كيف استطاعت أوربا « المتقدمة» أن تلبث القرون متخلفة عن الحضارة الإسلامية ؟!..

لو كان لدينا ممثل قوى الشخصية دامغ الحجة فى هذه الهيئات الدولية ــ لصاح بهؤلاء القوم: ألا أيها النوام ويحكم هبوا!.. ألا تعرفون أن نساءنا المسلمات يملكن من حق التصرف فى أموالهن،ما تطمعون اليوم فى الوصول إليه ؟..

ولكن مركب النقص فى الشرق ، يخيل إليه دائمًا أن الغرب لا يتأخر ، لا يمكن أن يتأخر !.. وما الغرب فى حقيقة الأمر إلا متأخر جدا ، فى كل شئون الروح والحكمة العليا !..

* * *

وإن من آيات تأخره،ذلك الذى يسميه « الحق السياسى ».. ولقد نكب به شعوبا ، ويريد أن ينكب به البيوت والأسر ، هذا الغرب الهازل المتناقض يمنح هذا « الحق » للفرد ولا يمنحه للأمة .. ما من أمة لها حق سياسى فى تقرير مصيرها إلا إذا كان فى يدها مدفع ، وما من فرد انتفع بحقه السياسى فى تقرير مصيره !.. ولكنه قرر به مصاير من اشتروا أو اختلسوا منه هذا الحق !.. ما كلمة « الحق السياسى » إلا لعبة حمقاء من لعب الغرب ، شغلت بها الأذهان دون أن يثبت لها نفع !.. وإذا رجع الغرب إلى حكمة الشرق ، ورأى كيف فهم الإسلام الديموقراطية ؛ــ لجنى من ذلك دروسًا قد تصلح من فساده ، وتقيل من عثاره ..

* * *

نشرت ذلك منذ سنوات فى كتابى « عصفور من الشرق »، وقد ترجم إلى لغات أجنبية .. ولكنى ما جنيت من ذلك إلا تهمة ، ألصقها بى كاتب ، نشر بالإنجليزية فى لندن كتابا عن مصر ، قال فيه عنى : إنى « رجل رجعى » واستشهد بفقرات من كتابى المذكور .. أدركت عندئذ أن الغرب غير راغب فى أن يستلهم من نور الشرق شيئًا !.. وأنه لا يزال يمعن فى الاعتقاد بأن كل ما خرج عن حضارة الغرب فهو توحش ، وأن كل ما اتصل بجوهر الشرق فهو رجعية !..

* * *

لست أدرى : أنسمى هذا الموقف من الغرب عمى ؟.. أم نسميه تعصبا ؟.. لطالما رمانا الغرب بالتعصب؛ــ زورًا وبهتانا!.. وما من أمة فى الأرض، أبدت من التسامح والتساهل والحرية ، ونبذت من الجمود والقيود ، مثلما فعلت أمم الشرق إزاء الحضارة الغربية !.. فلقد فتحنا أعيننا عليها بضمائر نقية ، ونقبنا فيها بحسن نية ، واخترنا ما اعتقدنا أنه ينفعنا فى حياتنا الحاضرة ، وينفى عنها شبهة التمسك بالبالى من المظاهر ، وذهبنا فى ذلك أحيانا أبعد مما ينبغى ؛ــ فما وجدنا بأسًا فى

أن ننقل عن الغرب كثيرًا من الأردية ، والأنظمة ، والقوالب ، والطرائق ، فهى أعراض مما يلحق المدنيات القائمة ، وأثواب مما يغلف العصور المتجددة !.. ولكن الذى ما كنا لنتهاون فيه قط هو : الروح والجوهر !.. هنا ونقول للغرب : قف ، وحذار أن تمس هذا الجانب من الشرق ، ومهما يكن من أمر اتهامه لنا بالرجعية ؛— فنحن أقدم منه عهدا ، وأكبر سنا ، ونحن نعرف أنه الآن فى شبابه المضطرب ونشاطه المتقد ؛— لا يمكن أن يتريث ليبحث عندنا عن معونة !.. ولكن ، غدا ، عندما يقعده الكبر وتذله الهزيمة ، ويذهب عنه الغرور ، ربما وقف لحظة وتلفت حوله ، يلتمس الهداية ؛— فلن يجد له عندئذ من هاد غير الشرق ، مهبط الحكمة ومنبع النور !..

ثراث الحضارات

إن العصر الذى نعيش فيه اليوم ، هو عصر الصراع ـــ لا بين القوى المادية وحدها ـــ بل بين القوى الفكرية ، وإن هذه التيارات الثقافية المحيطة بنا ؛ من أنجلو سكسونية ، ولاتينية ، وسلافية ؛ــ لتدفعنا إلى التفكير فى موقفنا حيالها !.. لقد فكر فى ذلك فعلا بعض شبابنا المثقف .. ورأى أن يطرح علىّ هذه الأسئلة :

ـــ « ماذا نأخذ وماذا ندع من حضارة الغربيين ؟»

فأجبت بلا تردد :

ـــ نأخذ ما فى رءوسهم ، وندع ما فى نفوسهم ؛ إحساسنا ملكنا ، وإحساسهم ملكهم ؛ فالشعور طابع شخصى ، لا ينقل ولا يستعار ، ولكن المعرفة ملك مشاع ، ومتاع يتداوله الجميع !..

ـــ « هل نأخذ كل ألوان المعرفة ؟ »

ـــ كل ألوان المعرفة نأخذها ، لا نترك لونا واحدا .. ما من شعب فى هذا المعترك العالمى الحاضر ، يغتفر له الجهل بعلم من العلوم ، أو أدب من الآداب ، أو فن من الفنون ، ولن تقوم للشرق نهضة حقيقية إلا إذا أحاط بكل معارف الأرض إحاطة شاملة ، ثم صهرها فى قلبه ، وأخرجها ـــ مرة أخرى للناس ـــ معدنا نفيسا يشع أضواء جديدة .

ـــ « وما الرأى فى اختيار ثقافة معينة دون ثقافة ، كاختيار اللاتينية مثلا دون الأنجلو سكسونية أو العكس ؟ »..

ـــ هذا خطأ !.. كل الثقافات الموجودة يجب أن نلم بها إلماما ، وأن نتخير محاسنها ونقتطف أطايبها ، فنحن لسنا مثل الغربيين مقيدين بواحدة منها دون الأخرى !.. كلها لنا ، نغترف منها ، ونضيف إليها من ذات أنفسنا ، ونضفى

عليها من مشاعرنا ، ونطبعها بطابع مزاجنا وإحساسنا !.. لا يجب أن نتحيز لواحدة دون الأخرى ، أو نتشيع ، أو أن نقصر اطلاعنا على ثقافة دون ثقافة ويجب ألا يكون للاتجاهات الشخصية ، أو للمؤثرات السياسية ، أو للظروف الدولية ،ـــ تأثير فى إقبالنا نحو إحداها ، وانصرافنا عن إحداها !.. فالثقافة ليست بضاعة مادية لأمة من الأمم ، وإنما ثقافة كل أمة ملك البشرية كلها ، لأنها خلاصة تفكير البشرية جمعاء !.. ثقافة أى أمة ، ليست سوى « عسل »، استخلص من زهرات مختلف الشعوب ، على مر الأجيال ، فليكن همنا جَنْى العسل دون النظر إلى جماعات النحل !... وهل من العقل إذا لدغتنا جماعة من النحل أن نقاطع عسلها ؟.. لقد عرفت رجلا عسكريا من الإنجليز أيام الحرب ، أشرف على الستين ، ما كانت تذكر أمامه كلمة « هتلر » أو « النازية » أو حتى كلمة « ألمانيا » حتى يصعد الدم إلى رأسه غضبا ، فقد كانت له فى جنوب « إنجلترا » أسرة ، ذاقت الأهوال من القنابل الألمانية الطائرة . وكان له أهل وأقرباء ، قتلوا فى الحرب ضد الألمان ، وعلى الرغم من ذلك ، ما كنت أراه يخلو إلى نفسه ، وفى فترة راحة من عمله ، حتى أجده عاكفًا على كتاب بعينه ، يطالعه باهتمام ، فنظرت ذات يوم إلى ما بيده ، فإذا هو : كتاب ألمانى يتعلم فيه اللغة الألمانية وآدابها ، فدهشت !.. هذا الرجل الذى يمقت الألمان هذا المقت ، يتعلم لغتهم ويعنى بآدابهم وثقافتهم وفى مثل سنه ؟!.. وحادثته فى ذلك فقال : وما وجه العجب ؟!.. هل الثقافة الألمانية ملك الألمان وحدهم ؟!.. هذا درس يجب أن يوضع تحت عين كل شرقى !..

ـــ « أليس لنا مع ذلك أن نساير ، من بين الثقافات الغربية ما يناسب طبيعتنا الشرقية ، أو ما يصلح لها فى نهضتنا الحاضرة ؟.. »

ـــ من رأيى ألا نهمل شيئًا ، فكل ثقافة لها مزاياها ، وما دمنا الآن فى مجال الاختيار والاغتراف . فيحسن بنا أن نرسل أبصارنا إلى كل جهة ، ولا نحبس أنفسنا فى سجن ثقافة واحدة بعينها .. أو أن نتجه إلى ثقافة شعب واحد من

شعوب الغرب .. الحذر كل الحذر من إهمال ثقافة ، أو مقاطعة ثقافة !.. لقد غلط العرب القدماء غلطة هى التى جرت علينا اليوم هذه العزلة الذهنية ، وقطعت ما بيننا وبين « أوربا » من معابر ومسالك ، — تلك هى مقاطعتهم قديما لثقافة اليونان والرومان !.. فلو أنهم نقلوا واتصلوا بكل آداب الإغريق والرومان ، وحذقوا كل فنونهم ، و لم يهملوا لونا واحدًا من ألوانها ؛ و لم يغفلوا فرعا من فروعها ؛ — لكان قد حدث اليوم العجب : كانت الحضارة العربية الآن هى الأساس المباشر لكل ثقافة الغربيين الحاضرة، ولكانت هى التى حلت لديهم محل الثقافة اللاتينية وزادت عليها روحا أخرى ، هى روح الشرق .. لو أن هذا حدث — وليته حدث — لكانت حضارة « أوربا » فى صورة أروع مما هى عليه الآن وأعمق !.. كلنا يعلم أثر بعض الفلاسفة العرب ؛ أمثال : « ابن رشد » و « ابن سينا »، ممن نقلوا الفلسفة الإغريقية وفسروها !.. لقد كان لهم الفضل على « أوربا » فى القرون الوسطى .. والأوربيون يعترفون بذلك الفضل ، ويشيدون به .. ويقولون عن أولئك الفلاسفة العرب : إنهم كانوا بمثابة الجسر الذى نقل إليهم آراء « أفلاطون » و « أرسطو » .. ولكن الفلسفة ليست سوى فرع واحد من فروع الثقافة !.. فكيف لو أن العرب وأدباء العرب كانوا هم الجسر الكبير الكامل الذى ينقل الثقافة الإغريقية بفنونها ، والرومانية بأصولها !.. وقد أضافوا إليهما مما فى جعبتهم من عبقرية الروح الشرقى وحيوية الذهن العربى ؟.. هذا هو الذى يدفعنى إلى تنبيه الشباب فى بلادنا ؛ إلى أن يلتفتوا اليوم إلى كل ثقافة ، وأن يعنوا بكل حضارة ؛ لعلهم يتاح لهم فى مستقبل الأيام أن يخرجوا للعالم مدنية جديدة تفوق كل مدنية موجودة !

شمس الشرق

آن الأوان ، فى هذا العصر ، للقضاء النهائى على فكرة الاستعمار ، والسيطرة بالقوة على الشعوب والأفكار — لا للسبب المعروف وحده ، من أن ذلك يتعارض مع مبادئ الحرية ، والعدل ، وحقوق الإنسان ،— بل لأمر آخر أشد خطرًا على الحضارة البشرية وأعمق أثرًا !..

إن سيطرة الغرب على الشرق اليوم ، لا تكتفى بالإخضاع المادى والاقتصادى !.. إنها تشمل أيضًا الإخضاع الروحى — الشعار اليوم : « من يحتل أرضك يحتل فكرك ، ومن يسلب بلدك يسلب روحك ! »..

« أمريكا » لا تقف فى « اليابان » عند حد الاحتلال العسكرى ، إنها تريد أن تفرض عليها تفكيرًا اجتماعيًا ، وتلبس ذلك الروح الشرقى عقلية أمريكية !.. هى تزعم أنها تمدن « اليابان » !..

وبريطانيا فى الشرق الأوسط والهند ، وفرنسا فى شمال إفريقية !.. عين الخطة والطريقة !.. وليس الباعث فى كل الأحيان إصبع الاستعمار وحدها ، ولكن وجود غالب ومغلوب يؤدى حتما إلى تغلب روح على روح ، وفكرة على فكرة ، ليتلاشى المقهور فى القاهر !..

ما النتيجة،لو أدى الاستعمار الغربى إلى محو الشرق ، بروحه ، وتفكيره ؟.. ماذا يحدث للدنيا ، إذا فتحنا أعيننا ذات صباح ، فلم نجد « الشرق »، ووجدنا الغرب وحده ؛ بشمسه ونوره وناره ؟!..

إن الذى سيحدث معروف وإن طال الأمد !.. إن شمس الغرب الفاترة الباردة الشاحبة العجوز لا بد أن تغرب يومًا، وأن يحل الظلام فى الأرض ، فمن أين تطلع مرة أخرة فتية قوية ؟.. إذا لم يكن فى الأفق شرق !!..

أخطأ فكرة فى ذهن الغرب اعتقاده أن « الحضارة الغربية » هى كل شىء .. إنها عقيدة طفل ، يرى شمس العصر المائلة فوق البحر ، وهاجة ساطعة ، فيحسب أنها فى السماء مسمرة ، وفى الفضاء مثبتة !..

شمس الغرب غاربة لا محالة !.. متى ؟..

يوم تنتهى « الطريقة العقلية » إلى نهايتها الطبيعية !.. إن الغرب يستخدم الطريقة العقلية ، كالطفل الذى يلهو بحبل « الديناميت » !.. لقد أوقد طرفه ، وترك ناره تجرى فيه ، وهو فرح طروب مزهو فخور لذلك الوهج والنور يجرى ويسرى ، كأنه انتصار ، تلو انتصار لا يريد أن يقفه لحظة ، لينظر فى نهايته ، ويتأمل آخرته : إنه ثمل بالنور الجارى السارى . ولن يفيق حقًا ، ولن ينبه إلا على صوت الانفجار ، وحلول الدمار !..

أيها الغرب !.. العب بحبل تفكيرك ما شئت ، ولكن أبق على الشرق قليلا ، واترك له بعض أنفاسه ، ودع له بعض روحه ، فهو الذى سيقوم غدا ، زاحفا على ركبتيه الخائرتين ، من ثقل نيرك ، مادًا إليك يديه الضعيفتين ، من أثر أغلالك ، لينتشلك من المحنة ، وينتزعك من الفناء !..

الحضارة روح

عندما انهارت « اليابان » أمام القنبلة الذريـة فى الحرب الأخيرة سألت نفسى :

هل انهارت « اليابان » حقًا ؟.. أو الذى انهار فيها هو الحديد ؟.. هل هزمت « اليابان » حقا ، أو أنه لم يهزم فيها غير العارية التى استعارتها من الغرب ؟.. أما الجوهـر الذى ينبع من نفسها ، فهو باق لا ينهار ولا يهزم !.. وهو وحده المنبع الذى تصدر عنه كل القوى المتجددة ، التى لها الغلبة آخر الأمر .. القوى الميكانيكية التى ارتدتها « اليابان »، على غرار أردية الغرب هى فى الواقع التى كسرت وسحقت وهى وحدها القابلة للكسر والسحق والتحطيم !.. قوة المادة مهما تكن عظيمة الخطر ، فهى موقوتة الأثر !.. وهى سهلة المنال سريعة الزوال !.. هى لك اليوم ، ولغيرك غدا ، هى لمن يدفع فيها الثمن الأبهظ ، لأنها تشترى بالمال !.. لقد انتصرت « أمريكا » لا لفضائل فى جوهرها ، ولا لمزايا فى روحها ، ولكن لذهب المموِّلين الذى استطاعت أن تشترى به العلم والعلماء ، وتحصل به على مواد الفتك وخبرة الخبراء .. وهى بالمال تقتنى كل شىء .. تقتنى كل مظاهر الحضارة التى تبهر بها العالم .. تقتنى كل الأثواب البراقة ..

ما من إنسان عريق الأصل ، لم يجد فى « أمريكا » سوقا لعراقته ، ولا لصاحب تجاريب لم يبع تجاريبه هناك ، ولا لصاحب اسم لامع فى أدب ، أو علم ، أو فن ، لم تنصب لـه الأشراك الذهبية ، ليلصق اسمه بالجنسية الأمريكية !.. بلاد لم تصنع الحضارة بما فيها ، فاشترتها بمالها الذى جمعته سريعا بشتى الوسائل !.. « أمريكا » بلد « السينما » .. وهى كلها دولة مقامة على طريقة « هوليوود » : واجهات من الكرتون ، وجدران تناطح السحاب من الأسمنت ، وأناس يتحركون ويتكلمون ويتصرفون ؛ طبقا لرواية موضوعة ألفها

مؤلف أجنبى عريق !.. أمة أوجدتها الظروف ، وأنشأها المال ، ومن الممكن أن تزيلها الظروف ، أو يتخلى عنها المال ؛ فتختفى من الوجود ، دون أن يخسر الوجود شيئا أو يحس لفقدها أثرها ، أو ينال من بعدها تراثا ذاتيًا أو ميراثا خاصًا !.. فالحضارة بخير بها وبدونها ؛ لأن العلم : بأساتذته ، وتقاليده وماضيه ، وتاريخه ، وتجاريبه ، وكذلك الفن ، وكذلك الأدب ، وكذلك الفلسفة ، وكل شئون العقل والفكر ، وكذلك الدين ، وكل شئون القلب والروح ؛ — موجودة من قبل « أمريكا » ومن بعدها !.. جذورها ممتدة فى غير تلك البلاد ، ويمكن أن تورق ، وأن تثمر دون حاجة إلى إغراء أو ضيافة ..

كلا !.. ليس المال كل شىء ! وإن استطعت به أن تشترى « مظهر » الحضارة ، فلن تستطيع أبدًا أن تشترى « روح » الحضارة !..

روح الحضارة يبزغ مع الشمس من قديم فى أرض أمة !.. يبزغ مشاعر وإحساسات ، قبل أن يظهر وسائل وماديات .. إنه الإحساس الأول الذى لا يشترى بروح الله فى أعاليه ، وفى الكائنات !.. والشعور الأول — الذى لا يقتنى — بروح الجمال فى المخلوقات !.. إنه ذلك الذى يجعل من الإنسان إنسانا !.. إنه ذلك الذى يشعر الإنسان بإنسانيته — مباشرة بدون وسيط أجنبى — شعورًا ينبت معه فى أرضه ووطنه منذ القدم بخصائص تلك الأرض ، وطابع ذلك الوطن !..

وقد ينشأ ذلك الشعور مع عقيدة سماوية ، أو فلسفية أرضية ، أو متعة فنية !.. ربما كانت زهرة من أزهار بلد من البلاد ، يتضوع معها — فى نفس المحب لها — أريج ذكى لحضارة بشرية حقة !..

إن لم يقم دليل على حضارة « اليابان » غير حب أهلها للأزهار ، لكفانا ذلك !.. أصغوا إلى هذا الحديث ؛ لشاعرهم « أكاكورا » :

« ... عرفت الإنسانية شعر الحب وقتما عرفت حب الأزهار !.. إن اليوم الذى قدم فيه أول رجل بطاقة الزهر الأولى إلى محبوبته ، هو اليوم الذى ارتفع فيه

الإنسان فوق مستوى الحيوان ،ـــ لأنه بارتفاعه عن حاجات الطبيعة المادية ، أصبح إنسانا .. وبإدراكه الفائدة الدقيقة المتسامية لما هو « غير مفيد » ، حلق فى سماوات « الفن » !. فى الأفراح والأحزان . الأزهار هى لنا الصديق الأمين ، فنحن نطعم ، ونشرب ، ونغنى ، ونرقص ، وهى معنا !.. ونحن نحب ، ونحن نتزوج ، وهى معنا !.. ونحن نمرض فى فراشنا وهى معنا ، بل نحن لا نجرؤ أن نموت إلا وهى معنا !.. وحتى عندما نرقد فى التراب ، فليس سواها يأتى أخيرًا ، لتبكى بقطرات نداها فوق قبورنا !.. كيف نستطيع العيش بغيرها ؟.. أهناك أقسى من أن نتصور العالم « أرملا » يحيا بدونها ؟!.. لكن مهما يكن ذلك مؤلما فإن من العبث أن نخفى عن أنفسنا الواقع : نحن ـــ برغم دنونا من الأزهار ـــ لم نرتفع كثيرًا فوق مستوى الحيوان !.. ما من « حقيقة » راسخة فى كياننا دائمًا غير الجوع !.. ما من شىء مقدس عندنا غير شهواتنا .. إلهنا عظيم ولكن نبيه فى نظرنا هو الذهب ، من أجله ، وفى سبيل قرابينه ، ندمر الطبيعة برمتها !.. نحن نفخر بأننا أخضعنا « المادة » ولكننا ننسى أن المادة هى التى أخضعتنا وجعلتنا لها عبيدا !.. يالفظاعة ما ترتكب باسم الثقافة والإحساس والفكر !!.. حدثينى أيتها الأزهار اللطيفة !.. يا دموع النجوم !.. أيتها الناهضة فى الحديقة ، تترجح رءوسك تحت رشفات النحل ، وقبلات الشمس ، ولمسات الندى !.. أتعرفين ما ينتظرك غدا من مصير رهيب ؟! » .

الحضارة فى دم الإنسان

روت الأخبار أخيرا أن جماعة ــ لا يزيد عددهم على العشرين من رجال ونساء ــ تمثل لهم شبح الحرب القادمة، وأدركوا مبلغ الدمار والعذاب اللذين سيحيقان بالعالم المتحضر يوم تقوم تلك المجزرة البشرية التالية ، وما سيكون فيها ، من قنابل ذرية وصاروخية ولاسلكية . فأخذهم الروع ، أو القلق ، أو السخط ، أو الضجر ، فآثروا أن يتركوا هذا المجتمع الإنسانى الذى يسمونه متحضرًا ، وأن ينطلقوا إلى جزيرة صغيرة نائية فى مجاهل المحيط الهادى ، يعيشون فيها بقية حياتهم عيشة بسيطة فطرية ، لا ينقلون إليها شيئا من المبادئ الاجتماعية التى قام عليها العالم المتمدن ، فلا ملكية تثير النزاع ، ولا قيود تحد من الحرية !.. فالنساء مشاع ، والرجال مشاع ، والطعام مشاع !.. فلا زوجة ، ولا أسرة ، ولا دين ، ولا عقائد !.. وأغلب الظن أنهم لم ينقلوا أيضًا ، إلى تلك الجزيرة كتبًا ، ولا تحفًا ، ولا مظهرًا واحدًا من مظاهر الفكر ، أو الفن ؛ــ حتى لا يتسرب إلى وطنهم الجديد بذرة من العالم القديم ، قد تنبت لهم نوعا من التفكير يردهم إلى المشكلات الأولى ، ويفسد عليهم هذه الحياة التى أرادوها صافية كحياة الأطهار من الأطيار !..

* * *

أمثل هذا الحلم يمكن تحقيقه ؟.. فى رأيى أن هذا يتوقف على مدة الحلم ومداه ؛ فالحلم لا يمكن أن يحتفظ بصفاته الخيالية إلا وقتًا قصيرًا ، فإذا طال أمده انقلب إلى واقع ، واقترن به من الظروف والعناصر ما يخرجه عن صفاته ، ويحوله عن اتجاهاته !..

فهذا النفر ، من الرجال والنساء يمكن أن يحققوا حلمهم هذا لو اقتصر الأمر عليهم ، فعاشوا ما عاشوا؛لا ينسلون ولا يزيدون، يمضون أيامهم على هذا الوضع

الذى اختاروه واصطلحوا عليه ، تمر بهم الأيام وهم فى هذه الجزيرة ؛ كأنهم فى رحلة خلوية طويلة الأمد ، إلى أن يموتوا وينقرضوا ، ويدفنوا تحت أوراق الشجر الذابلة ، وتدفن معهم قصتهم الطريفة !..

أما الوجه الآخر من الأمر فهو أن يتركوا نسلا ويخلفوا ذرية ، وهنا تبدأ قصة الإنسانية تكتب من جديد ؛ فهذه الذرية سيكون فيها القوى والضعيف ، والجميل والقبيح .. بل سيكون فيها الأقوى والأجمل : ممثلين فى صورة فتى مفتول العضلات ، وفتاة رائعة القسمات !.. عندئذ يظهر النزاع على الجميلة بين الرجال ، فلا يلبث أقواهم أن يظفر بها ويستأثر ؛ وبظهور الاستئثار تظهر الملكية ، وما إن يبدأ الرجل يملك المرأة حتى تخلق « الأسرة » ، وما إن يكون كل رجل أسرته ، ويكثر صغاره ، حتى يشعر بتبعته ، فيخص ذويه وحدهم بثمار جهده وعمله .. وبتعدد الأسر وتعدد المصالح ، يحتاج الأمر إلى نظام وقانون . ثم إلى من يفرض هذا النظام ويطبق هذا القانون . وعندئذ يظهر رئيس القبيلة ، أو زعيم الجزيرة ، أو كبير هذا المجتمع الصغير ، الذى بدأت نواته فى التكوين ، وبظهور النظام والقانون اللذين يحددان العلاقات بين أهل الجزيرة ، يظهر ما سيسمى بعدئذ بالعرف والتقاليد !.. ثم تأخذ النوازل الضرورية ، والنكبات التى لا مفر منها ، تحل بأهل الجزيرة ؛ فهذه رياح هوج تعصف بأكواخهم ، وصواعق من السماء تحرق أشجارهم !.. وهذا رجل سيىء الطباع مكروه بين العشيرة يغرق طفله !.. وذاك رجل حسن الخلق محبوب ينال من صيد البحر خيرا غير منتظر !.. هنالك إذن قوة خفية تنظر إليهم من خلال السحب ، أو من أعماق البحر ، أو من أغوار الغاب ، تثيب المحسن وتعاقب المسيء !.. بهذا الخاطر الذى يبرق فى ضمير أحدهم يولد الدين ، وبميلاد الدين أو العقيدة الإلهية يظهر من أهل الجزيرة من ينقطع إلى التفكير فيه ومزاولة شئونه .. إنه الكاهن .. يهرع إليه المنكوب من الناس ، يسأله رد القضاء الخفى أو الرحمة فيه ؛ فيخفف عنه الكاهن ويعزيه .. ويتفنن الكهنة فى إيجاد الوسائل التى يؤثرون بها فى نفوس

الناس ، حتى يكون لهم أثر محسوس فى التعزية والتلطيف والتخفيف !.. فيبتدعون الرقى ، والتمائم ، والتعاويذ ؛ فى صورة كلام منغم موسيقى موزون ، يمس النفس ويسر الأذن ؛ وبهذا يولد الشعر !.. ثم فى صورة تماثيل وتهاويل ، تحدث الروعة فى القلب والبهرة للعين ؛ وبهذا يولد الفن !..

وجدت إذن نواة حضارة ؛ من مجتمع ، وقوانين ، وعرف ، وتقاليد ، ودين ، وفن !.. فلنترك بعد ذلك الزمن الأكبر ، يتولى على مدى الأجيال والقرون ، تنمية هذه النواة ، إلى أن تصير شجرة باسقة لحضارة هائلة ، تنتج بذورها القنابل الذرية ، والصاروخية ، واللاسلكية !.. ويهرب منها نفر ، يتبرأ منها قائلا :

— إلى حياة الفطرة .. إلى جزيرة نائية لا تنبت فيها مدنية أبدًا !..

* * *

أيها الإنسان .. أين تهرب ؟.. إن ما تفر منه تحمله فى دمك !.. حيثما ذهبت وتوالدت خرجت من صلبك حضارة مضيئة مدمرة كالشهب .. هكذا خلقت !.. خلقك الله حقًا من تراب الأرض الطيبة .. ولكن مسك بعدئذ إبليس ، فصرت شهابا ، لا يهدأ حتى يبرق ، ويحرق نفسه ، وهو يهوى فى أجواز الزمان !..

الإنسان والغريزة

قال لى صاحبى ، ونحن على مائدة الطعام :

ــ إنى أنتظر موسم « السمان » بصبر نافد فى كل عام !..

ومزق كتف « السمانة » بيده والتهم لحمها بلذة ونهم !.. فقلت له وأنا أصنع مثل ما يصنع :

ــ « السمان » أيضًا يفرح بهذا الموسم !.. لأنه فى نظره موسم السياحة إلى المشاتى !..

فقال :

ــ المشاتى ؟!.. يا له من أحمق !.. لو علم أن هذه المشاتى ليست سوى بطوننا ؟..

فقلت :

ــ لو علم ؟.. ومن قال لك إنه لا يعلم ؟!..

فقال بنبرة دهشة :

ــ ماذا أسمع ؟.. أتراه يعلم ؟!..

فقلت :

ــ و لم لا ؟.. من المحتمل جدًا أنه يعلم ..

فقال :

ــ يعلم أنه يأتى إلينا كل شتاء للسياحة ، فنتلقاه فى بطوننا ؟!..

فقلت بهدوء :

ــ شأن كل سائح !.. أيجهل أولئك الذين يأتون إلينا كل شتاء للسياحة ، أننا سنتلقى ما معهم بجيوبنا ؟!..

فقال :

ــ طبعا ، كل سائح يأتى وهو يعلم أنه سينفق ماله ، ولكن « السمان » لا يمكن أن يعلم أنه يأتى لينفق حياته !..

فقلت :

ــ ثق أنه يعلم .. ومع ذلك يأتى !.. إن العلم بوجود الخطر لا يمنع من المغامرة والسفر !..

فقال :

ــ إنه إذن طائر قليل العقل !.. لقد كان ينبغى له أن يعلم من قديم أن رحلته إلى المشاتى هى موسم فناء له ؛ فما لا شك فيه أن بعضا من « السمان »، يستطيع فى كل عام ، أن يفلت من الشباك ، ويعود سالما من حيث جاء !.. أمن المعقول أن هذا البعض يظل على غفلته وحمقه وعماه ، لا يتعظ بما أوشك أن يقع فيه من هلاك ؟.. ولا بما رآه من هلاك أقرانه ؟.. فيمضى فى ركوب هذا الخطر فى مطلع كل شتاء ، ناسيا ما سبق أن نزل بفصيلته من محن ؟!..

فقلت باسما :

ــ أتريد من هذا الطائر أن يكون أكثر عقلا من الإنسان ؟.. إن للإنسان شباكا منصوبة ، فى جوفها الهلاك لفصيلته البشرية : تلك هى الحروب ، يفلت منها فى كل مرة ، وقد فنيت من نوعه الملايين ، وكان ينبغى له أن يتعظ ويقول : « لن أعود إليها أبدًا .. لن ألقى بفصيلتى الآدمية فى هذا الهلاك مرة أخرى .. كفى ما نزل بها من محن .. » ولكن الذى يحدث غير ذلك : إنه يمضى فى الإلقاء بنفسه ونوعه فى هذا الفناء ، المرة بعد المرة ، ناسيا ما سبق أن وقع له !.. وهو فى كل مرة يجد من ألوان الدمار وقوته ووسائله ، أضعاف ما كان يجد !.. إن شباك « السمان » على الأقل هى دائما : الشباك !.. لم تتغير منذ قرون !.. ولكن شباك الإنسان من الحروب تتغير أساليب هلاكها ، ويتسع نطاق ضررها بسرعة تذهل العقل وتحير اللب ، ومع ذلك لا حديث للإنسان إلا عن موعد رحلته القادمة إلى الحرب الضروس التالية !..

فقال صاحبى بلهجة الاقتناع :

ـــ حقا .. حقا .. إن الإنسان لأقل عقلا من « السمان » !.. ولكن ..

فقلت له :

ـــ ولكن ماذا ؟..

فقال :

ـــ ولكن إلى متى ؟.. متى يكون فى رأس الإنسان عقل ؟.. متى يكف عن الإلقاء بنفسه فى ..؟

ومده يده إلى « سمانة » أخرى محمرة فى الطبق ، يريد أكلها .. .

فقلت له :

ـــ إذا اختفى « السمان » يوما من هذه الأطباق ، ولم تعثر عليه فى الأسواق ، وقيل لك إن موسمه جاء وهو لم يجىء ، وإن الأشراك نصبت له فتركها منصوبة تنتظر بغير أمل ؛ـــ فاعلم أن شيئا قد حدث فى مجرى الكون ، وأن الطبائع قد تغيرت ، وأن الإنسان هو الآخر قد عقل !..

الحضارة تتزين بالفن

وقفت فى صف طويل أمام شباك التذاكر فى قصر شايو ؛ فهناك حفلة موسيقية تؤدى فيها بعض آثار « بيتهوفن » !.. وأنا ما أزال على عادتى القديمة ، لا يخطر ببالى أبدا أن أحجز مكانى مقدما !.. لا بد لى من أن أقف بالأبواب ، وأحشر بين الجموع وأنال مكانى بالجهد والعرق !.. لكأنى بهاتف داخلى يهمس لى دائمًا :

« الثواب فى الفن أيضًا على قدر المشقة ! » .

ولكن أمامى فى الصف مئات ، وخلفى أيضا مئات !.. وكل شخص يحرص على الشبر من الأرض الذى عليه يقف ، ويتطلع إلى الشبر من الأرض الذى إليه يزحف !.. وحركة الصف ضعيفة ، ولهفة الناس عنيفة ، وإذا بى أسمع الرجل الذى خلفى يخاطبنى ، بلغة فرنسية ، تشوبها لكنة أمريكية :

ـــ من فضلك احجز لى مكانى فى الصف ، حتى أتكلم فى « التليفون » وأعود !..

فألتفت إليه متعجبا :

ـــ أحجز لك مكانك فى الصف ؟.. أنا ؟!.. بأى سلطة ؟.. إذا خرجت وتركت الصف فكيف أقنع السيل الذى خلفك ؛ بأن موضع قدميك محجوز لك ؟..

ـــ شكرًا يا سيدى !.. فلأبق إذن !..

ـــ نعم ابق واحرص على حقك بنفسك !.. نحن فى هذا القصر عينه الذى اجتمعت فيه هيئة الأمم .. وكم ضاعت فيه حقوق لبعض الشعوب .. على الرغم من نضالها وصياحها ووثائقها وبراهينها !..، أفتستبعد أن يذهب فيه حقك .. هذا الذى تريد أن تعهد به إلى عناية غيرك ؟!..

وتركته والتفت إلى شأنى ، وحجزت مكانى ، وانحدرت إلى قاعة الموسيقى من ذلك المبنى الكبير .

* * *

كان لا بد دون بلوغ هذه القاعة من هبوط إلى عمق عظيم فى باطن الأرض ، لم يجشمنا تعبًا ، فقد كان السلم الموصل إليها كهربيًا « ميكانيكيًا »، يكفى أن تقف على درجته الأولى حتى ترى الدرجة ذاتها قد تحركت بك ، كأنها بساط الريح — فإذا أنت فى القاع السحيق فى طرفة عين !.. عندئذ بدا لنا جلال فن العمارة يشهد بالمقدرة والبراعة !.. ما هذه الأروقة العظيمة ، التى لا نهاية لها ، تقوم فيها الأعمدة كأنها الأشجار الباسقة وتتخللها تماثيل آلهة الحب والفن والجمال !.. وتنتشر بينها أضواء لا ترى مشرقها ولا مغربها ، وتزين جدرانها تصاوير ولوحات غاية فى الذوق والإبداع ، وتعترضها درجات سلم طويلة عريضة كأنها الشلالات صاعدة من هنا ، هابطة من هناك !.. فإذا دخلت بعدئذ قاعة الموسيقى نفسها ، وجدت مكانًا رحبًا يتسع لأكثر من ألف مقعد مكسو بمخمل ناعم ، فى لون الأرجوان .. ووجدت المسرح فى أحضان أعمدة من البرونز المصبوب ، أو هكذا يهيأ لك !.. كل ذلك فى فخامة وأى فخامة ، وبساطة وأى بساطة !.. لكأنى أمام روعة هذا المكان فى رحاب هيكل من هياكل الفن المصرى القديم !.. ما من شك عندى فى أن هؤلاء القوم قد تلقوا هذا الدرس الفنى الذى أراه اليوم عن آثارنا نحن القديمة !.. ولكأنى بهم وقد هبطوا بتحفتهم تلك إلى الأعماق ، ودفنوها تحت الثرى حية متألقة إنما يطمعون فى أن يطاولوا الزمان كما طاولناه .. فإذا انطوى العالم ، وكشف عن هذا المكان كاشف فى مستقبل الأيام ؛— استطاع أن يقول فيهم بعض ما قيل فينا ..

* * *

على أنى — وقد هدأ عجبى — طفقت أسائل نفسى : أهم الفرنسيون حقًا الذين صنعوا ذلك ؟.. ومن أين لهم المال ، وقد خرجوا من المحنة منذ قليل ؟..

وإذا كان فى يدهم بعض المال ، أفيضيعونه فى تشييد هذه « القاعات » التى نسميها نحن فى « مصر » اليوم « كاليات » ؟..

* * *

واتخذت مقعدى ، والتفت إلى جوارى ، فإذا الشخص الذى كان خلفى هو جارى !.. وابتسم لى وحيانى ، وقدم نفسه إلىّ :— فإذا هو محام أمريكى من « بلتيمور »، جعل يتأمل المكان بإعجاب ويقول لى :

— حقًا .. إن « الثقافة » بالمعنى الذى يفهمه الأوربيون هنا ، شىء لا تعرفه بعد « أمريكا »!..

فقلت له معزيا :

— ولا « مصر »!.. أقصد « مصر » اليوم !..

فقال لى دهشا :

— « مصر »؟ ولكن « مصر » عريقة فى الثقافة !.. إنى لن أنسى — يوم احتفلنا فى « أمريكا » — بعيد جامعتنا « هارفارد » وجاءت الوفود من ممثلى جامعات العالم تحضر الاحتفال .. لقد كان ممثل جامعتكم « الأزهر »، يمشى فى المقدمة مختالا فخورا ، مباهيًا بأنه يمثل أقدم جامعات الدنيا .. وقد كنا — نحن الأمريكان — ننظر إليه متضائلين منكمشين ، فأين جامعتنا « هارفارد »، الصبية الحديثة السن ، من جامعة « الأزهر » الجليلة العريقة فى القدم ؟!..

قال المحامى الأمريكى ذلك ، فشعرت فى الحال بشىء من الزهو فى أعماق نفسى ..

ولكنى لم ألبث أن تحسرت وقلت فى ضميرى : ما أعظم التراث الذى نملكه ، وما أثمن الكنوز التى ننام عليها .. نعم !.. ننام عليها ونخفيها تحت تراب إهمالنا وجهلنا وحمقنا .. بينما تهب أمة مثل « فرنسا » المتهدمة ؛ فتشيد من جديد — بمالها القليل — تحفا تعرضها للعالم ، فتربح مجدا ومالا .. إنها تعرف بذكائها وفطنتها أن كل ما ينفق فى هذا السبيل المجدى ، يعود بالكسب المادى قبل

الأدبى !.. أتدرون كم من السائحين الأمريكان يزورون « باريس » فى هذا الصيف ؟!.. يقدرون تعدادهم بمليون ونصف مليون !.. إنهم ينفقون فى فرنسا ملايين الدولارات !.. لماذا ؟.. لأن فرنسا عرفت كيف تنفق المال أولا ؛ ليدخل جيوبها المال بعدئذ !.. لقد فهمت أنه يجب أن تعرض على العالم شيئًا ، ليأتى العالم إليها بذهبه .. لقد شيدت ، وخلقت وعرضت وجعلت من باريس « وجهة » بلورية للدنيا ؛ فجاءت الدنيا إلى باريس !..

* * *

أما فى مصر .. فوا أسفاه .. القاهرة « باريس » الشرق ! وعاصمة إفريقية . وملتقى الحضارات !.. كل هذه الألقاب المجيدة ، ولا نجد فى شوارعها مبنى واحدا فخما ضخما يقوم بأعمدته؛ كأنه هيكل من هياكل الحضارة أو الفن !.. اللهم إلا مبنى « المحكمة العليا »، وكم فيه من عيوب !..

القاهرة القائمة فى أرض الآثار الفنية . ترى فيها التماثيل البديعة ملقاة فى حقول الصعيد . أو دفينة فى بطون الرمال — على حين أن ميادينها فارغة خاوية . إلا من المراحيض العامة !..

كل ميدان — وإن صغر — فى باريس ينهض فيه تمثال للزينة ، أو لتخليد الذكر !.. وما أكثر الميادين هناك !. فى كل خطوة ميدان فسيح وحديقة غناء !.. لكأن الأرض فى باريس بثمن التراب فى نظر مجلسها البلدى !.. كل ما يهمه هو أن يجمل منظر العاصمة ، وأن يمتع سكانها وضيوفها بالهواء الطلق والمنظر الحسن !..

* * *

ولكن الأرض فى القاهرة بثمن التبر — فى نظر أولى الأمر فينا — يستكثرون على القاهرة حسن المنظر ونقاء الهواء ؛ فيبيعون من أرض الميادين العامة للأفراد والشركات ، كى تزدحم بالحوانيت والعمارات !..

* * *

نحن نشوه عاصمتنا . وهم يجملون عاصمتهم .. نحن نهدم مجدنا القديم ، وهم يصنعون لأنفسهم مجدًا جديدًا :

اللهم احمنا من أنفسنا ، فإن أعدى عدو للإنسان هو نفسه !..

الباب السابع

الأدب والمسرح

المسرح هو أقصر طرق الأدب للوصول إلى الجمهور ، ولكنه أكثر الطرق امتلاء بالعوائق والصخور ..

فن المسرحية

للمسرحية عندى اعتبار خاص ؛ ذلك لأن الحوار ــ بما فيه مـن إيجاز وتركيز ــ هى القالب الأدبى القريب إلى سليقتى المحبة للنظام ؛ فالفن عندى نظام ، والنظام عندى هو الاقتصاد ، أى البيان بلا زيادة ولا نقصان !.. ربما كانت هذه الطبيعة عندى ميراثًا قديما ، من أثر رواسب شخصيتنا العتيقة ؛ فالعرب كانوا يرون البلاغة فى الإيجاز ، ومصر القديمة كانت ترى البراعة الفنية فى البناء والتركيز : فالهياكل الكبرى آية من آيات التصميم الهندسى الدقيق ، والتماثيل العظيمة آية من آيات التفكير المركز ببساطة فى الحجر المجرد !.. من كل ذلك عنيت دائمًا بقراءة أعلام الأدب المسرحى ، لا قراءة متعة ولذة واستطلاع فقط ، بل قراءة درس وتأمل وفحص ؛ فكنت أقضى الساعات أمام نص من النصوص ، أقلب فيه منقبًا عن أسرار تأليفه ومفاتيح تركيبه ، مستخلصًا ــ بنفسى ولنفسى ــ ملاحظاتى فى طرائق التأليف المسرحى ، ذلك الفن العسير ، الذى أحببته أيضاً لأنه عسير ، فما أزهد فى شىء زهدى فى الفن السهل الذى لا يحتاج إلى مؤونة وتجربة وغوص ودرس !.. وما أبجل شيئا ــ تبجيلى للفن الذى يصمد ، كالصخرة فى طريق الفنان ، فما يزال به يعالجه : بالصبر الطويل والكد المضنى ،ــ حتى يفجر منه الماء السلسبيل !.

ذلك رأيى فى المسرحية التى هى ــ فيما أعتقد ــ كالقصيدة الشعرية،نوع من الأدب صعب دقيق،لأن المتعرض له يجد نفسه أمام طائفة من القيود،قيــود صارمة،بل عوائق قاسية تجعل نصيبه من حرية العمل قليلا،فهو ليس حرًا فى اختيار الموضوع،ليس حرًا فى طريقة المعالجة،ليس حرًا فى الحيز الذى يصب فيه فنه،ولا فى الوقت الذى يعرض فيه عمله!..أما الموضوع،فليس كل موضوع يصلح للتأليف المسرحى؛كما أنه ليس كل موضوع يصلح للنظم الشعرى!..فكما

أن هنالك موضوعات ، لا تستطيع أجنحة الشعر حملها ، دون أن يبدو عليها التكلف والتثاقل والترنح تحت وقر طبيعتها الأرضية ، فمثلا : ليس للشعر أن يتكلم فى أسعار القطن ، أو أن يبحث فى غطاء العملة ؛ كما يسهل على النثر أن يفعل ؛ــ كذلك التأليف المسرحى ، لا يمكن أن يعالج موضوعا يتعذر إظهاره على مسرح محدود ، بواسطة ممثلين من الآدميين فمثلا ليس للمسرحية أن تعالج موضوعًا وصفيًا تلعب فيه الجمادات والنباتات والعجماوات دورًا أهم من دور الإنسان ، فهذا مما يسهل على القصة المروية الوصفية أن تقوم به ومما يتعذر على القصة التمثيلية أن تظهره . لا بد إذن فى المسرحية من اختيار الموضوع الممكن إبرازه على المسرح الآدمى !..

على أن الصعوبة الكبرى ليست هنا ، إنما هى فى العثور الموفق على الموضوع الجيد ، فقد يتوفر للمؤلف المسرحى كل عناصر النجاح : من موهبة ومقدرة ، وحسن استعداد ، وسعة حيلة ،ــ ولا يسقطه غير الموضوع الردىء على حين أن الموضوع الجيد قد يرتفع بمواهبه إلى المستوى الذى يخرج أحيانًا الأثر الخالد ، لذلك اعتبر بعض النقاد أن التوفيق إلى الموضوع الجيد ، هو ــ للشاعر والمؤلف المسرحى ــ اكتساب لنصف الموقعة !.. فى حين أن كل موضوع ، يمكن القصصى الراوية من حوادثه وجمع تفاصيله ،ــ يستطيع أن ينجح خير النجاح بمجرد وصفه وحكايته ، دون اعتماد إلا على جودة نثره ، وصدق تعبيره ، وبراعة سرده ..

فالموضوع الجيد فى المسرحية ضرورة من ضروراتها ، شأنه فى ذلك شأن النغم الجيد فى القطعة السمفونية .. ففى الموسيقى ، تعتبر النغمة الجيدة ؛ هى تلك التى تحمل فى جوفها توليدات عدة لألحان موفقة فما يكاد يعثر عليها الموسيقى ؛ــ حتى يجدها كالحبلى بالتخريجات ، التى يستطيع أن يملأ بها حركة سمفونية بأكملها ، فى حين أن النغمة الرديئة تولد صماء جوفاء ، عاقرًا عقيما ، يحاول الموسيقى عبثًا أن يستخلص منها شيئًا .. كذلك الموضوع المسرحى

الجيد ، هو ذلك الموضوع الغنى الذى ما يكاد يلمسه المؤلف حتى يفيض بين يديه بالمواقف المتجددة ، والأفكار الطريفة ، والشخصيات المتنوعة ، حتى ليحس معه أنه ينمو بالمعالجة ، ويكبر ويزدهر ؛ كالشجرة المباركة التى تتهيأ للإثمار الكثير !.. فى حين أن الموضوع الردىء ما يكاد يفتح بابه حتى يغلق ، وإذا حاول المؤلف إرغامه وحمله على ما لا يستطيع بطبعه ، ظهر العنت فيه والتصنع والافتعال ؛ كالقصيدة الشعرية ، التى تنظم فى موضوع ردىء سواء بسواء ، فإن القوافى تبدو فيها متكلفة ؛ كأنها منحوتة من صخر ، والمعانى مكسررة جوفاء ؛ كالطبل !..

فإذا اختار المؤلف المسرحى موضوعه الصالح فإن قيدًا آخر سرعان ما يظهر له ذلك هو القيد المفروض على حرية المعالجة فهو لا يستطيع أن يعالج موضوعه بالحرية التى يعالج بها القصاص العادى قصته المرسلة .. فليس له أن يجرى حوادثه فى مختلف القوالب التى تتيحها القصة المرسلة لمؤلفها ، مثل قالب الاعترافات أو المذكرات أو اليوميات أو الرحلات أو الرسائل ، أو قالب الرواية على لسان صديق أو شاهد عيان ، أو قالب الحكاية تسرد كما يريد المؤلف أن يسردها .. لا .. لا شىء من هذا يباح لمؤلف المسرحية إنه هو مقيد بطريقة واحدة وقالب واحد لا يتغير ولا ينبغى أن يتغير .. فهو فى هذا أيضا شبيه بزميله الشاعر فى إنشاء القصيدة ، والتزامه فيها بالوزن والقافية .. فهو لا يمكن أن يخرج عن قالبه التمثيلى الذى يقضى بأن تجرى الحوادث دائما من أفواه أشخاص يتحاورون ، وإذا تحاوروا فلا ينبغى أن يظهر المؤلف بينهم أو يتدخل فيما يقولون ليصف ما غمض من أحوالهم وتصرفاتهم ، فى حين أن هذا كله ممكن مباح للقصصى الراوية الذى لا حرج عنده — كلما غمض موقف — من أن يتدخل بنفسه واصفًا محللا مفسرًا ما يجرى فى رءوس أشخاصه من أفكار ، وما يحدث فى نفوسهم من انفعالات .. هنا المؤلف المسرحى مغلول اليدين مطلوب منه أن يخلق أشخاصًا دون أن تقع عليهم نقطة من مداد قلمه تفضح وجوده أو تكشف أن خلف

مخلوقاته مؤلفًا .. حديثهم — وحده فيما بينهم — هو الذى يجب أن يخلقهم .. وهذا الحديث — بألوانه المختلفة — هو الذى يميز طباع كل منهم عن الآخر !..

لهذا يتعين — على المؤلف المسرحي — أن يتخير من الأشخاص من تعقدت حياتهم إلى الحد الذى يستطيعون معه أن تكون قلوبهم موضعًا لانفعالات مختلفة ونفوسهم مظهرا لطبائع متباينة ، وعقولهم قادرة على التعبير والإفصاح .. ولقد كان مؤلفو المسرح فى القديم يتخيرون أشخاصهم من بين الملوك والأمراء وعلية القوم ، يوم كانت الثقافة وما يتبعها — من تعقد الحياة ، والمشاعر والفكر — محصورة فيهم ، فلما انتشر التعليم والتثقيف فى العصور الحديثة وشمل أهل الطبقات المتوسطة فى الحضر ، تعقدت — تبعًا لذلك . وتنوعت حياتهم وعواطفهم وعقولهم ؛— اتجه المؤلف المسرحي إلى هذه الطبقة الوسطى ينتقى من بينها أشخاصه ، وهو لهذا السبب قلما يترك الحضر ، ويتجه إلى الريف ؛ فإن عدد المسرحيات التى اتخذت من الريف موضوعًا ، ضئيل جدًا فى تاريخ الآداب المسرحية قديمها وحديثها .. وهذا راجع بالضرورة إلى أن أهل الريف ؛ بحياتهم الراتبة الهادئة التى تجرى على نمط واحد ، وبخلقهم الساذج البسيط ،— قلما يمنحون كاتب المسرحية ما يحتاج إليه من الحوادث التى تكشف عن حقائق الطباع وغرائب الأخلاق ، وما يلزمه من مدارك ، تحسن الإفصاح والتعبير عن خفايا النفوس — فضلا عن عنصر الطبيعة فى الريف ، وصلته بالناس وحاجته إلى شاعر يتغنى بجماله أو ناثر يصف ألوانه ،— أكثر مما يحتاج إلى المسرحي الذى لا يبنى عمله إلا على ألوان النفوس والطبائع والأخلاق والمدارك !..

فإذا تم لمؤلف المسرحية اختيار الموضوع وتم له حذق طريقة المعالجة ،— فإن صعوبة أخيرة تنهض له : وهى أن حرية التنقل بحوادثه وأشخاصه ممنوعة عليه ، فليس له أن ينطلق بقلمه يهيم فى كل واد كالقصصى الراوية !.. يجلس أشخاصه فى « بيت » ثم ينقلهم بعد صفحة إلى قمة جبل ، أو جوف طائرة أو ظهر سفينة !.. إن المسرحي مقيد بمناظر قليلة ، يجب أن تجرى فى إطارها المغلق كل

القصة التى يعرضها !.. هذا الحيز الضيق ، لا بد أن تتحرك فيه أعظم المآسى البشرية والمهازل الإنسانية ، وأن تحدث من الأثر فى النفوس ما تحدثه — أو ربما أكثر مما تحدثه — الرواية المروية ، التى يتحرك أبطالها فى كل صفحة أو سطر بين مشارق الأرض ومغاربها !.. ولقد جاءت السينما أخيرًا ، فأغرت الناس بهذه القدرة على عرض رواية يتحرك أشخاصها فى السماء والأرض والبحر ، بسرعة تفوق سرعة الخيال ، وتظهر المناظر الطبيعية على أجمل ما تكون بألوانها الأصلية ، وتتفنن فى تصوير الظواهر والكوارث ، كالعواصف والأمطار والزلازل والبراكين وصدام القاطرات ، واحتراق الطائرات — على أدق ما تكون من الحقيقة والواقع — مما كاد يؤثر فى حياة المسرح والمسرحية ، بل مما أدى إلى أن يتأثر بذلك بعض رجال المسرح ، فأخذوا ينشئون المسارح الدائرة أو الصاعدة الهابطة بالآلات الكهربائية ، التى تمكنهم من تمثيل مسرحية فى أكبر عدد من المناظر .. ولكن هذا التأثر الطارئ لم يلبث أن ولى ، وثبت للمسرح والمسرحية مالهما من تقاليد عريقة ، وآمن الجميع أن المسرح فن له صفته الخاصة ، وله طبيعته المختلفة عن طبيعة السينما ، وأنه ليس له أن يخرج عن صفته وطبيعته ليقلد ويتأثر ، فإن مجد المسرح هو فى حيزه الضيق ، ومناظره المحدودة ، وإن عظمة المسرحية هى فى القوة الخفية السحرية التى ترغم النظارة على أن ينفذوا إلى أعمق الأسرار البشرية ، ويحيطوا بأسمى المعانى وأجمل المشاعر ويستمتعوا بأبهج الطرائف وأظرف المباهج من خلال كلمات تلقى — لا أكثر ولا أقل — دون معين : من حركة خارجية سريعة تعلق النفس ، أو ظهير من صور متتابعة متغيرة تخطف البصر ، — هذا التقيد بالحيز الضيق فى المكان ، يكمله غل آخر هو التقيد بالحيز المحدود فى الزمان !.. فليس للمؤلف المسرحى أن يكتب — ويكتب كما شاء له هواه — مثلما يستطيع القصصى الراوية ذلك الحر الطليق الذى يملأ الصفحات كما يريد وعلى قارئه أن يتبعه !.. لا .. إن المؤلف المسرحى مقيد بوقت مشاهده وهو له التابع ، فهو مطالب أن يكتب مسرحيته ، فى حدود الزمن

المصطلح عليه فى دور التمثيل ، فكل ما يقع فى المسرحية من أحداث يجب أن يجرى خلال عدد معين بالذات من الصفحات ، يستغرق فى التمثيل قدرًا معينا بالذات من الوقت ..

شأن مؤلف المسرحية هنا شأن الموسيقى أيضا ، فهو مقيد — هو الآخر — بوقت السامع ، لا يستطيع أن يمضى فى لحنه — مأخوذًا بالتحمس ، أو الوحى — فيطيل فى تأليفه إلى الحد الذى يجاوز مجلس السماع المصطلح عليه فى دور الموسيقى ، فالوحى عند الموسيقى ومؤلف المسرحية يجب أن ينظر فى الساعة من حين إلى حين ، ليعرف الحدود التى يتحتم عندها أن يقف !..

تلك المعوقات والالتزامات التى تفرض على كاتب المسرحية — قبل أن يحمل القلم ليبدأ فى العمل .. أغلال أربعة توضع فى يديه وقدميه ، لتحول بينه وبين الانطلاق ، ليصول ويجول بقلمه حرًا ، كما يباح للآخرين من أهل التأليف !..

الحوار

إذا ذكرت المسرحية ذكرت معها كلمة الحوار .. ذلك أن الحوار هو أداة المسرحية .. فهو الذى يعرض الحوادث ، ويخلق الأشخاص ، ويقيم المسرحية من مبدئها إلى ختامها !.. والحوار فى أغلب ظنى كالشعر ، ملكة تولد أكثر مما هو شيء يكتسب ، وإن كان طول الممارسة والمرانة ، له بالطبع أثر كبير فى الوصول به إلى الجودة والإتقان !..

والرأى فى أن الحوار ملكة ، راجع إلى صفته الضرورية له ، وهى : التركيز والإيجاز ، والإشارة التى تفصح عن الطبائع ، واللمحة التى توضح المواقف !.. هذه الصفة لا تناسب كل الناس ، ولا تلاصق كل الأدباء ؛ فمنهم من خلق للإفاضة والتحليل والإسهاب ، فإذا طلبت إليه أن يوجز أحس بالضيق ، وشعر كأنك قد حبسته أو حبست قلمه الفياض ، وكتمت بيانه المسترسل ، وحلت بينه وبين سليقته الميالة إلى العرض والسرد !..

على عكس ذلك الأديب المسرحى ، فهو يضيق بالإفاضة والوصف ، والاسترسال ، ويحب إصابة الهدف بكلمة ، أو رسم الشخصية فى إجابة ، أو الإحاطة بالمعنى فى عبارة ،— كذلك الشاعر له تلك الطبيعة التى يستطيع بها أن يضيء الكون بشطر بيت ، ولو أعطيته الصفحات ، لينثر فيها هذا المعنى الذى وضعه فى ذلك الشطر ،— لتعثر أسلوبه ، وضعف نثره ، وشحب معناه ، وبدا عليه العى ، وغلبت عليه الركاكة !..

الحوار إذن كالشعر : استعداد طبيعى يميل إليه أولئك الذين يميلون إلى الاقتضاب . ذلك أن ألد أعداء الحوار الإطالة والحشو ، فهنا أيضًا كالشعر لا مكان فيه للكلمة الزائدة والمعنى المكرر ، لأن كل كلمة تلقى لها حيز مرقوم ، ووقت معلوم !.. هذه الصلة بين الشعر والمسرحية ليست مما يقال على سبيل

التشبيه ، وإنما هى صلة حقيقية ، نبتت فى الآداب القديمة ؛ فقد كان كتاب المسرحية فى عهد الإغريق شعراء ، وظل الأمر كذلك إلى العصور الحديثة ، ولا تزال بعض الآداب الأوربية تسمى المؤلف المسرحى « شاعرًا »، حتى إن كان فى كل مسرحياته « ناثرا »!..

والحوار باعتباره أداة المسرحية تقع عليه أعباء كثيرة ، بل عليه وحده تقع كل الأعباء !.. فمنه نعرف قصة المسرحية ، وما انطوت عليه من حوادث ومواقف ، وهو لا يقصها علينا حكاية وقعت فى الماضى ، ولكنه يقيمها أمام أعيننا فى الحاضر حية نابضة تتحرك !.. فالحوار هو الحاضر ، هو ما يحدث فى اللحظة التى نحن فيها ، حاضر أبدى لا يمكن أن يكون ماضيًا أبدا .. اقرأ مسرحية « سوفوكليس » أو « شكسبير ». أو « موليير » — اليوم وغدًا — كما قرأها قبلك بأجيال وقرون أناس كثيرون فإن الحوار يبرز أشخاصها ماثلين حاضرين ، يتكلمون ويتحركون ؛ — فى حاضر دائم !..

فمهمة الحوار إذن ، ليست أن يروى ما حدث لأشخاص ، ولكن مهمته أن يجعلهم يعيشون حوادثهم ، أمامنا مباشرة ، دون وسيط أو ترجمان. فإذا قام الحوار بهذه المهمة فإن واجبه لم ينته بعد ؛ فنحن لا يكفينا منه فى المسرحية أن يكشف لنا عن حوادث ومواقف، بل عليه — فوق ذلك — أن يلون لنا هذه الحوادث وهذه المواقف، باللون الموافق لنوع المسرحية؛ فإن كانت مأساة تخير من الألفاظ ما يثير فى نفوسنا الرهبة والجزع والجلال والخشوع ، وإن كانت ملهاة انتقى من العبارات ما يشيع فى قلوبنا روح الفكاهة والمرح والسخرية والعبرة !.. فالحوار فى يد المؤلف المسرحى ؛ كالريشة فى يد المصور ، وهى المنوط بها الرسم والتلوين والتكوين وكل ما يوضع على اللوحة من فن !..

ولا تقف مهمة الحوار عند رسم الحوادث ، وتلوين المواقف ، بل هو الذى يعول عليه أيضًا فى تكوين الشخصيات ، فلا بد لنا أن نعرف من طريقه طبائع الأشخاص ، ودخائل نفوسهم ، فهو الذى يجب أن يظهرنا على ما ظهر منهم وما

خفى ، ما يفعلون أمامنا ، وما ينوون أن يفعلوا . ما يقولون لغيرهم من الأشخاص ، وما يضمرون لهم فى أعماق النفوس !..

فإذا قام بهذا كله كان عليه واجب آخر . هو خلق جو المسرحية !.. وهو عمل دقيق . لا يبوح لنا الحوار بسره . وليس هو بالعمل المنظور ولكنه من عجائب الحوار أحيانا ، فهذا الجو الشعرى السحرى الذى ينبعث من مسرحية « العاصفة » لـ « شكسبير » . ما سره ؟.. وكيف استطاع الحوار أن يباعد بينه وبين جو آخر لقصة أخرى للمؤلف نفسه هى « عطيل » .. ثم هذا الجو المخيم على مسرحية « دون چوان » لموليير ما أبعده عن جو مسرحية « الطبيب رغم أنفه » !.. وهذا الجو المسيطر على « فاوست » لجوته ما أبعده عن الجو المحيط بمسرحيته « إيجمونت » ؟!.. فالحوار هو الحوار . والمؤلف هو المؤلف ، ولكن الحوار ينسج لكل مسرحية الجو الذى يلائمها !..

العجب فى الحوار ليس أنه يؤدى الأغراض المختلفة بمفرده ، بل العجيب أنه يؤديها كلها فى الوقت عينه ، فقد يرسل العبارة من عباراته إرسالا على لسان شخص من أشخاص المسرحية ، فإذا هذه العبارة محملة بمختلف المهام ، ففيها إخبار بحادثة وفيها تكوين لشخصية وفيها خلق لجو . وفيها تلوين لروح مظلم أو مفرح .. مثلها كمثل العبارة الموسيقية ، التى تنطلق محملة بالنغم الذى يروى ويلون ويكون ، ويثير كل هذا فى لحظة ، وكشأن البيت فى القصيدة الشعرية ، ينطلق حاملا إلى النفس عذوبة ووزنا وفكرا ومعنى . وصورا ، كل هذا فى آن !..

هذا الكلام منصب على الحوار بوجه عام ، باعتباره أداة المسرحية ، ولكن هذا الحوار ولو نظرنا إليه بوجه خاص — وهو فى أيدى أقطابه — لوجدنا فى أساليب ممارسته من العجائب ما يحتاج إلى كلام طويل ولكننا نكتفى هنا بالإشارة إلى بعض الملاحظات العابرة .

من ذلك ما قد يراه المتأمل فى أسلوب الحوار ، عند « شكسبير » فى بعض

مآسيه ، وفى أسلوب الحوار ، عند « موليير » فى بعض ملاهيه : إن المتأمل فى حوار « هاملت » ، مثلا ، أو حوار « مكبث »، يلاحظ أن طريقة الحديث فيهما — بين الأشخاص — لا تجرى على منطق الحديث الواقعى — بين الناس — فى الحياة !.. إنما هو حوار يجرى على منطق الشعر ؛ فهو لا يتسلسل بنظامه الطبيعى فى الحياة الواقعية ، ولكنه يتسلسل بنظامه الطبيعى فى حياة المعانى النفسية ؛ فهو يقفز قفزات ، ويعبر فجوات ، ويستعين بالكلمات المضيئة ، والحكم البليغة ، والصور اللامعة ، ليصل فى صفحات قليلة إلى أغوار النفوس الإنسانية ، وأسرار الطبائع البشرية !.. « شكسبير » مؤلف واقعى الهدف ، شاعرى الأسلوب !.. لقد احتفظ بطبيعة الشاعر ، وطريقته فى معالجته لأدق شئون الحياة والبشر ، وشعره وإن كان مرسلا : أى أقرب ما يكون إلى النثر ، فإن روحه لم تزل أرفع ما يكون الشعر ، فى حين أن « موليير » كتب بعض ملاهيه بالشعر المقيد الموزون، ولكن حواره يتسلسل دائما بنظامه الواقعى فى الحياة ، ويجرى الحديث بين أشخاصه ، كما يجرى فى الحياة العادية ، لا يعوقه إلا النظم الذى يضيق به السامع أو القارئ أحيانًا ، ولا يدرى فيم الالتجاء إليه ، وكل شىء بدونه ، وعلى الرغم منه ، غارق فى دنيا الواقع !.. « موليير » مؤلف واقعى الهدف ، واقعى الأسلوب ، على الرغم من شعره المقيد المنظوم !..

هذان لونان من الحوار وضعا شعرًا ، كلاهما يخلق من الأشخاص الحية ، ويبرز من خفايا النفوس البشرية ما اعتبره التاريخ من مفاخر الفكر الإنسانى ، وهما مع ذلك مختلفان فى الأسلوب ، أحدهما يجرى فيه الحوار بروح الشعر « وإن اقترب من النثر ، والآخر يجرى فيه الحوار بروح النثر ، — وإن تقيد بالنظم ..

هنالك لون ثالث من الحوار ، لشاعر أيضًا ، كتب بعض مسرحياته بالشعر ، وهو « إبسن » : تجد أن الحديث الذى يجريه على لسان أشخاصه ، يتسلسل بنظامه الواقعى ، على طريقة « موليير » ولكننا نشم مع ذلك عطرًا غريبًا ينبعث من بين حواره يذكرنا بذلك العطر الشعرى الذى ينبعث من خلال كلمات

« شكسبير » فهو مؤلف واقعى الأسلوب ، شاعرى الجو !..

هنالك أيضًا لون رابع من الحوار ، لشاعر فى قصة شعرية ، هو « جوته »، فى فاوست »»، هنا نجد الواقع ليس هو شاغل المؤلف ، فهو لا يعنيه أن يظهر أشخاصًا إنسانية ، تعيش فى محيطها الإنسانى ولا تهمه مآسى البشر ، ولا ملاهيهم ولا مجتمعاتهم ، وحياتهم ومشاغلهم فى ذاتها ، ولا من حيث هى :ـــ إنما الذى يهمه فى قصته هذه هو علاقة الإنسان بما هو أعلى . هنا إذن مجال الفكر والشعر ، وهنا نجد أسلوب الحوار عند « جوته » لا يتسلسل طبعا بنظام واقعى . ولكنه يجرى محمولا : على أكتاف الفكر مرة وعلى أجنحة الشعر مرة أخرى : فهو هنا مؤلف فكرى الهدف ، شاعرى الأسلـوب !..

هذه ملاحظات خاطفة على بعض أساليب الحوار ، تدلنا على أن أداة المسرحية وإن كانت واحدة لا تتغير ! لأنه ما من مسرحية تقوم إلا بها !.. فإنه ـــ أى الحوار ـــ يختلف لونه وطبيعته وروحه وطريقته ـــ باختلاف طبيعة الفنان ! وطبيعة العمل الفنى !..

البناء

إذا ملك أديب مسرحي ناصية الحوار ، فما الذى يبقى أمامه ليـنشىء مسرحية ؟.. لا شيء أمامه غير أن يشرع فى البناء ،ــ ذلك أن المسرحية كيان مبنى : أى قائم بعضه فوق بعض ، مرتبط جزؤه بكله فى منطق ونظام . هذه الأجزاء الذى يضمها هذا البناء ، تتكون منها مراحل ثلاث : العرض فالعقدة ثم الحل !.. أما العرض فمهمته تقديم الأشخاص وطيف الحادثة ؛ التى ستتضح ملامحها فيما بعد ، وتتعقد ، ثم تنفرج عن الخاتمة .

وطرق العرض كثيرة ، وهى تختلف باختلاف المؤلـف ، أو باختـلاف المسرحية ، كالطريقة التى قدم بها « موليير » مثلا ، بطله فى مسرحية « السيد البورجوازى » فهو فى « تارتوف » لم يظهر البطل على المسرح من أول الأمر ـــ بل مهد لظهوره بحديث بين أشخاص آخرين تناولوه فيه بالوصف والتحليل والرسم والتصوير ـــ فلما ظهر بعدئذ ، كان المشاهد أو القارئ قد عرف عن شخصيته الشيء الكثير ، ولم يبق عليه إلا أن يتتبعه فى حوادث القصة ليرى تأثيرها فيه أو تأثيره فيها !.. أما فى « السيد البورجوازى »، فإننا نجد ـــ على عكس ذلك ـــ بطل المسرحية قد ظهر منذ اللحظة الأولى دون أن يمهد له أحد بحديث ، ودون أن نعرف من أمره شيئا ، فما يكاد يتكلم هو حتى نعرف من كلامه نوع عقليته ، وكلما أوغل فى الحديث كشف لنا عن لون شخصيته ، فالبطل هنا هو الذى يقدم نفسه بنفسه من مبدأ الأمر .

هنالك طريقة أخرى . اتبعها « شكسبير » فى تقديم بطله « مكبث ». فما من أحد مهد « لمكبث » بحديث . وما كشف لنا هو بحديثه عن طباعه ، ولكن حادثة خاطفة اعترضت ـــ عند ظهوره ـــ فسلطت على أغوار نفسه المصباح ـــ تلك هى نبوءة الساحرات .. فهو لم يكد يظهر لنا حتى ابتدرته

الساحرات متنبئات له بالملك .!.. هذا الحدث العارض البسيط ؛ فتق لنا سريعا قلب « مكبث »؛ فبدا فيه من ألوان الشعور الأثيم ، ما كان هو نفسه يجهله طول حياته !.. شخصية مكبث الماضية لم يكن لها أثر فى مستقبله ، فهو فى ماضيه لا غبار عليه ، ولكن طبعه الطيب فى الماضى لا سلطان له على كبح آثامه ، ووقف مطامعه فى الغد . لذلك لم يجد « شكسبير » حاجة إلى عرض ماضى « مكبث » !.. إن « مكبث » عند « شكسبير » هو الطموح الذى يحطم القيود ، هو المستقبل الذى يلتهم الحاضر والماضى ! لذلك بدأت القصة ، وكأن أشخاصها يركضون فى المستقبل ركضا ، المستقبل الذى غير كل شىء .. المستقبل الذى سفك دم كل شىء حتى ماضى البطل الطيب !..

على عكس ذلك مسرحية « عطيل »!.. هنا الماضى هو الذى يؤثر فى المستقبل ، ويدفع إليه .. هنا طيبة « عطيل » الماضية — بما فيها من حرارة المغرب ودمه الفوار وحمق البطل ، ورعونته وجرأته — هى التى أدت إلى حدوث الكارثة فى المستقبل . أهمية هذا الماضى فى مسرحية « عطيل » جعلت « شكسبير » يعنى بعرض حياة بطله الماضية عرضًا وافيًا حينًا على لسانه ، وحينًا على لسان الآخرين !..

طرق العرض إذن تختلف ، لا باختلاف المؤلف فحسبب ؛ بل أيضًا باختلاف الموضوع والشخصية !..

فإذا تم العرض فقد بدأت المرحلة الثانية فى المسرحية ، وهى العقدة ، أى حادثة توشك أن تقع ويترتب على وقوعها نتيجة أو نتائج ، أو هى مشكلة اجتماعية أو عاطفية أو فكرية ؛ تتهيأ للظهور ؛ وينجم عن ظهورها واشتباك أطرافها نتيجة أو نتائج !.. على أنه ليس من الضرورى فى كل الأحوال أن يتم هذا الانفصال — بين العرض والعقدة — على نحو واضح ؛ فقد يحدث أحيانًا أن تتداخل المرحلتان إحداهما فى الأخرى ، كما نلاحظ ذلك فى مسرحية « مكبث » أيضًا : فهى بدأت بحادثة ، هى حادثة النبوءة .. هذه الحادثة عرضت لنا

الشخصية ، وهيأت لنا العقدة فى الوقت نفسه ، وكأننا نرى أشخاص المسرحية يصعدون إلينا من جوف الحادثة ، أو لكأننا نجدهم أمامنا فجأة معروضين مخلوقين من نسيج تلك العقدة !.. على عكس ذلك مسرحية « عطيل » ؛ ففيها نرى العرض منفصلا تمام الانفصال عن العقدة !.. هنا المرحلتان متباعدتان متميزتان ، إحداهما عن الأخرى .. فالعرض هنا يسير بنا شوطا بالأشخاص فى حياتهم المألوفة ؛ـ حتى نعرفهم فى ماضيهم وحاضرهم ونكاد نلمس بعض طباعهم وأخلاقهم ، وإذا العقدة ــ على مهل ــ تأخذ فى البريق ؛ كالشرارة الصغيرة المتطايرة من احتكاك هذه الأخلاق والطبائع بعضها ببعض إلى أن يحدث آخر الأمر الحريق !...

هنا قد نلاحظ أن طبيعة المسرحية هى التى تحدد طريقة بنائها ؛ فإذا كانت العقدة تخرج من طبائع الأشخاص كان من اللازم عرض هذه الطبائع عرضًا كافيًا قبل الحادثة ، وإذا كانت العقدة تخرج من حادثة من الحوادث الخارجية اندمج العرض مع العقدة وظهرا معًا ..

هذه ملاحظة ، ولا أكثر من ملاحظة ؛ـ فمن الخطر فى الفن أن نتعدى حدود الملاحظة إلى سن القوانين !.. والفن نظام ، ولكنه يكره القانون !.. إنه حرية منظمة،حرية تنظم نفسها بنفسها ولا تقبل أبدًا أن يفرض عليها الآخرون نظامًا ، فهناك من المسرحيات ما نرى فيها العقدة تظهر من اصطدام الطبائع والأخلاق ولا تعرض لنا هذه الطبائع والأخلاق إلا وهى مضطربة فى خيوط العقدة ؛ كما أن هناك من المسرحيات ــ وخاصة ما وُضع منها فى العصور الحديثة ــ ما لا عقدة فيها على الإطلاق ، إنما هى عرض طويل للطبائع أو الأفكار أو الأخلاق !. ومنها ما يرمى إلى خلق جو خاص يغمر فيه القارئ أو السامع أو المشاهد غمرا دون أن يكون المقصود رسم شخصية من الشخصيات الرسم الكامل أو إبراز طبع من الطباع الإبراز الشامل !..

على أن تعدد النزعات والاتجاهات ، لا يمكن أن يمس دائمًا كل هذه الأركان اللازمة لبناء المسرحية ؛ فهو قد يضعف ركنا لدعم ركن ، أو يقوى ركنا على حساب ركنين !.. إن الفن دائم التجدد ، وهو فى تجدده لا ينسى ـــ بالخبرة أو السليقة ـــ أركانه اللازمة لا رتكازه !..

تلك هى مرحلة العقدة فى المسرحية ، حادثة تتشعب أو مشكلة تتشابك ، ولكن هذا التشعب أو هذا التشابك ؛ـــ لا بد أن يصل إلى طرف : أى إلى نهاية !..

هذا الانحدار إلى الطرف أو إلى النهاية ؛ـــ هو الحل الذى يؤدى بالمسرحية إلى ختامها !.. وهو فى المآسى : غالبًا ما يكون الموت عقابا للبطل الأثيم وحدًا لحياة البطل المجيد !.. وفى المهازل : غالبًا ما يكون الزواج هو الختام البهيج .. هذه المرحلة الأخيرة فى المسرحية تأتى نتيجة لما سبق من حياة هى الجواب عن سؤال ، هى الراحة بعد قلق معلق ؛ لـذلك يجعلها مؤلفـو المآسى الراحـة الأبديـة « للأبطال »، ويجعلها مؤلفو المهازل الراحة الدنيوية للمحبين ؛ لأنهم يعلمون أنهم بذلك يحدثون شعور الراحة فى نفوس المشاهدين !..

على أن بعض المسرحيات فى العصور الحديثة قد نحت نحوًا آخر ، فلم تجعل من النهاية جوابا و لم تحدث بها راحة ؛ بل جعلت من النهاية سؤالا كبيرًا يبقى بين جوانح القارئين أو المشاهدين وليس له من مجيب ، أو جعلت منها وقفة تشيع فى النفس قلقا ولا تحدث شعورًا براحة ولا تمس العقدة التى تبقى دائما بغير حل !.. ربما كانت هذه النهاية ـــ فى بعض الأحيان ـــ أفعل فى النفس ، وقد أدرك « شكسبير » ذلك فى مسرحية « عطيل » فترك الخائن « ياغو » حيًا أمامنا بعد موت ضحاياه ، وهو الذى كنا نتمنى أن تسدل الستار على جثته وهى مقطعة تقطيعًا !.. لم يرد « شكسبير » أن يمنح نفوسنا هذه الراحة حتى تظل نفوسنا القلقة تلعن « ياغو » طول الأجيال ؛ فالمؤلف البارع ليس ذلك الذى يتولى بنفسه فى كل الأحيان مصاير أشخاصه ، بل هو ذلك الذى يجعل الناس يتولون

أمرهم من بعده !.. هكذا نجح « شكسبير » فى أن يترك « ياغو » المجرم قائما ، يتلقى صفعات الأحقاب ، على حين أن ضحاياه فى أحداثهم راقدون تحت قباب العطف الخالد والحب الدائم !.. ذلك العطف والحب والتفجع ، الذى تمثله تلك الصيحة التى خرجت من قلب الشاعر الألمانى : « هاينى »: « لا شىء فى الدنيا يعزينى عن موت « ديدمونة » !..

أما وقد عرفنا شيئًا عن أركان المسرحية ، فقد بقيت مسألة أخيرة — هذا الكيان المبنى الذى يسمونه المسرحية : أهو ككل بناء يجب أن توضع خطته ، وترسم خطوطه ، بكل أجزائها وأدق تفاصيلها قبل الشروع فى التنفيذ ؟.. تلك فيما أعتقد مسألة شخصية ، وقد يكون فى تاريخ الأعلام من المؤلفين من كان يفعل ذلك ، ومنهم من كان يفعل غير ذلك ؛ فليس لأحد أن يملى على فنان طريقة عمله !.. كل مالنا من حق أن نبحث ، ونلاحظ ونستنتج ، فإذا رأينا الفنان يخرج بعد ذلك على ما رتبناه من بحوث ، ونتائج وقواعد — فليس على الفنان من حرج ما دام قد أخرج فى نهاية الأمر أثرًا بديعا ، مهما تكن الطريقة التى اتبعها .. على أنى أرى بتجربتى الخاصة أن المسرحية — وإن كانت بناء — فهى ليست بالبناء الأصم !.. إنها بناء حى ، لأنها مكونة من شخصيات حية تتكلم ، ومن كلامها قد تحدث مفاجآت فرعية لا يمكن للمؤلف أن يحسب حسابها !.. إن المؤلف يستطيع أن يحدد من قبل طبائع أشخاصه وأخلاقهم وخطى حياتهم ومصايرهم — ولكنه لا يستطيع أن يحدد تفصيلات أحاديثهم ولا جزئيات تفكيرهم إلا بعد أن يباشر التنفيذ ، ويمضى فى التأليف !..

إن البناء المسرحى لا يمكن أن يكون — بالضبط — كالبناء المعمارى ، فالمهندس إذا رسم مسمارًا على الخريطة فلا شىء يغيره ، أما المؤلف فإنه لا يضمن بقاء جزئية على حالها لو اندفعت شخصيته فى اتجاه آخر ، على أثر كلمة فجائية ، لفظتها شخصية أخرى !.. إن المسرحية عجينة تتطور فى يد مؤلفها .. إنها شجرة تنمو تحت إشراف بستانى !.. إن المؤلف بالنسبة إلى أشخاص المسرحية كالقدر بالنسبة إلينا ، فالقدر يعرف ما هو صانع بنا فى نهاية الأمر ، ولكنه يترك لنا حرية الكلام ! والحركة التى تقتضيها دوافعنا الداخلية !..

الطبائع عند شكسبير

يخيل إلىّ أن كل شخص يحمل قدره فى طيات طبيعته ، فليس فى كل الأحوال تهبط الأقدار من السماء على رءوس الناس « ــ ولكنها تصعد أحيانًا من طبيعة نفوسهم ــ بل إن تصرفات الإنسان أمام الأحداث هى فى الغالب صورة من طبعه ونفسه !..

ربما كان فهم الإنسان على هذا النحو ، هو الذى جعلنا نرى فى « شكسبير » عبقرية عالمة بطبائع البشر ؛ فهو فى مأساة « عطيل » صور لنا قائدا مغربيًا ، أسود اللون حاد الطبع قليل التأمل ، بالغ الجرأة ، ساذجا إلى حد الحمق ، طيب النفس إلى حد البساطة !.. هذا الرجل قد أحب زوجته « ديدمونة » حبًا مبرحا ، فلما سعى بينهما الدساس المخادع « ياجو » بالوقيعة ، وأوهم الزوج الطيب أن زوجته تخونه ؛ــ تحالفت كل عناصر تلك الطبيعة المركبة فى « عطيل »، وتجمعت أجزاء شخصيته من جنسه الحار وطبعه الحاد ورعونته وجرأته؛ إلى غباوته وسذاجته . فأدى كل ذلك إلى الكارثة ، وكان ينبغى أن يؤدى إليها ؛ فهو لم يحاسب نفسه طويلا ولم يتردد كثيرًا ، ولم يقلب الأمر على وجوهه ، ولم يتأمل ولم يتشكك ؛ــ بل هجم على زوجته الرقيقة البريئة يقتلها ويقتل نفسه ، وقد علم ببراءتها بعد فوات الأوان !.. وإن المشاهد يرى كل هذا يجرى إلى هذا المصير ، ويكاد يصيح به : « أيها الأحمق ! .. تمهل !.. ابحث !.. حقق !! ». ولكنه لو سمع إلى هذا القول وتأمل وبحث ؛ــ لكان شخصًا آخر غير « عطيل »، بطبيعته التى عرف بها !..

مأساة أخرى لـ « شكسبير »، تصور لنا شخصًا آخر هو « هملت » !.. كل ما فيه يناقض شخصية « عطيل »؛ فهو من أبناء الشمال بارد الطبع ، أشقر الشعر ، عميق الاطلاع ، كثير التأمل ، معقد النفس !.. هذا الرجل قد علم أن

عمه قتل أباه وتزوج من أمه !.. علم ذلك من شبح أبيه نفسه !.. ظهر له ورآه بعينه ؛ مع الرفاق والحراس ، وسمع صوته وهو يهيب به أن ينتقم له من قاتله .. ويستحلفه بقسم رهيب ، ثلاث مرات ، أن يثأر !.. ولكن « هملت » لا يقدم ، بل يظل يقلب الأمر على وجوهه ، ويتشكك فيما سمع بأذنه ، وفيما رأى بعينه ، ويمضى يتأمل ويبحث ويراقب ويحقق .. والمشاهد يرى كل هذا التردد ، ويكاد يصيح به : « فيم كل هذا التأمل والتفكير ؟.. أقدم !. انتقم !.. » ولكنه لو أصغى إلى هذا القول ، وأقدم من الفور دون تأمل أو بحث ، لكان شخصًا آخر غير « هملت » بطبعه الذى عرف به !..

* * *

لطالما خطر لى هذا السؤال : ترى ماذا كان يحدث لو أن « هملت » بطبعه هذا هو الذى كان زوجا « لديدمونة » ؟.. وكان « عطيل » بطبعه ذاك — هو الذى كان ابن الملك المقتول ؟..

أغلب ظنى أن « ديدمونة » ما كانت تقتل !.. فإن زوجها ، بطباع « هملت » وما فيها من مزاج هادئ ، واطلاع عميق ، وتأمل طويل ، كان يتناول إفك الدساسّ بشك وحذر ، وكان يبحث كل كلمة من بهتانه ، ويحقق ويدقق ويسأل الناس ، ويتردد فى اتخاذ القرار الفاجع ، إلى أن تنكشف له الحقيقة فى آخر الأمر !.. وبانكشافها تبرأ « ديدمونة »، وتبطل المأساة ..

كما أن « عطيل » بطبعه الحاد وخلقه الأرعن وعقله البسيط ، وشخصه المقدام ، ما يكاد يظهر له شبح أبيه ، يدعوه إلى الانتقام ، حتى يهرع لساعته ، والسيف فى يده إلى عمه ، فيغمد النصل فى صدره دون تردد أو تأمل أو تفكير ! وبذلك تنتهى الرواية فى الفصل الأول ، وتبطل المأساة — مأساة النفس المعقدة — بما فيها من درس وغوص وتحليل !..

ها هنا إذن عبقرية شكسبير !.. إنه قبل أن يخلق المأساة أو الكارثة خلق الشخصية التى تصنعها، وقبل أن يخلق الشخصية ؛ خلق الطباع التى لا بد أن

يصدر عنها تصرف الشخصية !..

لقد أدرك هذا الفنان الخالد هذه الحقيقة البشرية وهى :

« إن الأقدار والمصاير أجنة فى بطون الطبائع !.. »

من كل ذلك أرى ، لزاما على رجل المسرح أن يدرس « شكسبير » دراسة فحص وتمحيص !.. فلقد كان هذا المسرحى العبقرى محل درس فى كل آداب العالم — حتى الأدب الروسى الحديث ؛ فقد عنى به النقاد الروس عنايتهم « بموليير » و « تشيخوف » وألفوا فيه الكتب والبحوث ، فلقد كتب الناقد « إسكندر سمير نوف » بحثًا مستفيضًا عام ١٩٣٩ عن إنسانية « شكسبير »، كما كتب الناقد « إسكندر أنيكست » عام ١٩٤٦ يقول : « إن شكسبير — ذلك الأستاذ العظيم — قد خدم بفنه أعظم المثل العليا الإنسانية ، وأعطى الواقعية فى الفن مثالا لا يبارى .. »!.. وقد قال مثل هذا القول من قبل الناقد « قسطنطين دوزهافين » فى كتاب له عام ١٩٣٦م، ذكر فيه قيمة الدرس الذى يتلقاه الفن الواقعى الاشتراكى من فن « شكسبير » وتعبيره القوى ، وتحليله النفسى العميق وقدرته الفائقة على وضع أعظم المعضلات الفلسفية ، فى صور حية ، وأوضاع مسرحية ،— ملخصا رأيه بقوله : « نحن نحب « شكسبير »، لذهنه الحاد ، ومعرفته الحكيمة للحياة ، وحبه للنوع البشرى ، وعبقريته الواقعية — المفعمة بالفكر العميق والمشاعر الصادقة !.. »

عوائق المسرحية عندنا

لو ظهر « شكسبير » فى « مصر » اليوم !.. ماذا كان يصنع ؟.. هل كان ينتج آثاره الخالدة نفسها ؟.. والمقصود بظهوره فى مصر ، أن يكون مصريًا ، لغته العربية .. وأن يكون تراثه الأدب العربى ، بصورته المعروفة !..

ما من شك أنه سيقف حائرًا ، باحثًا عن نموذج يحتذيه ، وهو فى مبدأ الطريق !.. فما من عبقرى يظهر فجأة من العدم !.. لقد احتذى « بيتهوفن » مثال « موزارت » ؛ فكانت « سمفونيته » الأولى تحمل أريج هذا الأخير !.. كذلك فعل « شكسبير » ، فهو عندما بدأ يكتب للمسرح الإنجليزى ، كانت نماذجه طائفة من مشاهير المؤلفين فى ذلك العهد ، مثل : « مارلو » و « جرين » و « كيد » !.. قال العلامة « هاريسون » : « كان « شكسبير » فى أول أمره ، يقلد الأسلوب الشائع عند مؤلفى المسرح فى عصره ، تقليدا بلغ من التقيد حدا جعل بعض النقاد ــ فيما بعد ــ يتساءلون : هل كان هو حقا مؤلف التمثيليات الأولى المنسوبة إليه ؟.. »

فإذا فرضنا أن « شكسبير » المصرى ، قد وجد فى الأدب العربى من النماذج ما يسترشد به ، ويسير على هداه ، فإن مشكلة أخرى لا تلبث أن تقف فى سبيله !.. ذلك هو العصر الذى يعيش فيه !.. فاهتمام الناس بالمسرح فى عهد « إليزابث » ، قد حل محله فى مصر ، اهتمام بالسباق ، والسينما ، و « الكباريهات » !.. والمسرح لا يمكن أن يزدهر إلا فى مجتمع يحبه ، ويقبل عليه ، ويضعه فى المكان الأول من العناية والتقدير !.. وازدهار المسرح معناه أنه قد بلغ من القوة والرواج والثبات ، ــ مبلغا يتيح له أن يكفل للقائمين به أسباب الانقطاع له !.. إن من عوامل إتقان « شكسبير » أنه انقطع للتمثيلية لا يضع شيئا غيرها .. واستطاع أن ينقطع لها ؛ لأنها استطاعت أن تطعمه !.. كل فن

لا يستطيع أن يطعم صاحبه يموت !.. لأن للفنان فما ومعدة قبل أن يكون له ذهن وقريحة .. وإذا أخذنا بما جاء فى كتاب « سدنى لى » رأينا « شكسبير » شديد الاهتمام بما تدر عليه مؤلفاته من مال ، وقد ترك وصية — كما ثبت من السجلات القضائية — جديرة فى نظر بعض الباحثين بمراب لا بشاعر ..

فإذا سلمنا بأن « شكسبير » المصرى يستطيع أن يجد فى مصر اليوم ذلك المسرح الذى يقول :« انقطع لى واكتب لى وحدى وأنا أكفل لك حياتك ومعاشك ..» فإن معضلة أخرى — من نوع آخر — تنهض أمام فكره ، وهو يشرع القلم ليكتب : أيؤلف بالنظم أم بالنثر ؟.. فإذا اختار النظم فإنه لن يجد من المألوف فى الأدب العربى ذلك الشعر المرسل — بغير قافية — ذلك الذى كان مألوفا عند شعراء المسرح الإنجليزى ، وقت ميلاد « شكسبير »!.. والشعر المقفى على الطريقة العربية يصلح لنوع محدود من الروايات ، لا لكل الأنواع . فلا بد له إذن من أن يبتدع ، وأن يغامر !.. و « شكسبير » الإنجليزى لم يبتدع فى ذلك الأسلوب ، و لم يغامر !.. ولكنه ورث ، وأخذ ، ثم جود وأتقن !..

فإذا آثر شكسبيرنا المصرى أن يكتب بالنثر ، فإن مسألة أخرى تعرض له : أبالنثر الفصيح يكتب أم بالنثر العامى ؟.. فإذا حل المسألة باختيار الفصحى فى الروايات التاريخية والجدية ، فإن الروايات العصرية ، التى تصور أشخاصا شعبية ، وبيئة محلية ، لا يمكن أن يعالجها بالفصحى إلا على حساب الدقة فى التصوير ، والصدق فى التلوين !..

فإذا جازف وغامر واختار لنفسه اللغة التى يقتضيها فنه ، وقال : « أنا حر ، لأن الفن حر !.. » أو قال ، كما قال « موليير »: « إنى آخذ ما ينفعنى فى فنى ، حيثما أجده !.. »، — فإن مشكلة كبرى لم يعرفها « موليير »، ولا « شكسبير » تنهض له الآن صائحة ، تلك هى مشكلة النظريات الاجتماعية ، والمبادئ السياسية التى تتصادم اليوم ، وتتشاجر فى عالمنا الحاضر ، فإذا أراد أن يقيم مسرحه ، فى محيط الملوك والتاريخ والفكر كما فعل « شكسبير » الإنجليزى — فإن

التقدميين يقولون له : « هذه رجعية !.. أين الشعب ؟.. اكتب عن الفلاح ، والعامل ، والجوع والفقر ،ـــ وتبسط فى لغتك ، وتواضع فى تفكيرك ليفهمك الدهماء !.. لأن الفن هو لهؤلاء !.. » فإذا اتجه هذا الاتجاه ، انبرى له آخرون من المثقفين يقولون : « هذا عمل لا وزن له فى عالم الأدب والفكر ، إنما هو إسفاف يراد به التقرب إلى العامة !.. اكتب للخاصة !.. فما الفن إلا لهؤلاء !.. »

فإذا كتب لهؤلاء ولهؤلاء ، وأحاط بواسع العلوم ، والفنون ، والمعارف اللازمة فى عصرنا الحاضر لإبداع فن الخاصة ، ثم ألم بالبيئات والصور واللغات واللهجات اللازمة لإبداع فن العامة ، وصور النفسيات ، والعقليات ، والمبادئ ، والأفكار ، التى تصطرع فى بحر هذا العالم الحديث المضطرب ،ـــ فإن ذلك كله يتطلب عبقرية أعجب من عبقرية « شكسبير » الأول !..

حقا .. لو ظهر « شكسبير » اليوم لكان فكره تبلبل ، وعقله تحير !.. ولكان عمله أعسر ، وواجبه أكبر ، وعقباته أضخم ، ومجهوداته أضنى !..

من حسن حظه إذن أنه ولد فى « إنجلترا » فى القرن السادس عشر !..

المسرح إتقان وتجويد

شاهدت « مدرسة النساء » لـ « موليير » تعرضها ـــ فى دار « الأوبرا » المصرية ـــ فرقة « لوى جوفه ».. وكنت قد شاهدت هذه الرواية قبل اليوم بنحو ربع قرن فى باريس على مسرح « الكوميدى فرانسيز »؛ فرأيت كيف يوضع الأثر الفنى الواحد ، فى ثوبين مختلفين من البراعة ، والحذق ، والذوق !..

ذلك أنهم هناك يعرفون ما هو الفن ؟!.. إنه عندهم ليس مجرد حكاية تروى ، ثم تطرح ؛ـــ إنما هو النظرة المتجددة للآثار الخالدة !.. ما من واحد هناك يجهل مسرحيات « موليير » !.. لقد شبت أجيال على مطالعتها فى المدارس ، ومشاهدتها فى الملاعب ؛ـــ ولكن كل جيل يجمع مواهبه ، ويحشد تجاربه ؛ ليصنع منها إطاره الخاص الذى يضع فيه الأثر القديم !..

لقد شاهدت جيلين فى الفن ، يجدان فى إظهار « موليير »، لكل منهما ـــ ولا شك ـــ خصائصه ومقوماته ، ولكنهما يجتمعان فى مزية واحدة هى : الإخلاص ، والتجويد ، والإتقان !..

على أن الذى يحسن أن نوجه إليه النظر ، هو موقفنا نحن من هذا الفن ، فإن الفرق الأجنبية تفد على دار « الأوبرا » ثم تمضى ـــ وقد تكبدنا فى سبيل استقدامها الأموال ، وبذلنا الجهود ـــ فلا نرى لوجودها أثرا يذكر ، فى تقدم الفن المسرحى فى بلادنا !.. ما هو السر ؟.. أليس من الحافز للأذهان ، أن نبحث عن سر لذلك الأمر ؟.. ربما كانت العلة كامنة فى شىء واحد : فكرة خاطئة ، مضمونها أن على مسارحنا أن تكثر من إخراج الروايات الجديدة ، وأن تتجنب الآثار الخالدة القديمة ، فلجأت إلى الساقط الغث ، تدفع به إلى المخرجين ، يهيئونه فى عجلة ولهفة ؛ لأنهم يعلمون سلفا المصير ، الذى ينتظر الرواية !.. وهو أنها لن تعمر فوق المسرح أكثر من أسبوع !.. وهذا لا يزعج الفرقة ؛ لأنها تعتقد أن

الجمهور يريد منها رواية جديدة ، كل بضعة أيام !..

خطأ هذا الاعتقاد ، واضح للعيون ؛ حتى لعيوننا هنا فى « مصر »، فالجمهور ، فى كل مكان وزمان،لا يريد غير متعة الإجادة .. إن الجمهور المصرى ، كغيره من الجماهير الذكية — أفطن من أن يذهب إلى المسرح ، لمجرد رؤية حكاية تسرد ؛— إنما هو يذهب ليستمتع بفن يعرض !..

هنا سر النجاح ، وهذا هو الذى ثبت دعائم المسرح الأوربى: الإعداد الطويل لعدد من الروايات قليل ؛— حتى يصل الممثل إلى درجة من التجويد والإتقان ، يقبض فيها على مفتاح الشخصية التى يدرسها !.. لقد كان الممثل « دى فيرودى » يقوم طول حياته بشخصية « البخيل » لـ « موليير » على مسرح « الكوميدى فرانسيز » فلما بلغ السبعين ، وهو لم يزل يمثل « الدور »، واضطر إلى الاعتزال ، سمعه زملاؤه وتلاميذه يقول فى حفلة الوداع التى مثل فيها « البخيل » للمرة الأخيرة :

« اليوم فقط يا إخوانى خيل إلىّ أنى أمسكت به .. أمسكت به !.. »

لقد صدق .. إن بلوغ الإتقان أمر عسير ، ولا تكفى فيه حياة بشرية ؛— إلا إذا صبت ، بأكملها ، فى عمل واحد ..

لهذا كان لكل مسرح من مسارح الأرض — منذ وجد التمثيل ، وأشرق ، وازدهر — ما يسمونه « الربرتوار »، أى التراث الباقى الذى يتجدد ولا يختفى ، ويرتفع به الممثل إذا أتقن ، ويبلغ المجد إذا سمت به الموهبة ، وحمله الكد ، ودفعه الجد .. لكل مسرح حقيقى تراثه الدائم ؛ ذلك أن هنالك فرقا جوهريًا بين المسرح الذى يعرض على خشبته ممثلين أحياء ، وبين السينما التى تعرض على شاشتها صورًا صماء !.. ممثل المسرح الحى يتطور ، وينمو ويتجدد كلما مثل دوره ، وفى مقدور جمهوره أن يتابعه فى هذا التطور والتجدد ، فيجد المتعة فى مجرد متابعة هذا النمو ، وهذا الجهاد — فى سبيل الإتقان ، والتجويد ؛— فى حين

أن ممثل السينما ، قد سجل دوره فى « الفيلم »، وثبته ، وجمده تجميدًا ؛ فمهما يكرر الجمهور مشاهدته فى نفس الدور فلن يرى جديدًا !. من هنا جاز للجمهور أن يطالب بتغيير الرواية السينمائية كل أسبوع أو أسبوعين ؛ فالسينما المتحركة قوامها : الرواية المتغيرة بموضوعها ، ولكن المسرح الثابت قوامه : الممثل المتجدد بإتقانه !..

الإصلاح الخلقى والتمثيل

هل غاية فن التمثيل الإصلاح الخلقى[1] ؟؟..

مسألة كانت موضوع بحث وجدل فى عصور مختلفة !.. بدأت فى أيام « أرسطو »، وأتى فيها برأى دعمه بحجج ، ثم تجددت فى العصر الكلاسيكى « بفرنسا » فنبش « راسين » على حجج « أرسطو »، فأخرجها ، وشكلها بحسب مقتضيات عصره ، وألحقها بمقدمة رواية « فيدر » !.. ثم بعث هذا المبحث — مرة أخرى — فى القرن التاسع عشر !.. بعثه « اسكندر دوماس » الصغير ، فأثار بذلك جدلا عنيفا بينه وبين معاصريه ؛ من كتاب ونقاد ، وتجددت بذلك المناقشة القديمة فى ذلك الموضوع !.. رأى « دوماس » : هو الاعتراف بتلك الغاية ؛ ففن التمثيل فى رأيه ، يجب أن يكون مرماه الإصلاح الخلقى والأدبى !. بل ذهب فى ذلك إلى مدى بعيد ، فأوجب تدخل الفن التمثيلى فى ميدان تلك النظريات الاجتماعية ، والمسائل الجدلية المعقدة ، التى هى من شأن رجال السياسة والتشريع ، قائلا : لم لا نناقش — نحن كتاب المسرح — مسألة اجتماعية هامة ، كمركز المرأة الذى وضعها فيه القانون المدنى الفرنسى ، لندلى فيها بآرائنا ؟.. إن واجب الكاتب المسرحى أن يضع تلك المسائل على المسرح ، أمام الجمهور ، عارضًا الدواء لما فيها من داء ..

إنى لا أدهش « لدوماس » إذا بلغ هذا المدى ، فهو ذو المبدأ القائل بأن المسرح يجب أن يكون مفيدًا .. لذا نرى فنه يرتكز دائمًا على الأفكار الأدبية الاجتماعية . فلا يكاد يخلو عمل من أعمال فنه من البحث فى مسألة من هذه المسائل ، وبالخصوص المتعلقة بالمرأة ، وبالأخص مسألة الطلاق !.

---

(١) نشر هذا الفصل بنصه فى « التمثيل » التى كانت تصدر من نحو ثلاثين عاما ؛ بتوقيع : حسين توفيق !.

على أن من المجازفة الذهاب وإياه إلى هذا المدى ، وإلا اضطررنا إلى الخروج على قواعد الفن ، كما سيأتى ذكره !..

وقد عارض « دوماس »، فى رأيه ، الناقد المشهور « سارسى » معارضة شديدة ؛ — بل لقد جاء على نقيضه تماما ، إذ قال : إن الفن لا يرمى إلى الإصلاح الخلقى ، وإن الغاية الأولى للفنانين جميعهم ، هى إخراج عمل فنى جميل !.. أما الإصلاح الخلقى ، فقد يكون غاية ثانوية ، وهذا ما قال به « أرسطو » وأخذ به « راسين »!..

نحن إذا فكرنا قليلا ، فإننا نجد قول « سارسى » لا يخلو من الصحة .!.. فبالله من من الفنانين يود إخراج عمل مشوه معيب ؛ ارتكانا منه على غرض الإصلاح ؟ لعمرى ، إن كان يقصد الإصلاح الخلقى لذاته فعنده الطرق كثيرة — غير طريق الفن ، وبلا حاجة لتشويه الفن ؛— بل إن فى هذا الطريق القضاء على فكرة إصلاحه ؛ فالجمهور سيسفه العمل المعيب كله ، غير ناظر لفكرة الإصلاح فيه !.. إذن غاية الفنان الأولى هى — كما يجب أن تكون — إخراج العمل الجميل المتقن ؛ فهاهم أولاء كما ذكر « سارسى » — عظماء كتاب فرنسا : « كورنى » و « راسين »، و « موليير » وإن شئت فعظماء كتاب اليونان ، مثل « سوفوكل » و « أرستوفان »!.. كلهم أخرج آيات فى الفن !.. والحق ، لو دار بخلد أحدهم أن يجعل غايته الأولى الإصلاح الخلقى ، لما جاءوا لنا بفن ما ، ولكانت أعمالهم لا تخرج عن كونها أبحاثا فلسفية لا أعمالا فنية !..

إن « دوماس »، بتطرفه ، كاد ينسى أن التمثيل هو فن ؛ فتجب مراعاة قواعده !.. ما هو الفن ؟!.. أليس هو تصوير الحياة الإنسانية ؟.. هل للفن بأنواعه المختلفة غاية غير تصوير الحياة الإنسانية ؟.. التمثيل ، والتصوير ، والنحت ، والموسيقى والشعر ؟؟.. ألها غاية غير هذه ؟.. فالفن إذن هو تقليد ونقل وتصوير للحقيقة الكائنة ، وكلما أحكم التقليد والنقل قرب الفن من

الكمال ، والعكس صحيح !.. فلنضع أمامنا هذا التعريف ، ولنواجه الآن رأى « دوماس »، لنرى إلى أى حد ينطبق عليه هذا التعريف !.. يقول : إن غاية التمثيل الإصلاح ، وإن الكاتب إن هو إلا مصلح أخلاق ، فمن هو المصلح الخلقى ؟.. أليس هو ذلك الثائر على الأخلاق الموجودة أو بعضها ، الهادم للنظم المتبعة ، الناقم عليها ، الخالق لمبادئ جديدة يحاول إحلالها محل القديمة ؟؟. فالمصلح مخترع وخالق ،ـــ لا ناقل ، ولا مصور ، ولا مقلد !.. فالكاتب المسرحى ـــ إن كان مصلحا ـــ فهو لا شك سيوجد قواعد جديدة ، ولن يصور الحقائق الموجودة !.. فهل نستطيع وقتئذأن نسمى عمله فنًا ؟.. وظاهر أن تعريف الفن لا ينطبق على عمله ، فهو بمقتضاه مخترع لا فنان !.

رأى « دوماس » لا يستقيم إذن مع قواعد الفن ، إلا إذا اعتبرنا غرض التمثيل وغايته : تحليل الأخلاق الموجودة ، وأن الكاتب المسرحى هو كاتب أخلاق ، لا مصلح أخلاق !.. بهذا الحل الوسط، تتمشى مبادئ الفن ، مع أعمال من يقصدون معالجة المسائل الأخلاقية !.. وعندئذ ـــ وعندئذ فقط ـــ نستطيع تفهم أعمال : « كورنى »، و « راسين »، و« موليير »!. ويمكننا بسهولة أن ندرك قيمتها الفنية الكبرى !.. فأولئك الكتاب العظام كانوا كتابا أخلاقيين ، لا مصلحين !.. فمن « كورنى » الذى صور لنا البطولة والفضيلة الإنسانية ، بصورة المثل الأعلى ـــ إلى « راسين »، الذى قلد الحقيقة ، والطبيعة كما هى فى الواقع .. إلى « موليير »، الذى نقل أحوال الجماعات الممثلة ، وأخلاقها ، كما كانت فى عصره !.. كل هؤلاء خلقيون صوروا ونقلوا وقلدوا . وإن زاد التصوير ، أو قل عن الحقيقة ؛ـــ ولكنهم لم يدخلوا غريبا على الحقائق والمبادئ السائرة و لم يخترعوا فهم فنانون ، وإن أعمالهم ـــ بما فيها من تحليل للأخلاق ، ومن تصوير لما يجب أن تكون ولما هو كائن ـــ كان لها الأثر العظيم فى تطهير النفوس ، والسمو بها إلى مستوى أعلى ..

فنظرية « دوماس » خطرة ، من حيث إنها مذهبة لجمال الفن ، هادمة

لاستقلالــه، وليس أدل على ذلك مما صار إليه فن « دوماس » نفسه ، فمع أن أفكاره ونظرياته الاجتماعية ، والأخلاقية فى حد ذاتها قيمة ، وصفاته الشخصية ـــ ككاتب مسرحى ـــ معترف بها ؛ فإن إغراقه فى أبحاثه ونظرياته ، جعلت فنه مصبوغا بصبغة صناعية واضحة ، فظهر عليه التكلف !.. وإن أسلوبه الكتابى ، مع أنه حى مؤثر ، فإنه يبدو أحيانا ضخما أجوف ، تغلب عليه طريقة الخطابة !..

وهكذا نرى تدخل الأفكار المبتدعة ، المخالفة للحقائق فى التمثيل ، مفسدة له مشوهة لبهائه ، معرقلة لكماله !.. وكما قال « سارسى »، فى نقده « لدوماس » : إنه يخشى أن يصير الفن إلى أداة لنشر الدعوة ، فتذهب بذلك معالم جماله ، لأن نظرية « دوماس » تدعو بطبيعتها إلى تيسير العمل الفنى ، وتكييفه بحسب مقتضيات الفكرة الإصلاحية ، لا بحسب الحقيقة والطبيعة ، وبذلك يظهر العمل مشلول الحركة ، لا حياة فيه !..

ويجب ألا نعتقد أن فى إبعاد الفن عن ثورات الإصلاح تضييقا لدائرته ، أو تقليلا من فائدته !.. يكفى لفساد هذا الاعتقاد ، أن نتصور ما يبلغ إليه الفن من فوضى إذا ما تحول المسرح إلى ميدان للجدل ، وأصبح من يشاهد التمثيل كمن يشهد مجتمعا علميا ، فتضيع علينا تلك الفوائد التى نجنيها من رؤية الحياة أمامنا ، كما هى على المسرح !..

قال « دوماس »: إنه سيناقش على المسرح ، فى رواية سيخرجها حديثا ، نظرية وجود الله ، فقال معارضه « سارسى »: كم كنت أسروكم كان الجمهور يستفيد ، لو أن « دوماس » قال : سأصور على المسرح الماديين العصريين وسترون أى صورة محكمة التقليد سأظهرها .

من الواضح أن فائدة الجمهور أتم ، فى معالجة مسألة من المسائل التى تخصه . وتهمه ، ويتألم منها ، أو يشكو !.. هنا ، المسرح إذا حلل ، وحل تلك المسائل الموجودة بالفعل ـــ كان قد أدى ما يجب عليه !..

ومع ذلك فكلما مرت الأيام يظهر لـ « دوماس » مناصر لرأيه ، فها هو ذا اليوم « بريو » يجنح جنوح « دوماس » أحيانا ، وعندى أنه لا يمكن التنبؤ بمصير الفن ؛ فربما تتحطم غدًا تلك القيود التى نحافظ عليها الآن ، كما حطم المذهب الرومانتيكى القيود الحديدية ، التى حافظ عليها المذهب الكلاسيكى زمنًا طويلا !..

من صفات الكاتب المسرحى[1]

يعتقد الكثيرون أن فنا كالتصوير ، يحتاج فيه إلى موهبة خاصة ، أما فن التمثيل فلا يحتاج لمواهب ، ويكفى القليل من الذكاء للقيام بأعماله !...

هذا الاعتقاد باطل !.. ونقصر الكلام هنا على الكتابة المسرحية فنقول : إن الكاتب المسرحى شخص مستعد بطبيعته للمسرح ، وإن ما يتطلب منه — ليكون كاتبا مسرحيا — موهبة غريزية ، مستقلة عن المواهب التى تنتج فنا آخر ، ونوعا آخر من أنواع الأدب !..

ذكر « فكتوريان ساردو » فى خطبة له فى « الأكاديمى فرانسيز » صفة ، قال إنها لازمة للمؤلف المسرحى ، هى : أن تكون لمؤلف المسرح حاسة مسرحية ؛ بمعنى أنه لا يدع أمرًا ، أو شيئا يقع عليه نظره ، أو تسمعه أذنه ، إلا وتفرغه تلك الحاسة عنده فى الشكل المسرحى !.. وبعبارة أدق : ألا ينظر ويسمع ما يدور حوله بغير عين المسرح ، وأذنه !.. فإن رأى منظرًا طبيعيًا جميلا ، فلا يؤخذ بجماله من حيث الطبيعة — وإلا كان مصورا — بل يعجب به بعين أخرى ، ولغاية أخرى ، فيقول : ما أجمله منظرًا فى رواية !.. وإن أنصت إلى محادثة شائقة،أو محاورة طريفة ، قدرها بأذنه المسرحية ، فقال : ما أصلحه حوارا!.. وإن رأى فتاة ذات ميزة خاصة كالسذاجة ، أو المكر ، قال أيضًا بعين المسرح : ما أحرى مثلها بدور كذا !.. وهكذا فى كل شىء .. فإن قصصت عليه خبرا مثيرا ، كجريمة أو مصيبة ، سبق إلى ذهنه التصور المسرحى . وبرقت أساريره بالإعجاب ، وإذا هو يحدث نفسه : « موقف بديع !.. مأساة رائعة !.. »

---

(١) نشر هذا الفصل فى مجلة التمثيل ، بعددها المؤرخ ٢٩ مايو ١٩٢٤ م ، بتوقيع : « حسين توفيق »..

هذه الموهبة الخاصة ، والقدرة على تشكيل كل شيء بالقالب المسرحى ، هى قوة المؤلف المسرحى !..

ليس هذا فقط ؛ فكم من الحوادث يمر بنا ، وتشترك فى الشعور به حواسنا ، ومن المواقف المسرحية ما نصادفه ، ونشاهده كل يوم ، ومع ذلك لا نفطن إليه ؛ لأنه من الحياة العادية !.. ولكن قد ترى هذه الحوادث والمواقف عين أخرى تفطن لموضع الجمال منها ، فتستخرج منها ذلك العمل الفنى الذى نصفق له ونعجب به !..

ثم ألا يعرض لنا — فى الحياة مرارًا — أن يكتب لنا الطبيب تذكرة بها الدواء وجلنا بلا شك نتأمل التذكرة، وما كتب فيها بخط سريع لا يقرأ ، وساءل نفسه كثيرًا : « بالله كيف يستطيع الصيدلى المسكين قراءة هذه الطلاسم ؟ ».. وقد يدور بخلده إمكان خطأ الصيدلى ، واحتمال إرساله « مسهلا » بدلا من « مقو » !.. ألا يحدث هذا موقفًا مسرحيًا من النوع الهزلى ونحن لا نشعر ؟.. وقد ترى ذلك عين رجل المسرح ، فلا تلبث أن تجد فى رواية موقفًا كهذا !. شخص فى وليمة يتناول مسهلا على اعتبار أنه مقو أشار به الطبيب ، وإذا المسهل يفعل فعله ، وإذا الشخص المدعو أو الداعى فى الوليمة قد فطن للأمر ، وإذا هو فى مركز دقيق مضحك !..

كل هذا قد تراه على المسرح فتدهش وتعجب ، وتقول فى نفسك : « ما أعجب هذا الموقف »!.. ولو بحثت قليلا لعلمت أن المؤلف إنما نقل جزءًا من الحياة نقلا ، وأن حواسه المسرحية هى التى نبهته إلى ما يجب نقله أو محاكاته ، أو تصويره ..

وإنى لأرى الذهاب إلى أبعد من ذلك أحيانًا ؛ إذ لا أجد ضررًا فى التطرف ؛ فالكاتب كلما قويت فيه تلك الحواس المسرحية كان كاتبًا بالطبع ، لا صانعًا ، ولا مرتزقا ، وكان مثله مثل الشاعر ، بالفطرة !.. والكاتب الذى من هذا النوع — وهو عندى المثل الأعلى للكاتب المسرحى — تمتزج حواسه المسرحية بحواسه

الجثمانية ، امتزاجا لا يستطيع معه استعمال إحداها منفصلة عن الأخرى — فهو فى معاشرته لأهله ، وأصدقائه ، وفى جلوسه إلى خلانه وعارفيه ، وفى مصادقته لمن لا يعرفه ، — إنما يستخدم حواسه لفنه أيضًا ، فينظر إلى هؤلاء جميعًا بنظرة نافذة ، مستشفًا بها مستغلق أمرهم وحقيقة أخلاقهم ونوع مزاجهم ولون ميولهم ، — قاصدًا بذلك تفهم الناس — من حيث هم ممثلون — فى ملعب غير محدود ، متخذًا من حواسه هذه وملاحظاته ، الأداة الكاشفة التى يعثر بها على أشخاص رواياته !..

الباب الثامن

الأدب والصحافة

يقول الصحفى :
إنى أكتب ؛ ليقرأنى أهل زمانى !.. فيقول الأديب :
وأنا أكتب ؛ لتعاد قراءتى فى كل زمان !..

غذاء الشعب العقلى

قال « بول فاليرى » ، فى حديث له حول القراءة والكتب : إن الإنسانية فى جملتها لا تقرأ اليوم شيئًا غير الصحف !.. ثم انتهى إلى هذا القول المستغرب صدوره منه : « يجب تعليم تلاميذ المدارس أن يطالعوا الصحف !.. ولست أمزح ؛ ذلك أن الشعب ــ إذا كان هو الحاكم ــ فإن للحاكم أن يتسلم فى كل صباح تقريرًا عن حالة ملكه وحالة العالم !.. هذا التقرير موجود فى الصحف !.. على أنه ينبغى تعلم كيف يستخرج ذلك منها . إن تحليل صحيفة من الصحف ، وغربلتها ؛ هما رياضة على أكبر جانب من الفائدة وربما على أعظم جانب من القيمة أيضًا !.. إن الغذاء العقلى للجنس البشرى ، إنما يعد الآن إعدادًا فى مطابخ الصحف ؛ لأن الأغلبية الساحقة ــ ممن يعرفون القراءة ــ لا يملكون من الوقت لهذه القراءة أكثر من ساعة فى اليوم !.. وهذه الساعة ــ التى تختلس اختلاسًا أثناء ركوب « المترو » أو القطار أو الأكل فى مطعم ــ لا يمكن أن يشغلها غير الصحف » !..

هذه حقيقة لا يمكن أن تنكر ــ وهى حقيقة مخيفة ، يدهشنى كيف أن مفكرا ، من طراز « فاليرى »، يبسطها بهذا الهدوء !.. حقا ، لقد انتقلت مهمة تثقيف الشعوب ــ من أيدى الفلاسفة ، والكتاب والشعراء والخطباء ــ إلى أيدى الصحفيين !.. قديما كان الناس فى البدو والحضر يتناولون أيضًا غذاءهم العقلى فى كل حين ؛ لأن البشرية لم تنقطع يوما عن طلب الطعام الذهنى إلى جانب الطعام المادى !.. ولكنها لم تكن تعرف صحافة يومية ، ولا أسبوعية !.. كانت تعرف شعراء الحى ، وخطباء الهياكل ، وفلاسفة الأسواق !.. وكان أولئك فى جملتهم قوما ممتازين :أنبتتهم العبقرية ، وأرضعهم النبوغ .. كان الغذاء العقلى من يد هؤلاء ، بديعا فى أغلب الأحيان مصفى ، بعيدًا عن السخف

والإسفاف ؛ لأن الموهوبين لا يسفون ؛ وإن أرادوا !.. ! هكذا كان المطبخ العقلى فى الماضى ، فهل لنا أن نتفاءل بالمطبخ الحديث ؟..

* * *

فى رأيى — قبل التفاؤل أو التشاؤم — أن نتساءل أولا : هل نوع الثقافة يتغير بتغير المجتمع ؟.. لا شك أن هنالك شيئا يتغير ، وأن هنالك شيئًا ثابتًا لا يتغير !.. إن ألوان الطعام المادى قد تغيرت ، وتنوعت ، وتعقدت على مر الأحقاب والأزمان ؛ فاختفى العصيد والثريد ، وظهر فى المأكولات من مالح وحلو ، ومرطبات ومثلجات ؛— كل تنويع وتجديد !.. ولكن الفاكهة بقيت هى الفاكهة فى كل وقت ومكان ، كذلك حياة المجتمع تتجدد فيها المظاهر وتتعقد المشكلات ويظهر الراديو والسينما وأحدث النظريات السياسية والاقتصادية ، ولكن شيئًا فيها يبقى بلا تغير ، هو الإحساس بالجمال الفكرى والفنى ؛ فإن بيتًا من الشعر — هز بدوية فى خيمتها منذ ألف عام ، قد يهز حسناء اليوم فى خدرها طربا !.. وأسطورة خيالية شغف بها الأقدمون فى مصر ، أو الهند ، أو اليونان — قد تثير أوربا الحديثة عجبًا !.. فاكهة الذهن والقلب تبقى دائمًا نضرة !.. ما دامت شجرة الحياة الإنسانية باقية باسقة !..

* * *

إذا تذكرنا ذلك ، جاز لنا أن ننتظر من صحافة اليوم القيام بمهمة التثقيف العام ، لو راعت هذه الاعتبارات ، عند إعداد الغذاء العقلى للشعب .

* * *

الصحيفة المثالية فى نظرى ، مائدة يجب أن تكون حافلة بكل أنواع « الفيتامينات »، يتناول القارئ منها ما يزجى فراغه وينمى اطلاعه ويقوى عضلاته المفكرة !.. أمامن تقصر فى واحدة من هؤلاء فهى كالطعام الردىء يعطيك شيئًا ويمنع عنك أشياء !..

الأدب خادم للجماعة حافظ للقيم

عندما زار « مصر » الأديب الفرنسى « أندريه جيد » ــ وهو الذى منح جائزة « نوبل » للأدب ــ سألتنى صحيفة فرنسية أن أوجه إليه رسالة ، فكتبت أقول :

« نحن نرحب بأندريه جيد ، لا لأنه فقط أحد بلغاء المعبرين عن الضمير الإنسانى فى هذا الزمان ، ولا لأنه فقط رسول الثقافة الفرنسية التى نعرف لها قدرها ، بل لأنه ، بعد ذلك ، يذكرنا « بالدور » الخطير ، الذى ينتظره العالم اليوم من رجال الفكر !.. إن العالم اليوم ليضطرب فى لجة أفكار جديدة ، تماثل تلك الأفكار ، التى انبثقت مع الثورة الفرنسية !.. إن مبادئ « حقوق الإنسان » تقابلها اليوم مبادئ « حقوق الجماعة » !.. التعريف الحقيقى لعصرنا الحاضر هو : أنه عصر « الذرة » التى ظهرت قوتها ، وعصر « الكتل » « الآدمية » التى عرفت سلطانها !.. إن « الجماعات » لا تسمح الآن لمفكر أن يتجاهلها، أو يقف على بعد منها !.. إن أمواجها الهادرة الزاخرة تعلو إليه ، وتختطفه ، وترغمه على أن يعيش معها ، أو يغرق فى تيارها !..

لقد أصبح « للعدد » شخصية ذاتية ، وإرادة خاصة ، وحقوق مفروزة ، تريد أن تثبت وجودها إلى جانب حقوق الفرد ، وشخصيته ، وإرادته !..

« فالعدد » وقد أحس وجوده يصيح فى « الفرد »: أنت لى ، فكر لى أنا ومتعنى وسلّنى وكن فى خدمتى !.. فإذا انعزلت ، وانتحيت وفكرت ، لنفسك ولأقلية من الخاصة ؛ــ فحكمك عندنا حكم تلك الأرستقراطية المحاصرة فى هوجاء الثورة الفرنسية !..

أهو مبدأ الحرب بين « حقوق الإنسان » و « حقوق الجماعة » ؟.. أهو مبدأ الحرب بين « تفكير الفرد » و « تفكير العدد »؟..

وهل يؤدى ذلك إلى حرب بين روح « الكيف » وروح « الكم »، لم يسبق لعنفها مثيل من قبل فى تاريخ البشر ؟..

ما موقف رجل الفكر المجرد من هذه المشكلة ؟..

على أننى أخشى أن تكون هذه المسألة أعسر من أن يحلها فرد أو جماعة !.. وقد يكون مفتاحها فى يد الحياة نفسها ، أو القدر .. فنحن فى مبدأ الحرب أو فى صميمها بين قوتين .. و لم تنته هذه الحرب بعد لنعرف من المنتصر ؟..

ولكن ذلك لا يمنع من التنبؤ والافتراض !..

لنا على كل حال أن نتساءل : لماذا نتصور الحرب ؟.. وإذا كانت هنالك حرب حقا ، فلماذا لا يقوم الصلح بين الطرفين ؟.. لماذا لا نشبه « المفكر الفرد » بصخرة فى رأسها منارة ، قائمة فى وسط البحر — بحر العدد والجماعات !.. إنه ليس بمنأى عن ذلك البحر !.. وليس هو أيضا بالغارق فى لجته ، ولكنه مقيم فى أحضانه ، تحيط به أمواجه .. تضغط على صخرته دون أن تصل إلى رأسه ، أو تعبث بمصباحه !..

على هذا النحو تظل العلاقة موصولة بينه وبين الأمواج ، فهى تهدأ وتثور ، ولكنها تبقى راضية مطمئنة : أشعة المنارة منعكسة على صفحاتها ، منتشرة على صدرها .. فتتقبل النور بنشوة من الزهو ، فهذه المنارة العالية لا تضىء إلا لها ، ولا تنهض شامخة إلا بين يديها ، ولا ترسل هذا الوهج إلا إليها !..

ولكن الويل إذا علمت الأمواج أن هذا النور مرسل ، فوق ذلك ، إلى غاية أخرى وهدف أبعد .. وأنه يقصد ، فيما يرمى إليه ، أن يضىء أيضا طريق تلك السفن التى تسعى — فى المكان والزمان — حاملة خلاصة الكنوز العليا فى حضارة الإنسان !.. هنا قد يغضب البحر وتثور الأمواج بدافع من الكبرياء ، فهى فى « أنانيتها » لا ترى هدفا غيرها ؛— بل هى — فى مستواها وسوادها — لا تبصر سفنا ولا أفقا !.. إنما ترى ذاتها وحدها ، ولا تبصر ولا تعرف غير ذراتها ، ورغوتها وزبدها !.. ويحملها هواء الغرور على الهياج ، فتهب هادرة

مزمجرة تعصف بالصخر ؛ وتتطاول إلى القمة ، محاولة أن تضرب برذاذها المصباح !.. وقد تعنف زوبعتها وتشتد فتطيح بالمنارة من فوق الصخرة ، وعندئذ تغمرها وتغرقها فى جوفها منتصرة .. وقد تصمد المنارة راسخة فوق صخرتها تتلقى لطمات الموج ، وتمسح عن زجاج مصباحها الرذاذ ، وتمضى فى رسالتها صابرة مؤمنة ، ترسل نورها إلى صدر الأمواج ، وإلى الأفق البعيد !..

تلك صورة صغيرة للموقف ، لا أرى فى مقدورها أن تحل المشكل ، أو أن تجيب عن السؤال ، ولكنها فرض من تلك الفروض التى توضع موضع النظر !.. أما الحل الحقيقى فلا مناص من أن نطلبه فى أحداث العالم التى قد يتمخض عنها الغد .. فنحن مقبلون غدًا على ثورات فى الشعوب ، وانقلابات فى المبادئ وتطورات فى الأفكار ؛ ليس من السهل التكهن بعواقبها ، ولا الاجتهاد فى استنباط نتائجها !..

فلتفعل الأحداث فعلها ، ولتتغير الأشياء وتتطور وتتبدل طبقا لناموس الوجود .. ولنخفض غمار الحروب ، ولنتغير مع الأشياء ونتطور ، فما نحن إلا بعض هذه الأشياء !..

كل ما نرجو ونأمل هو ألا يغرق « الفكر » يوما فى ثورة الأمواج ، فيختفى من الوجود ، ويذهب نفعه للناس .. يجب أن يبقى « الفكر » دائما وأن يكون خادمًا للجماعات فى حاضرها ، حافظا للقيم العليا اللازمة لتطورها ، الراعية لمستقبلها !..

الأدب طريق إلى إيقاظ الرأى

إن مهمة الكاتب ليست فى مجرد إقناع القارئ بل فى التفكير معه !.. ما أرخص الأدب لو أنه كان وسيلة للهو !.. لا ، إن الأدب طريق إلى إيقاظ الرأى .. لا أريد من الكاتب أن يريح قارئه ويلهيه ، إنما أريد أن يطوى القارئ الكتاب فتبدأ متاعبه !..

أريد من القارئ أن يكون مكملا للكاتب ، ينهض ليبحث معه ، ولا يكتفى بأن يتلقى ؛ ثم يتثاءب فكره وينام !.. إن مهمة الكاتب ليست فى تخدير النفوس ، بل فى تحريك الرءوس !.. الكاتب مفتاح للذهن ، يعين الناس على اكتشاف الحقائق والمعارف بأنفسهم لأنفسهم !..

إن مهمة الكاتب فى نظرى هى تربية الرأى ، وكل كاتب لا يثير فى الناس رأيًا أو فكرًا أو مغزى يدفعهم إلى التطور أو النهوض أو السمو على أنفسهم ، ولا يحرك فيهم غير المشاعر السطحية العابثة ، ولا يقر فيهم غير الاطمئنان الرخيص ، ولا يوحى إليهم إلا بالإحساس المبتذل ، ولا يمنحهم غير الراحة الفارغة ، ولا يغمرهم إلا فى التسلية والملذات السخيفة التى لا تكون فيهم شخصية ، ولا تثقف فيهم ذهنا ، ولا تربى فيهم رأيًا ؛ــ لهو كاتب يقضى على نمو الشعب وتطور المجتمع !..

إن واجب الكاتب يحتم عليه أن يحدث أثرًا سامى الهدف فى الناس ، وخير أثر يمكن أن يحدثه عمل فى الناس ؛ هو أن يجعلهم يفكرون تفكيرًا حرًا ، أن يدفعهم إلى تكوين رأى مستقل ، وحكم ذاتى !..

الفن إذن أداة من أدوات خلق الذاتية !..

وهو لا يستطيع أن يؤدى هذه الرسالة إلا فى مجتمع حر !..

لذلك لم يخطئ أولئك الذين قالوا . « الفن هو الحرية » !..

والحرية هنا : هى الذاتية !..

يجب ألا يقوم فى المجتمع حائل يحول دون تحقيق هذه الذاتية الواعية !.. وما دام عمل الفنان لا يقتصر على إمتاع الحس ، وراحة الخاطر ، وتخدير الشعور ؛ بل يرمى إلى إيقاظ التفكير ، وتأكيد الذاتية ، وتدعيم الشخصية ؛ — فإننا لذلك نرى الفن لا يزدهر عادة إلا فى مجتمع بزغت فيه عوامل الإحساس بحرية الرأى ، ونرى الفن لا يموت عادة إلا فى مجتمع خنقت فيه حرية التعبير عن الرأى . لأن الفنان يجد عمله معطلا عندئذ من ناحيتين : من ناحيته هو — الذى لا يستطيع أن ينشئ فنايوحى بتفكير حر ، ومن ناحية الناس — الذين وقفت عقولهم فى هذا الجو الخانق عن النمو !..

فالجو الخانق إذن يصيب بالعطب والعطل فى الوقت عينه : أداة الإرسال ، وأداة التلقى !..

وبهذا يتم الشلل الفكرى فى الأمة ، وتكف شخصيتها عن النمو والنضج ، وتظل — بلا حراك — فى طور بدائى من الرقى البشرى ..

من أجل ذلك أرى أنبل جهاد للكاتب هو فى سبيل المحافظة على أداة الفكر والرأى . لأن هذه الأداة هى فى الكيان المعنوى بمثابة القلب : مضخة يجب أن تعمل حرة على الدوام ، لتكفل النمو والنضج والرقى للنوع الإنسانى ..

تربية الرأى العام

من نتائج الحضارة الحديثة ، وآثار التعليم الشامل الموحد ، ظهور ما يسمونه : « الرأى العام ».. أى شعور الجماعة نحو موقف من المواقف ، وقرارها إزاء مسألة من المسائل .. وهذا الشعور وهذا القرار ينبعان فجأة وفى الوقت عينه ، كأنهما خارجان من قلب واحد وعقل واحد .. لكأن هذا الرأى العام إذن كائن مستقل ، يخلق ويحبو وينمو — إلى أن يصبح قوة ناضجة ، محركة موجهة تؤثر فى الدولة والمجتمع ، ويحسب لها الحكام والمحكومون ألف حساب ..

كيف يوجد هذا الرأى العام ؟..

إنه يوجد كلما وجدت التربة الصالحة لظهوره ، وهذه التربة الصالحة هى الأمة الموحدة فى جنسها وعقائدها وتقاليدها وآمالها وأهدافها ..

وكيف يربى هذا الرأى العام ؟..

إنه يربى كما يربى كل صغير ، بالتعليم الشامل الواحد ، الذى يكون العقلية الواحدة الشاملة .. بهذا النوع من التعليم يشب « الرأى العام » على تفكير واحد يمكنه من أن يبت فى مسائله برأى واحد سريع قاطع !..

لقد كثر التساؤل عن « الرأى العام » فى بلادنا .. وهل له وجود حقيقى ؟..

فى رأيى أن بلادنا من أصلح البلاد تربة ، لوجود رأى عام ناضج قوى ، ولكن الذى يعوزنا هو الاهتمام بتربية هذا المولود .. التربية التى تؤهله لأن يصبح كائنا مستقلا ، واقفًا على قدميه ، يفكر بعقل واحد ، ويؤثر فى الدولة والمجتمع تأثيرًا ظاهرًا فعالا ..

التربة صالحة ، ولكن التربية مهملة !..

فكل شىء فى مصر يجعل هذا المولود مخلوقًا مشوها ، مضطربا مبلبل الفكر

مشتت الرأى ؛ لأن كل شىء فى بلادنا له نسخ متعددة وأثواب مختلفة !.. لدينا تعليم أجنبى ، وحكومى ، وأزهرى ، ودرعمى ، وجامعى ، وخارجى .. إلخ !.. ولدينا قضاء شرعى ، ووطنى !.. ولدينا أحياء أوربية وأحياء وطنية ، وأحياء مختلطة !.. ولدينا مطربشون ، ومعممون و « مقبعون » و « مبلدون » وحفاة ، ومحتذون ، و « مقبقبون » ولابسو الزى الإفرنجى ، والزى البلدى ، والزى المختلط .. أى طربوش ومعطف وجلباب .. أو « طاقية » و « بيجامة » و « قبقاب »!.. إلخ ..

كل هذا الخلط فى الأوضاع والتعليم والتربية والإطار الذى يعيش داخله الناس فى بلادنا — جعل لهم بالضرورة عقليات مختلفة ، كل عقلية تفكر تفكيرًا خاصًا ، وترى الدنيا من زاوية منفردة !.. وكان من أثر ذلك أن حبس كل فرد داخل حلقة منفصلة ، من وضعه الذى نشأ عليه !.. يحسب الدنيا دنياه ، ورأيه هو وحده الذى على حق ، لا يفهم جاره ، ولا يشعر بشعور مواطن آخر ، وبتفكك عقلية الأمة الواحدة ، أو عقلية الرأى العام الموحد إلى عقليات متعددة مختلفة متضاربة ،— يتم تفكك الشخصية لأمة من الأمم !.. وإذا تفككت شخصية أمة ، فمعنى ذلك انحلالها وموتها !..

لذلك كان من ألزم الأمور لنا المبادرة إلى الاهتمام بتربية « الرأى العام ».. تربية قوامها توحيد ثقافته الأولى وتوحيد محيطه ونظرته إلى الأشياء!..

إذا عنينا بهذه التربية الموحدة العناية الصادقة ، ظفرنا بعد قليل بأمة قوية الشخصية ، وبرأى عام موحد الثقافة ، متحد فى العقلية !..

الذوق العام

روت إحدى الفرنسيات البارزات : أنها قابلت يومًا أميرًا من أمراء « أوربا » فابتدرها يقول :

ـــ إنى شديد الإعجاب « بفرنسا »!.. حقا لقد أنجبت عباقرة خالدين !..

واعتقدت السيدة أنه يعنى أمثال « چان چاك روسو »، أو « ڤولتير » أو حتى « إميل زولا »!.. ولكن ذلك الأمير مضى قائلا :

ـــ نعم!.. نعم!.. يكفى أن يكون فيها ذلك العبقرى «چورج أوهنيه»!..

فكادت السيدة المهذبة تصعق،ذلك أن «جورج أوهنيه» هذا،ليس أكثر من كاتب يسلى الجماهير ، ولا يعلو كثيرًا عن كتاب روايات الجيب ، أو مؤلفى القصص الشعبية والبوليسية ، ولا محل له فى سجل الفكر العالى ، ولا مكان له فى صفحات الأدب الرفيع .

هذا مثل من أمثلة « الذوق العامى » !.. لا يشترط فيه أن يكون لأمير أو حقير ، ولا أن يوجد فى أمة دون أمة ، لأن مرجع « الذوق » إلى المدارك ، والإدراك ينمو أو يتضاءل ، ويسمو أو ينحط ـــ تبعًا لطبيعة الشخص ، وطريقة تهذيبه ومستوى تثقيفه ..

من اليسير أن نجد « الشعور العام » الموحد ، ولكن من العسير أن نعثر على « الذوق العام » الموحد ..

... لأن الشعور العام يصدر عن الضمير ، والضمير قلما يختلف بين إنسان وإنسان ، أما الذوق فيصدر عن المدارك ، وهى تختلف بين طبيعة وطبيعة ، وبين ثقافة وثقافة .. خذ شريرا ، وألق به فى خضم « الشعور العام » فإنك لن تجد وجهًا يشذ فيهش له ... واعرض طيبًا فلن تجد من يشيح عنه ، لأن الخير والشر كالماء والنار ، تميز بينهما كل فطرة ، دون حاجة إلى معرفة أو مرانة ؟..

خذ مفكرًا أو كاتبًا ، أو موسيقيًا ، أو مصورًا ، أو حتى سياسيًا ، واقذف به فى بحر الجماهير والجموع ، وانظر العجب الذى يكون .. هنا تختلف القيم وتضطرب المقاييس ، ويبلع البحر الكنوز وتلمع فوق سطحه الفقاقيع ، وتختفى اللآلئ فى صدره وتغوص ويبرق على شاطئه فارغ الأصداف لأن التمييز بين الجوهرة والزبد، التفريق بين الصدفة واللؤلؤة ـــ أمر لا يستطيعه فى كل الأحيان الضمير الطيب أو الفطرة السليمة ، لأن الزيف لا يظهر فى الناس صائحًا : « أنا زيف !.. » ـــ بل إنه يظهر قائلا : « أنا الصدق ، وغيرى الكذب » !..

ما من دجال فى الفكر ، أو الفن ، أو العلم ، أو السياسة ، ـــ إلا برز للناس فى ثياب لامعة براقة ، رائعة ، جليلة !.. وهو يملأ شدقيه بكلام خلاب ، يوحى إلى الجمهور الساذج أنه هو الذى يقدم إليه أروع ثمرات العقل والقلب ، وأجل نتائج الجهد والجهاد !..

كيف يستطيع الجمهور المسكين ، بإدراكه القليل ، ووسائله المحدودة ، وتثقيفه الضئيل ـــ أن يمد يده إلى الأثواب ، وينتزع القشر المطلى عن اللباب ، ويضع إصبعه على الحقيقة العارية المختفية من الخجل ، أو الغيظ ، أو الحياء ؟..

كم من الخبرة والقدرة يحتاج الإنسان ، ليفرق بين حقيقة فنان وفنان ، وعالم وعالم ، وكاتب وكاتب ، وسياسى وسياسى ؟

تلك مهمة لا تتسنى لغير جمهور من الخاصة ، أهلته طبيعته وعدته ، ومكنته هبته وثقافته .. ليتولى هذا الفرز والتمييز والحكم ، ويكون فى يده هو زمام الذوق الصحيح ، ويناط به هو المحافظة على القيم الحقيقية والمقاييس الباقية ..

ما دام الأمر كذلك فلن يكون هناك « ذوق عام ».. كما اعتدنا أن يكون فى المجتمع « رأى عام » !..

وكل ما يمكن أن يوجد فى هذا المجال هو « ذوق عامى ».. لا يفرق ولا يميز بل يأخذ الأشياء دون تمحيص ، واضعا الزجاج فى مستوى الماس ، والنفيس إلى جانب الرخيص .

الباب التاسع

الأدب والسينما والإذاعة

السينمائى الحق هو ذلك الذى يجعلك تدرك أعمق ما يمكن من اللمحة التى تخطف بصرك فوق « الشاشة » !.. والإذاعى الحق هو ذلك الذى يجعلك تعى أعمق ما يمكن من الأصوات التى تسمعها من خلال « الميكرفـون » !.. والأديب الحق هو الذى يجعلك تدرك عمقا جديدا ، كلما أعدت قراءة « الكتاب »..

الأدب والسينما

إذا ذكر « الأدب » تبادر إلى الذهن « الكتاب ».. والحق أن الكتاب هو فى أغلب الأحيان الوعاء الطبيعى ، الذى يحفظ فيه الأدب !.. وإن كان العكس غير صحيح ، فليس كل ما يوضع فى كتاب يمكن أن يعتبر أدبًا !.. ولما كان الكتاب أداة هينة بسيطة متينة تستطيع أن تلازم الإنسان فى كل زمان ومكان ، — فقد أتاح للأدب الذى يحويه أن يتخذ ما يحلو له من دقيق المعانى وبعيد المرامى ، ورفيع التعبير ، وعملية التفكير ، — اعتمادًا منه على أن القارئ فى مقدوره دائما أن يتمهل ويتأمل ويطالع ما بين السطور ويعيد القراءة ، ويعاود التفهم والبحث كلما شاء ! طبيعة الكتابة الثابتة يسرت إذن للأدب إثبات ما فى أغوار النفس والذهن ، وإيصاله فى أى وقت إلى القارئ مباشرة عن طريق ملكاته العاقلة !..

لو أردنا أن نضع الأدب فى إناء آخر ، ذى طبيعة متحركة ، فماذا يحدث ؟..

أول إناء متحرك وضع فيه الأدب من قديم هو : الفم ، فنتج ذلك النوع الذى نسميه « الخطابة » ، — أدب فى وعاء متحرك !.. أدب يلفظه الفم ، فتتلقاه الأذن ، وهذا الفم يتدفق تدفقًا ، دون أن يقف أو يعيد ما لفظ ، تبعا لمشيئة سامع !.. فما لم تتلقفه الأذن ويفهمه الذهن فقد ضاع على سامعه هباء !.. لذلك كان على الخطابة أن تتجنب فى كلامها كل ما يحتاج إلى وقت فى التفكير ، أو جهد فى الاستيعاب !.. هذا التجنب للفكر والتأمل والجهد والبحث ، — يحتم عليها الانصراف عن مخاطبة الرأس والاندفاع إلى مخاطبة الشعور !.. فالخطيب الجيد يجب أن يتخير نوع الكلام الذى يشعر أنه يؤثر فى عاطفة سامعه !.. والخطيب الجيد قد يكون كاتبًا رديئًا!.. كما أن الكاتب الجيد قد يكون خطيبًا رديئًا، فكلام الخطيب المفوه يسرك إذا سمعته ، ولكنك — إذا قرأته متأملا — فقد تجده سطحيًا أجوف ، كصوت الطبل الفخم الفارغ !. ذكر لى المرحوم « خليل

مطران » حادثة فى هذا الصدد ، قال : « كنت مدعوًا لإلقاء قصيدة فى حفل بأحد مسارح « القاهرة » وكان معى « حافظ إبراهيم » وقد أعد هو الآخر قصيدة لتلقى ، كما دفع « شوقى » بقصيدة له هو أيضًا لتلقى فى الحفل ، فألقيت قصيدة « شوقى » على الجمهور المحتشد فى المسرح ، فقوبلت بالاستحسان المصطنع !. ثم نهض « حافظ » وألقى قصيدته فصفق له الناس مجاملين !.. ثم نهضت ، وألقيت قصيدتى ، فصفق لى الناس فاترين !.. وإذا شاب ينهض ملقيًا قصيدة ، ذات عبارات حماسية ، وجمل طنانة ، بصوت مجلجل ، ونبرات مؤثرة ، وإذا المسرح يهتز اهتزازًا بتصفيق الناس ، والهتاف يتصاعد كالرعد من الحناجر !.. فمال « حافظ إبراهيم » على أذنى ، يبثنى امتعاضه وسخطه ، فهمست له قائلا : انتظر إلى الغد حين تنشر القصائد فى الصحف !.. وكان !.. ونشرت فى الغد القصائد !.. وقرأ الناس على مهل تلك المعانى الرائعة ، والصور البارعة ، والأفكار العالية ، والبلاغة السامية فى شعر « شوقى » و « حافظ »!.. !.. »

هذا ما رواه « خليل مطران »!.. وهناك قول مثل هذا رواه الناقد المسرحى « سارسى »، فقد كان يردد دائما قوله : « إن الشعر الجيد يقتل أحيانا الرواية المسرحية ».. فالشعر الجيد يقتضى عمقًا وثراء فى الفكرة والصورة والصياغة .. وكل هذا يفلت إفلاتًا من أذن السامع .. أو يلقى بردا وفتورًا على حركة الحوادث المسرحية !.. والعكس أحيانًا صحيح ، فالشعر الردىء قد يخدم الرواية المسرحية ،.. فالشعر الردىء هو ذلك الكلام المنتفخ بالأقوال المأثورة التى يعرفها الجمهور سلفا ، فتمس ذاكرته وتهيج أشجانه ، فتنطلق أكفه بالتصفيق دون أن يعى أو يفكر ..

من هذا يتضح أن الوعاء المتحرك ، لا بد له من مادة سريعة الاستيعاب !.. وإذا كانت خطب الخطباء يمكن أن تحفظ بعدئذ فى الوعاء الثابت بوضعها فى كتاب ، وكذلك المسرحيات ، يمكن أن تحسب فى الأدب الثابت بوضعها فى

كتاب !. فمن ألوان الفن ، ما لا يمكن أن يقدم إلى الناس إلا فى وعاء واحد ،— هو الوعاء المتحرك ، من ذلك فن الصور المتحركة : « السينما » !.. فهى فن السرعة التى تخطف البصر .. وهى من أجل ذلك يجب أن تتجرد من كل ما يدعو إلى التمهل !.. فأنت فى « السينما » لا تستطيع أن تتمهل ، لتفهم أو لتتذوق أو لتعجب أو حتى لتصفق ، دون أن تفوتك عجلات الشريط التى تدور بسرعة البرق !.. ولا تستطيع انتظار من يريد أن يتأمل أو يتفكر !.. هذا الفن السريع يقوم على لغة أخرى غير لغة الأدب المكتوب !.. قال لى مخرج أجنبى ذات يوم : « إذا أردت أن تعبر عن معنى من المعانى ، فإنه تكفيك عبارة لغوية قوامها الكلمات !.. أما أنا فأحتاج إلى عبارة سينمائية قوامها المرئيات !.. » والحق أن فنان « السينما » عليه — قبل كل شىء — أن يترجم كل فكرة إلى حركة منظورة !.. فى حين أن الأديب يترجم الحركة المنظورة إلى فكرة !.. فوقائع الحياة وأحداث المجتمع وحوادث الأفراد ،— تمر أمام الأديب فيلاحظ دقائقها ، ويحاول تصويرها ونقلها إلى الورق !.. وهى ذاتها تمر أمام رجل « السينما » فيلاحظها هو الآخر فى دقائقها ويحاول تصويرها ونقلها إلى « الشاشة »، غير أن هنالك فرقًا كبيرًا بين عمل الرجلين : فالسينمائى ينقل أمام مشاهده صورة بالفعل .. ولكن الأديب لا ينقل إلى قارئه صورة ، بل ينقل معنى !.. هذا المعنى هو الذى يثير فى رأس القارئ صورة !. فالأديب إذن لا يستطيع أن ينقل الصور إلا عن طريق المعانى ، على حين أن رجل السينما يستطيع أن ينقل الصور صورًا عن طريق مباشر .. » فالمعانى إذن أداة الأديب .. كما أن الصور المرئية هى أداة السينمائى .. ولما كانت المعانى أوسع نطاقا ، وأعمق عالما من الصور المرئية ؛ لأنها تشمل ما يرى بالعين ، وما لا يمكن أن يرى ؛ كما تشمل كل ما يمكن أن يقع فى مرتفعات العقل المتأمل وفى أغوار النفس المعقدة،وفى أبعاد الذاكرة المظلمة ، — وكل ما يسبح فى محيط الفلسفة ، والتصوف ، والتفكير ، والتجرد !.. فلذلك وقفت السينما أمام واجهة الأدب المنظور البراقة ، دون أن تجرؤ على ولوج بابه ،

والتوغل فى دهاليزه وسراديبه !..

هذا ما يلاحظه دائما أولئك الذين يقرءون قصص الأدباء العظام فى الكتب ثم يشاهدونها بعد ذلك مصورة على « الشاشة » فى السينما .. ما أقسى النقد الذى وجه إلى قصة « آنا كارينينا » لـ « تولستوى » فى السينما !.. وإلى قصة « إخوان كارامازوف » لـ « دستوفسكى » .. وإلى قصة « مدام بوفارى » لـ « فلوبير » .. بل إلى قصة « ذهب مع الريح » أيضًا ، على فرط ما بذل فى إخراجها من جهد ، وعلى قلة ما فيها من معان أدبية عميقة !.. أكثر من قرأ هذه القصص فى الكتب ، خرج بعد مشاهدتها فى السينما ، يوازن بين الأثر الذى أحدثه الكتاب فى نفسه ، والأثر الذى أحدثته « الشاشة » ، — فيرجح أثر الكتاب ، موقنا أن شيئا ما قد أفلت من قبضة السينما !.. هذا الشىء الذى أفلت هو الجانب غير المنظور ، الذى يستطيع القلم أن ينقل معانيه إلى روح القارئ . ولا تستطيع « الكاميرا » أن تبرزه فى صورة تتحرك أمام نظر المشاهد !.. وليس هذا عيبًا للسينما إنما تلك طبيعتها ، وتلك حدود قدرتها بالنسبة إلى الأدب ، فعالم الكتاب أضخم ، وأعمق ، وأغنى من عالم « الشاشة »: — لأن القلم يصل إلى أبعاد فى الفكر والنفس ، لا تصل إليها « الكاميرا » !..

كثير من الأدباء لا يريد أن يفهم ذلك — عندما ينقل أثرًا من آثاره إلى السينما — فهو يتطلب من السينما التعبير الكامل عن تفكيره وأسلوبه !.. إنى لم أزل أذكر تلك القضية التى رفعها الكاتب المسرحى « هنرى برنستين » ضد إحدى الشركات السينمائية ، لأنها رأت — وهى تنقل إحدى تمثيلياته إلى « الشاشة » — أن تنبذ حواره المسرحى الرائع الذى اشتهر به ، وأن تلجأ إلى أحد صناع الحوار السينمائى ليقوم بالمهمة ؛ فأداها بالطبع على نحو سخر منه الكاتب المشهور ، وثار له ، ولكن الشركة قالت : إن روعة الحوار الأدبى لن يتذوقها جمهور السينما الكبير ، لن تكون إلا عقبة فى سبيل تتبعه لحوادث الشريط !..

وجمهور السينما — الواسع المنتشر فى أسواقها الكثيرة فى انحاء العالم — عقلية

واحدة على اختلاف أجناسه !.. هذه العقلية يدرسها رجال السينما أدق دراسة ، وهم يبنون مشروعاتهم الفنية على أساس هذه العقلية ، فهم ينتجون قصصهم السينمائية استنادًا إلى مستوى معين من الإدراك العام ، يوقنون أنه فى مقدور مختلف الجماهير فى مختلف البلدان !.. ذلك أن السينما ليست حتى الآن مجرد فن ؛ــ بل هى إلى جانب ذلك صناعة !.. والفرق بين الصناعة والفن : أن الفن فى جوهره تعبير حر عما فى نفس الفنان ، دون نظر إلى أى اعتبار ــ فى حين أن الصناعة هى تعبير عن حاجة السوق وحالة المستهلك !.. وهذا ما جعلنى أوجس منها خيفة ، وأتردد فى الاقتراب منها كثيرًا !.. ولقد أصغيت أخيرا إلى أحد المخرجين ، وتركته يعرض علىّ ــ سرا فيما بيننا ــ مشروعه لقصة أراد أن ينقلها عن كتاب لى ، فهالنى أنه أخذ المظهر والحوادث ، وترك اللب ، فلما ناقشته فى ذلك قال : الجمهور فى السينما لن يفهم غير هذا الجانب الظاهر الواضح !. والمهم لدينا هو أن نجعل الجمهور يفهم ما يعرض !..

من الحق أن نذكر لبعض المخرجين محاولات أملتها المقاصد الفنية الرفيعة ، تناولوا فيها بعض آثار « شكسبير »، وأظهروها على « الشاشة »، متوخين المحافظة بقدر المستطاع على روح الشاعر ، وتفكيره ، وأسلوبه !.. من ذلك قصة « حلم ليلة صيف » التى أخرجها للسينما « ماكس راينهارت » الألمانى فى هوليود ». قبل الحرب العالمية الثانية بسنوات !.. ومن ذلك أيضا « هملت » التى أخرجها أخيرا فى « إنجلترا » الممثل الإنجليزى « لورنس أوليفيه »!.. على أن هذا الحرص الشديد من هذين المخرجين على أسلوب الشاعر وفكره أرغمهما ــ عن وعى أو غير وعى ــ على الابتعاد عن طبيعة السينما ، والانزلاق إلى طريقة المسرح ، فجاء عملهما أقرب إلى التصوير الفوتوغرافى للمسرحيتين ، منه إلى الوضع السينمائى بمعناه الحقيقى ،.. فمخرج « هملت » مثلا ــ لفرط إعجابه بشعر « شكسبير »ــ تركه كما كان فى المسرحية ، يؤدى مهمة المعبر الأول عن كل مراميها ، واكتفى بتصوير الممثلين وهم يلقونه إلقاء .. فى حين أن طبيعة

السينما كانت تقضى بتحويل هذا التعبير الكلامى إلى تعبير بالحوادث المرئية ، وأن ينقل « الكاميرا » فى الزمان ، والمكان والماضى والحاضر ؛ — لا أن يثبتها داخل قلعة « إلسينور » طول الشريط كما كان الحال فى المسرحية،.. للسينما أسلوبها الخاص ، كما أن للمسرح أسلوبه الخاص .. ومن الإنصاف أن أقول : إن فى مقدور السينما أحيانًا — عندما تعثر على السينمائى الفنان الحقيقى — أن تصل إلى الشعر بوسائلها الخاصة ؛ فمن أساطير « والت ديزنى » الطويلة ما يكاد يكون من الشعر ؛ ثم من ذا الذى شاهد رواية « الساحر أوز » ولم يهتز لما توحيه من شعر ؟!.. شعر ساذج بسيط ، يخرج من الصور والألوان ، لا من المعانى والكلمات ، ولكنه يملأ النفس براءة وراحة وصفاء !..

فالأدب إذن بشعره يستطيع أن يكون هو روح السينما ، وأن ينجح بها وتسموبه ، على شرط أن تحتفظ هى بطبيعة كيانها الخاطف المتحرك !.. كذلك يستطيع الأدب ، بفكره أحيانا أن يحل فى رأس السينما ؛ فيرتفع بمعناها ومرماها — على شرط أن تبسط ذلك الفكر ، وتحلله إلى عناصر سهلة ميسرة ، فى أشعة بصرية سمعية ، تسرى فى نفوس الناس ، دون أن تقف طويلا بعقولهم ، أو تستوجب جهدًا فى الالتفات ، أو بحثا عند التلقى !..

إن السينمائى الموهوب ، هو ذلك الذى يجعلك تدرك أعمق ما يمكن من اللمحة ، التى تخطف بصرك فوق الشاشة ، على حين أن الأديب الموهوب ، هو ذلك الذى يجعلك تدرك عمقا جديدًا كلما أعدت قراءة الكتاب !..

الأدب والإذاعة

الإذاعة ـــ هى الأخرى ـــ ، كالسينما وعاء متحرك للفن والأدب !.. وإذا كانت العين هى عماد السينما،فالأذن هى عماد الإذاعة!..وهنا نقطة الاختلاف بينهما؛ فرجل السينما يتخذ من البصريات لغته التى يعبر بها عن مراميه، ويؤثر بها فى مشاهديه،ولكن رجل الإذاعة يتخذ من الصوتيات لغته التى يسيطر بها على سامعية!..

هذا الاختلاف فى الأسلوب لا يحول دون الاتفاق فى الطبيعة ؛ فكلاهما يدرك صفته المتحركة ، وما تقتضيه من تبسيط يغنى العقل عن المراجعة !.. فالإذاعة تدرك أنها صيحة عابرة ، لا تقف حتى يسمعها من ذهل أو يفهمها من جهل !.. كما تدرك مع السينما جانب الصناعة فيها ، وما تستوجبه من مراعاة المستوى الشائع لجمهور المستمعين !... هـذا الجانب الصناعى ـــ فى الإذاعـة والسينما والصحافة ـــ له أثره ، واعتباره فى نوع الإنتاج وأهدافه !. فتلك أدوات لا تقوم إلا على نظام المؤسسات أى على نظام جماعى يعامل جماعات .. فهى كلها إذن لا تستطيع أن ترضى جماعة دون جماعة ، أو توافق ذوقا دون ذوق .. وهى دائما تضع فى حسابها حل هذه المشكلة : إرضاء ذوق الأغلبية الغالبة !..

نظام المؤسسة هذا لا نجده فى أدب الكتاب ، ولا فى حساب الأديب .. فالأديب الحق يضع تفكيره وأسلوبه فى صدر كتابه ، ويترك بعدئذ كتابه يمضى فى الزمان والمكان ، حاملا الضوء لمن يريد هداية !.. هدف الأديب تبليغ الناس رسالته ، وهدف المؤسسات اجتذاب الجماهير ، وهى لذلك قلماتفرض رأيا بعينه ، أو تبلغ رسالة بعينها ؛ خشية ألا يعجب العدد الذى لا تعنيه تلك الرسالة ، ولا يهمه ذلك الرأى !.. ولكنها فى بعض الأحيان ـــ عند ما يكون عليها واجب الخدمة العامة ، كالإذاعة الرسمية فى دولة من الدول ـــ تحاول تخصيص قدر من برنامجها لأصحاب الثقافة الرفيعة من المستمعين ، وهذا ما تسميه إذاعة ـــ

كالإذاعة البريطانية فى « لندن » ـــ بالبرنامج الثالث !.. ولعل الإذاعة أقدر من السينما على أن تبلغ رسالة الفن الرفيع بانتظام ، على قدر ما تسمح لها به طبيعتها المتحركة !.. ففى إمكانها تخصيص محطة أو برنامج لهذا الغرض ، دون أن يؤثر ذلك فى مجرى الإذاعة العامة للناس كافة !..

هنالك سؤال بعد ذلك يجب أن يطرح : هل الإذاعة فن ؟.. هذا السؤال قد طرح بالنسبة إلى السينما ، فكان الجواب فى أغلب الأحيان بالإيجاب !.. والأمر فى السينما واضح ؛ فالقصة السينمائية أثر له وحدته وطابعه ، شأن القصة المسرحية ـــ ولكن الإذاعة ببرنامجها اليومى « جراب » طويل ، يحوى أشتاتا مختلفة لا وحدة بينها ولا طابع : من أخبار ، إلى أغان ، إلى تمثيليات ، إلى أحاديث ،ـــ إلى أركان للمرأة ، والطفل ، والزارع ، والعامل ،.. إلخ .

فالإذاعة فى حقيقة الأمر ليست سوى صحافة مسموعة !.. فهل الصحافة فن بالمعنى الذى يطلق على الفنون الجميلة المعروفة ؟.. إن الفن يقتضى وجود فنان ـــ أى خالق لأثر فنى !.. فمن الفنان بهذا المعنى فى الصحيفة السيارة ؟.. أهو رئيس التحرير ؟.. أم سكرتير التحرير ؟.. ما من شك فى أن الصحافة فن يحتاج إلى استعداد وموهبة ودراية وتجربة !.. ولكنه فن مختلف ، لا يجوز أن يدرج بين الفنون الجميلة المعروفة فالصحيفة كالمصنع .. ولعل أقرب الأشياء فى وصفها أنها فن صناعى ؛ فالشبه قريب بين مدير التحرير ومدير المصنع !.. كلاهما يعمل وبقربه ضجيج آلات !.. الإذاعة أيضًا ـــ هذه الصحافة المسموعة ـــ لا ريب فى أنها فن ولكنه فن صناعى أيضًا ، وهى الأخرى تعيش فى جو الآلات !..

على أننا لو نظرنا إلى التفصيلات ، وجدنا فى الإذاعة ما يمكن أن يوصف بالفن ، ومن يمكن أن يسمى بالفنان !.. ذلك هو المخرج الإذاعى فى البرنامج !.. من ذا ينكر على هذا العمل صفة الوحدة والطابع ؟!.. إن من تمثيليات الإذاعة ما يكاد يصل ـــ بأسلوب تقطيعه وانتقاله ، ومؤثراته الصوتية ، وأغانيه ،

وموسيقاه ونبراته التعبيرية؛— إلى طاقة فنية تثير الإعجاب!..

هذا الفن الإذاعى يدخل كثير من عناصره وأسراره فى نطاق السينما الناطقة.

كما أن الكثير من عناصر السينما يقترن بالإذاعة فى فن جديد هو « التلفزيون».. هذا الفن الثالث الذى يلخص ما عند الاثنين.. آتراه يقضى عليهما؟..

ما من أحد يدرى!.. أغلب ظنى أنه سيؤكد وجودهما، ويمد فى عمرهما؛ لأنه سيتخذ منهما مادته وغذاءه، فكما أن الإذاعة استمدت من المسرح غذاء لها، سيستمد «التلفزيون» من السينما والمسرح غذاء له!.. وقد تموت الإذاعة بوضعها الحاضر، وتندمج فى «التلفزيون»، كما ماتت السينما الصامتة، واندمجت فى السينما الناطقة؛ فلا يبقى على قيد الحياة أخيرًا غير الأنواع التى لا يكرر بعضها البعض!.. وما من جدال فى أن السينما لا تكرر المسرح؛ لذلك سيعيش المسرح!.. لكن، ألا يكرر التلفزيون السينما؟!.. أتكون هنالك حاجة إلى السينما بعد شيوع التلفزيون؟.. إذا أصبح التلفزيون صحافة مسموعة مرئية، فلا بد أن تبقى السينما مقصورة على الرواية الطويلة الفنية— دون الجريدة المصورة، والأخبار السينمائية!..

ومع ذلك؛ لماذا تموت السينما بوضعها الحالى؟.. ألأن الناس سيقبعون فى المنازل، يشاهدون، ويسمعون من خلال التلفزيون كل ما كانوا يذهبون من أجله إلى قاعات السينما؟!..

العكس هو المحتمل الحدوث!.. لقد دلت التجربة على أن الناس يضيقون بمشاهدة الفنون محبوسين فى حجرات البيوت، وأنه لا غنى لهم أبدًا عن ارتياد المحافل العامة؛ ليرى بعضهم بعضا، ولينعموا بالتمثيل، والغناء، والموسيقى فى الجو الحار، المصطخب بروح الجماعة.. هذا الروح القديم المتأصل فى نفوس البشر، منذ كانوا يحضرون حفلات الدين والفن جماعات!..

فالحفلات العامة ستبقى إذن دائمًا؛ سواء فى السينما، أو التمثيل، أو الغناء، أو الموسيقى، أو حتى المحاضرات والمناظرات وغيرها من أنواع الاجتماعات.. وستعيش أكثر قوة، وأشد تألقًا مما كانت؛ لأنها ستكون هى المادة الأساسية التى يستغلها، ويتغذى بها، ويعيش عليها التلفزيون!..

نجوم العين والأذن

من المسئول عن الأثر الفنى فى وحدته وأسلوبه وطابعه فى الأدب المكتوب ؟.. لا جدال فى أن المسئول عن شخصية العمل الأدبى وطابعه هو الأديب ، مؤلف الكتاب !.. ولكن الأمر يحتاج إلى نظر فى القصة السينمائية أو التمثيلية الإذاعية !.. فعلى الرغم من قوة الموضوع ، وقدرة الممثل ؛ــ فإن من العسير أن نحكم بأن واحدًا منهما بعينه هو المسئول الأول عن الوحدة النهائية ، والطابع الشامل للعمل كله .. أرجح الرأى أن المسئول الأول عن ذلك فى السينما والإذاعة هو المخرج ..

كتبت ذات يوم أقول : إن الكاتب الحق لا يمكن أن يلذ له تأليف « سيناريو » للسينما ؛ ذلك أن السينما تخضع كل شىء لإرادة المخرج ، فمخرج السينما هو المنسق لكل شىء . هو العملاق الذى يطبع العمل كله بطابعه .. فما صانع « السيناريو » ، وما واضع الحوار ، وما مهندس المناظر والصوت ، وما المصورون والممثلون إلخ ؛ــ سوى عناصر متفرقة ، وأجزاء أشتات والمخرج جامعها وموحدها وموجهها إلى حيث يصبها فى القالب الذى يريد !.. مثله مثل الكاتب الأديب فى ميدانه ؛ فالكاتب الحقيقى هو أيضًا ذلك الذى يخضع كل شىء لمشيئته .. هو الذى يجمع الصور ، والمشاهدات والملاحظات والتجاريب الشخصية ، وحوادث المجتمع ، وأخبار التاريخ وأساطير الأولين !.. ويستخلص من هذا كله أو بعضه عناصر وأجزاء يؤلف من بينها عملا فنيًا موحدًا قائمًا بذاته !. فالكاتب الحقيقى هو ذلك الذى يخلق عالمًا زاخرًا بالأشخاص التى تحيا وتسعى وتشعر وتفكر ــ دون أن يحتاج فى إنشاء هذا العالم إلى غير قلمه وحده !. لهذا السبب يجب أن نفرق بين المسرحية ، وبين « سيناريو » السينما وتمثيلية الإذاعة ! فسيناريو السينما لا يمكن أن يقوم بذاته ، ويقرأ منفصلا ؛

كقطعة من الأدب !.. وكذلك الحال فى تمثيلية الإذاعة ؛ لأنهما مجرد عناصر فى عمل أشمل !.. ولا يملكان حياة مستقلة خارج « الفيلم » أو بعيدًا عن « الميكرفون » !.. وإذا أتيح لقارئ أن يطلع على الكراسة النهائية للسيناريو ، معدة للإخراج السينمائى أو على كراسة تمثيلية معدة للإخراج الإذاعى — فإنه يجد شيئا لا يصلح للقراءة !.. يجد الجانب القصصى فيهما مبتورًا، والتعبير الأدبى قاصرًا والحوادث والأشخاص ترى وتوصف وتجدد معالمها بطرق أخرى غير طريقة التعبير الكتابى !.. وبغير التسلسل المعهود فيما يكتب لينشر ويقرأ !.. كما يجد إلى جانب ذلك اصطلاحات فنية لحركة « الكاميرا » وخطوط سيرها ، أو لحركة « الميكرفون » وقربه وبعده ، وإشارات الموسيقى ، وتضخيم أو تصغير الصور والأصوات ، وغير ذلك من وسائل التعبير السينمائى والإذاعى التى تملأ الكراسة وتعمل مجتمعة على تكوين وحدة العمل !..

فسيناريو السينما ؛ كتمثيلية الإذاعة : كلاهما جزء من كل — جزء لا قيمة له بمفرده ؛ لأنه بمفرده ليس له كيان أدبى وفنى يمكن أن ينشر على حدة ويكون له قوة التأثير والتعبير الذاتية التى للأعمال الأدبية !.. كاتب السيناريو إذن ، وكذلك كاتب تمثيلية الإذاعة ، لا يمكن أن يعتبرا من الكتاب بمعناهم المعروف فى الأدب — على عكس كاتب المسرحية ، فهو يستطيع — إذا كان أديبًا — أن يكون مقروءًا لذاته وبذاته ؛ فـ« شكسبير » و« موليير » و« جوته » كتاب حقيقيون ؛ لأن قصصهم التمثيلية استطاعت أن تبرز للإنسانية عوالم هائلة رائعة ، تقوم بنفسها بمجرد القراءة — دون الالتجاء إلى مسرح وممثلين !.. ولو كانت آياتهم وآثارهم احتاجت كل الاحتياج إلى التمثيل ؛ لتولد وتوجد ، وتقوم على أقدامها ، لما سميناهم كتابًا وأدباء !.. فالكاتب الأديب هو دائمًا كل لا جزء !.. بل إن طبقات الكتاب تختلف أحيانًا باختلاف قدرتهم على هذه الكلية وهذا التمام . فالكتاب العظام فى نظرى هم أولئك الذى منحتهم السماء كل مفاتيح المشاعر البشرية !.. فهم قديرون على الإبكاء والإضحاك والارتفاع بالمشاعر

والأفكار إلى قمم الخيال والشعر والتصوف والهبوط بها إلى أرض الواقع والطبيعة الدنيا !..

من أجل ذلك كان أيضًا هؤلاء الثلاثة الذين ذكرتهم كتابًا عظامًا كاملين ؛ فـ « شكسبير » فى كوميدياته وفى مآسيه ، وفى شعره ؛ — قد طاف بكل ما عرف الإنسان من مشاعر ، وتألقت أعماله بكل أشعة الكون الفكرى المعروف !.. وكذلك « موليير » قد أثبت فى بعض قصصه أنه قدير على الجد قدرته على الهزل !.. أما « جوته » فهو العبقرية الجامعة الشاملة !.. فى حين أن كثيرين غيرهم اقتصرت عظمتهم على ناحية من نواحى الإحساس الإنسانى . فجاءت عوالمهم التى خلقوها كواكب رائعة باهرة ، سابحة هى الأخرى فى الكون الفكرى ، ولكن أشعتها لا تحوى كل ما فى قوس قزح هذا الكون من ألوان وأضواء !.. إن الكاتب العظيم لاعب بارع بكل الأوتار !.. وهو أحيانًا — شأنه شأن المخرج السينمائى والإذاعى — يستطيع أن يضع طابعه على أعمال ، أجزاؤها ليست من صنفه !.. فـ « شكسبير » قد هبط على كثير من القصص الإيطالى ، و « موليير » على كثير من القصص الأسبانى و « جوته » على كثير من أساطير القرون الوسطى !.. الكاتب العظيم ، كالفاتح العظيم ، يقع أحيانًا على أرض ليست له فيخضعها لسلطانه ، ويقر فيها نظمه وأحكامه ، ويصبغها بلون تفكيره وحضارته ، ثم يضع عليها راية عبقريته ، ليعترف بها التاريخ !.

ولقد أثبتت السينما أن من بين مخرجيها من يستطيع أن يكون فنانا عظيما ، له طابع يتميز به ، وأسلوب يؤثر عنه . فهناك مثلا سيسيل دى ميل ، باتجاهه إلى موضوعات التاريخ أو الأساطير يبرزها فى إطار ضخم فخم ، كما فعل فى شريطه الأخير « شمشون ودليلة » وهناك « أرنست لوبتش » ؛ بميله إلى السخرية اللاذعة ؛ كما كان يمثلها شريطه المسمى « نكون أو لا نكون » !.. وهناك « هتشكوك » ؛ بحبه لإظهار البراعة ، واستخدام الإيحاء ، وإشاعة جو السر والغموض ؛ كما ظهر فى شريطه « ربيكا » !.. وهناك « هوايلز » ؛ فى عزوفه عن

البراعة ، وحبه لإخفاء حذقه تحت ستار البساطة ؛ كما فعل فى شريطه « أجمل أعوام حياتنا!.. » وهناك « رنيه كلير »؛ بنزوعه إلى الفلسفة الساخرة ؛ كما صنع فى شريطه عن « فوست ».. إلخ .. إلخ

كل واحد من هؤلاء يستخدم « الكاميرا »؛ استخدام الأديب للقلم ، يعبر بها عن لون طبيعته واستعداده ، ونوع نبوغه المكتسب بالهبة ، أو المكتنز بالخبرة !..

وما من شك فى أن للإذاعة أيضًا مخرجيها الممتازين .. وإن كان ذلك على نطاق أضيق ومجال أصغر !.. فالإخراج الإذاعى ليس له حتى الآن الأهمية والمسئولية التى للإخراج السينمائى ، لأن تمثيلية الإذاعة ليست سوى فقرة واحدة بين فقرات كثيرة ، فى سلسلة البرنامج الطويل !.. وقد يكون لمحدث بارع أو محاضر بارز أو مغنية مشهورة من الاعتبار عند السامعين ؛ ما تتضاءل إلى جانبه بقية الفقرات !.. وقد يكون لمخرج الإذاعة أهمية أكبر إذا تقدم « التلفزيون »!..

لكن ، أترانا غالينا فى أهمية المخرج بالنسبة إلى العمل السينمائى ؟.. هل معنى ذلك أن الممثل المشهور ، والمغنية الممتازة ، والمؤلف الكبير ، والمصور القدير :ـ كل أولئك ليس لهم فى نظر الجماهير وجود ولا تقدير ؟!.. ربما كان الواقع أحيانًا هو العكس ، فالجماهير قد تذهب أفواجا إلى رواية سينمائية ، لتشاهد ممثلة ، أو لتسمع مغنية ، أو لترى قصة مؤلف !.. بل أكثر من ذلك : ربما كان الإخراج رديئًا ، ولكن الرواية قد تنجح بسبب مؤلف ، أو ممثل ، أو مغن !.. بل فى أغلب الأحيان ، وإلى عهد قريب ما كان الجمهور يذهب قط إلى السينما من أجل مخرج !.. وما كان اسم المخرج مهما يبلغ شأنه هو الذى يجذب الناس أو يدفعهم إلى الحضور !..

كل هذا صحيح ، وملاحظ فى كل يوم ، ولكن ذلك لا يغير شيئًا فى تلك الحقيقة الفنية : وهى أن المخرج هو المسئول الأول عن وحدة العمل السينمائى وطابعه !.. والمسئولية الفنية شىء ، وعامل النجاح شىء آخر !.. فرواية « أنا كارينينا » لـ « تولستوى » ؛ مثلا قد يكون نجاحها فى السينما راجعا إلى قوة

« تولستوى » وحده ، وهذا معقول ، ولكن ذلك لا ينفى طبيعة عمل المخرج ، حتى إن كان هو المسيء للرواية ، المقصر فى إبراز معانيها ، المضعف لقوة مراميها !..

فالمخرج — قد يكون وقد لا يكون — هو العامل الأول فى نجاح الرواية السينمائية ، بل إن المخرج أحيانًا يتلاشى أثره وطابعه ، إذا كان ضعيفا ، وكان مؤلفه أو ممثله عظيما .. ولدينا الأمثلة : أين طابع المخرج فى شريط « هملت » لـ « لورنس أوليفيه »؟.. نحن لم نر غير طابع « شكسبير » وحده .. وأين طابع المخرج فى قصة « الملكة كريستيانا »؟.. نحن لم نر غير طابع « جريتا جاربو » وحدها ..

إن من أهل التمثيل من يكون له شخصية ، تطغى على كل شيء ، وتبدو للمشاهد مالكة عليه كل حواسه ، محتلة كل ذاكرته ، منذ اللحظة الأولى !.. حدث لى ذلك مع ممثلين ، لم أعرف عنهم شيئًا يوم شاهدتهم للمرة الأولى ، واكتشفت مواهبهم قبل أن تأخذ مكانها المرموق من سماء الشهرة الواسعة !.. ومن حقى أن أقول اكتشفت ؛ فليست العبرة بالاكتشاف أن توجد ما كان معدومًا !.. إن أمريكا كانت موجودة قبل « كولمبس » والكواكب والنجوم كانت ملء السماء قبل المراصد وعلم الفلك. إنما العبرة أن تشعر بالقيم الفنية، تدخل مدار حياتك لأول مرة !..

على هذا النحو دخل مدار حياتى بعض نجوم السينما : من ذلك أنى رأيت ممثلا مجهولا فى شريط إنجليزى صامت لرواية « أوسكار وايلد »: « مروحة الليدى وندرمير »، فحفظت اسمه من ذلك الحين ، وجعلت أرقبه ، وأتتبعه طول الأعوام ، حتى استوى فى ذروة سمائه ؛ ثم اعتزل العمل فى السينما ، وكاد يغور فى ليل النسيان .. ذلك هو « رونالد كولمان » !.. ورأيت ممثلة فى رواية صامتة لا أذكرها !... ولكنى منذ شاهدتها تمثل أدركت أنها لا بد بالغة شاهق القمم !. كانت تلك الممثلة هى « نورماشيرر » ..

على أن الاكتشاف الذى قد يدهش حقًا ، هو اكتشافى لتلك الفتاة العجيبة ، التى يحيط تمثيلها غموض !.. كان ذلك فى شريط صامت ؛ فى رواية غريبة الموضوع والإخراج ، لم يجرؤ أحد على عرضها ، فى دار كبيرة شهيرة من دور « باريس »، فعرضت فى دار متواضعة ، يؤمها نفر خاص من النظارة المشغوفين بكل طريف غير مألوف !.. كانت هذه الفتاة البارزة المظهر ، الرائعة الجوهر ، ذات الوجه المقتصد فى الانفعال ، والنفس الزاخرة بالأسرار ، تجعلنى أشعر أن هذه الممثلة لن تختفى بانتهاء الرواية ، ولا بانتهاء روايات مقبلة !.. إنها شيء يجب أن يبقى ويعيش ، لأن من رآها لا يمكن أن ينساها !.. إنها حلم لا تكفيه الحياة فى قصص ، إنها حلم جيل وعصر !.. كانت هذه الممثلة الصغيرة ، يومئذ هى « جريتا جاربو »..

ولكن اكتشافى الذى بقى لى وحدى ، ولن يشاركنى فى الإعجاب به كثير من الناس ، لأنهم قد لا يعلمون شيئا ، هو ذلك الممثل الذى كان يقوم بدور صغير إلى جانب الفتاة ، « جريتا جاربو » فى تلك الرواية الأولى القديمة !.. كان يقوم بدور « جزار » فى حى فقير !.. منذ رأيته يومئذ ، وأنا أخف لمشاهدته فى كل رواية يظهر فيها !.. لقد رأيته من حسن حظى فى روايات سينمائية صامتة بالطبع ، مأخوذة عن درامات « إبسن » وشهد الله كم أبكانى !.. لا لأنه كان يريد أن يبكى مشاهديه على النقيض ، لقد كان يعيش فى الشخصية التى يمثلها على نحو يثير كوامن النفس !.. لقد كان هذا الممثل يؤدى دوره على صورة لا أظن لها شبيها حتى اليوم فى نظرى ، ولن يستطيع قلمى أن يصف فن هذا الرجل ؛ فهذا فن ارتفع فى ابتكاره ، وحلق فى غرابته إلى ذرى عجيبة !.. ولم يمض هذا الممثل بالفعل فى طريق الشهرة العالمية ؛ فقد انقطع عن « السينما »، ولم يبد له أثر فى الأشرطة الناطقة ، ولم أتتبع مصيره ، ولا ما انتهى إليه !.. كل ما بلغنى عنه أنه رفض الانغمار فى عالم السينما ، وآثر العمل فى مسارح « ألمانيا » موطنه !.. وقيل

لى إنه من عمد المسرح الألمانى ، غير أنى لم أره إلا فى تلك الروايات الصامتة الغريبة التأليف والتمثيل !.. كان هذا الممثل يدعى « وارنر كراوس » !.. هذا ممثل لا يريد فنه أن يبرح ذاكرتى !.. لقد أرسل فى ذهنى أشعة ، وكشف لنفسى عن أكوان ، ثم اختفى كما يختفى كوكب قصى ويغيب فى هوة الفناء السرمدى ، تاركا ضوءه يلمع فى سمائنا الأعوام !..

الباب العاشر
الأدب ومشكلاته

« رسالة الأدب كغيرها من الـرسالات الكبرى ، التي تبغي السمو بالبشرية،لا تبلـغ الأسماع إلا بعد جهد وصراع »

نهر الحياة الكبرى

من العلل الشائعة فى بلادنا ضعف الإقبال على المطالعة الجيدة ، ولقد سرى الداء فى طائفة شباب الجيل الجديد ، أخذهم دوار العجلة الذى ابتلى به هذا العصر ، وأغراهم حب الوصول بغير مجهود ، فوقع فى وهمهم أن القراءة عبث ، وأن بطون الكتب ليست إلا مقابر ، وأن الذى يعنيهم الحياة .. ولا شىء غير الحياة !..

وإنه لمن المفرح والمضحك معًا أن نسمع شابًا يحدثنا عن « الحياة » ، كما لو كان حقا يعرفها ، وكما لو كنا — نحن الذين تقدمناه فى الزمن — قد ولدنا فى كوكب المريخ ، فلم نهبط الأرض ، ولم نكدح فى الحياة قبله ، ولم نعشها ولم نرها !..

يحسن — قبل كل شىء — أن نبدد وهم هذا النفر الساذج من الشباب ، فنقول له : إننا عشنا فى أحداث حربين عالميتين ، وعرفنا مصر وأوربا فى أزمتين وثورتين ، وإن كثيرين منا — ومنهم كاتب هذه السطور — لم يقض شبابه كله فى مقاعد الدروس أو التدريس ، ولم تكن حياته كلها غارقة فى النظريات ، أو فى التحرير والتحبير — ولكنه غرق زمنا فى الحياة من حيث هى حياة ، بواقعها وحلوها ومرها ، وطيبها وخبيثها ، ومن ذلك يوم كان يعمل فى القضاء يجوس خلال الريف والمدن ويتصل بالحاكمين والمحكومين ، ويطلع على خبايا المجتمع ، وخفايا الصدور والأسر والأكواخ والقصور ، وأنه عرف حرية الوحدة ، ومسئولية الأسرة ، ولحظة التأمل ، وزحمة الاجتماع ، ومرارة الإخفاق ، ومشقة الكفاح من أجل العيش ، وتبعات الرأى الحر فى المسائل السياسية أو الاجتماعية . ولم يفقد فى أى وقت اتصاله بالبيئات التى يرى فيها ويعرف ما يجرى فى البلد وما يحركه ويتحرك فيه ، من أشخاص ودوافع !..

... كما عرفنا كلنا — ولا شك — تلك الحياة الأخرى الصغيرة التى عرفها كل شاب ، ذلك أنك لو حادثت شابا عما يعنيه بكلمة « الحياة »، لفهمت منه أن الحياة عنده هى وجوده المحدود الذى يعرفه ، وظروفه التى تحيط به : هى الرغبات التى يحلم بها وينالها أو لا ينالها !.. هى الفتاة التى يحبها ، ويريد أن يجعل من حبه لها مشكلة المجتمع أو معضلة الكون !. فى الحانات أو الامتحانات أو المرتبات أو السهرات الحمراء أو الليالى الظلماء أو ما يقع تحت بصره ؛ فى الطريق العام أو فى الترام أو فى القهوة أو فى المكتب أو فى الحى ، أما ما يقرؤه سريعًا فى صحيفة أو مجلة أو كتاب خفيف ، أو ما يصل إلى علمه بالتواتر والإشاعة من أزمات العالم ، ومشاغل العصر !.. هذه كل الحياة التى يمكن أن يحيط بها شاب من شباب اليوم !..

ولكن الحياة شيء أعمق من ذلك ، وأطول وأرحب !.. إنها مثل نهر لا نعرف منه المنبع ولا المصب !.. البعض يكتفى منه باللعب عند الشط ، والبعض يسبح بالقرب من شط النهر ، أو ينغمر فيه ، والبعض يفعل كل ذلك ، ولا يكفيه ؛ بل يحاول أن يصعد فى منابعه باحثا مرتادًا !..

* * *

آثار الأقدمين الخالدة : من كتب ومعارف وفنون ؛ هى القوارب ، والمراكب التى نصعد بها مستكشفين منقبين فى منابع نهر الحياة الكبيرة !..

* * *

وهنا تبدو صعوبة : ليس كل الناس يستطيع أن يكون مرتادًا ، ومستكشفا .. فلا بد لمن أراد التنقيب فى هذا النهر ، ومعرفة خباياه ، وفهم أسراره ، من خبرة وتجربة .. فنحن لا ننتفع كثيرًا بمطالعة الأقدمين ، إلا إذا تسلحنا بتجارب السنين ..

إن الخطأ الذى يقع فيه أكثر الناس ، هو ظنهم أن القراءة أخذ صرف !.. وأن القارئ ليس إلا جعبة فارغة يملؤها الشيء المقروء !.. وأن المؤلف مانح ، والمطالع

ممنوح ، وأن الكتاب عائل ، والقارئ عالة !..

* * *

والواقع — كما دلنا علم النفس الحديث — أننا لن نستطيع أن نصل إلى ما نجهل إلا عن طريق ما نعلم !. علمنا السابق هو مفتاحنا لباب المجهول ؛ فليس للألفاظ التى نقرؤها معنى ثابت محدد ، ولكنها تتغير ويضيق مدلولها ويتسع تبعا لدرجة علمنا وخبرتنا !.. فلفظ « الإسكندرية » مثلا — عند من لم يرها و لم يعرفها لا يدل على شيء كثير ، ولكنه عند من رآها وعاش فيها ؛ يدل على صورة ومعان لا حصر لها ولا عد .. فنحن ، فى حقيقة الأمر ، لا نطالع بأذهاننا وحدها ، ولكننا نطالع بتجاريبنا وخبرتنا !

وإن من الكتب ما يقل محصوله أو يكثر ، ويجدب أو يخصب ؛ تبعًا للشخص الذى يقرأ هذه الكتب ، أو الجيل الذى يطالعها !..

ومَنْ من الكهول والشيوخ لم يهز رأسه عجبًا وهو يعيد قراءة « كليلة ودمنة » أو « العقد الفريد » أو « الإلياذة » أو « هاملت » ولم يقل فى نفسه : « كيف لم أفطن إلى هذه المعانى فى شبابى ؟!.. »

وهل كان من الممكن أن يدرك الإنسان فى شبابه من معانى الحياة أكثر مما تتيح له سنه من خبرة وتجربة ؟!..

هنا سر عزوف أكثر الشباب عن الكتب القديمة النفيسة !.. جهلهم بالحياة العميقة الرحبة ، وهو الذى يخيفهم من تلك الكتب !.. إنهم يضجرون منها سريعًا ، ضجرهم من مصاحبة من هم أكبر منهم سنًا .. وهم يكتفون بالكلام عن الحياة ؛ ليوهموا أنفسهم أنهم قد عرفوها !..

هذه المشكلة ، ليست إذن مشكلة الشباب فى عصرنا وحده !. إنها مشكلة الشباب دائما — فى كل العصور — إلا أنها فى العصور الخوالى ، كانت أخف وطأة ، وأقل خطرًا ؛ ذلك أن الشباب ما كان يقع فى أيديهم غير قيم الكتب ؛ فكانوا مضطرين اضطرارا إلى احترامها والعكوف عليها يسيغون ، ويتركون

للأيام ما يتركون !.. إلى أن تتقدم بهم السن ويختزنوا من تجاريب الحياة ، ما يمكنهم من فهم ما تركوا وما يؤهلهم لبعث ما ظنوه مدفونا فى بطون الكتب ، من حياة ما ماتت ، ولا يمكن أن تموت ، لأنها قطعة من الحياة الكبرى ، التى لا تفنى ، وبضعة من أنفسنا التى لا تهزم !..

أما اليوم فإن وسائل اللهو قد تنوعت وألوان القراءات الخفيفة السائغة قد تعددت ، وكلها مما يناسب مزاج الشباب ، ويطيب لسنه ويتفق مع محيطه ، فما الذى يضطره إذن إلى بذل الجهد وتجشم المشقة فى اتخاذ القوارب والمراكب ، يصعد بها إلى « حياة » هى بالنسبة إلى مداركه وتجاربه « مجاهل » لا يمكن أن ينفذ إلى جوفها وهو فى ربيع العمر !..

مع الشباب شيء من الحق ، فما من أحد يحب لهم هذا الكفاح المؤلم على الدوام ، وإن لسنهم عليهم حقا ، ولكن إذا استطعنا أن نغريهم بعض الشيء بهذه المحاولة الشاقة ، ونسألهم أن يمنحوا المطالعة المجهدة وقتا يسيرا إلى جانب المطالعة المسلية ، — فإنهم ولا ريب ، لن يندموا على هذا الوقت فى مستقبل الأيام .. لأنهم سيجدون لذة فى أن يقولوا هم أيضًا — وقد وخط رءوسهم الشيب — مثل ما قال كل جيل سابق :

— « كيف لم نفطن إلى هذه المعانى فى شبابنا ؟!..

وعندما تنبض الكتب القديمة بحياة جديدة ، تحت نور تجاربهم ، سوف يصيحون زهوا :

— « نحن أيضا لم نقنع بالشط ، وارتدنا النهر الكبير .. نهر الحيـــاة الكبرى » !..

الشعر وأشعته

هل الشعر تصوير للحياة ؟..

ما من ريب فى أن للشعر صلة بالحياة ، لأنه ينبع من كائن حى : هو الشاعر .. غير أن الذى أرتاب فيه قليلا ، هو أن الشعر تصوير مباشر للحياة .. فإن الحضارة تملك من الأدوات ما هو أدق فى التصوير من الشعر،فضلا عن النثر المنوط به دائما من القدم تصوير الحياة فى جملتها وتفصيلها ؛ وجوهرها وتفكيرها تصويرا حقيقيا واقعيا،ــ فإن لدينا اليوم أيضا «السينما»..تستطيع أن تسجل فى شريط كل تفصيلات الحياة فى بلد وزمن وطبقة وبيئة ، بالألوان واللسان واللهجات !.. على صورة يعجز عن وصفها للعين والأذن أى كاتب فى أى لغة من اللغات !.. ولدينا الصحافة الإخبارية والتصويرية والتحليلية ــ فيما يسمى « الربورتاچ » ــ تستطيع أن تتغلغل فى طبقات الحياة المختلفة ، فتسجل الأحداث ، والأخبار ، وتصور « بالروتوغرافور »، وترسل محرريها يختلطون ويندمجون ، ويتحرون ويتقصون ويرجعون إليها بأدق المعلومات والإحصاءات والوصف والسرد عن حدث من أحداث المجتمع ، أو حالة بيئة من بيئات الشعب !..

وإنه ليكفى فى الغد أن يطلع الإنسان على مجموعة صحفية لعام من الأعوام فى بلد من البلاد ، ليخرج فى الحال بصورة دقيقة ، عن حياة ذلك البلد فى تلك الفترة من تاريخه .. ويكفى أن يشاهد شريطا سينمائيا محفوظا ــ سجل حياة مجتمع فى زمن من الأزمان ــ ليرى تلك الحياة بذاتها ، قد بعثت ماثلة للعيان !.. فما مهمة الشعر إذن عندئذ وقد ملكنا أدوات أخرى غيره ، تمثل لنا الحياة خير تمثيل ؟!.. لا بد أن يكون للشعر مهمة أخرى ، غير مجرد تصوير الحياة الجارية ، وتمثيل الأمم والشعوب والأجيال ــ ذلك التمثيل الظاهرى المادى المباشر !!..

***

ما هى هذه المهمة الأخرى للشعر ؟.. هذه المهمة التى يستطيع القيام بها وحده دون غيره من تلك الأدوات التى وجدت ، والتى قد توجد فى مستقبل الأحقاب ؟!.. لا بد أن تكون المهمة الخالدة شيئًا يتصل بالشاعر نفسه .. بطبيعته هو وبمزاجه ، وبنظرته الخاصة إلى ما يحيط به من كائنات !..

على هذا النحو يجب تعريف الشعر ، لا بأنه تصوير للحياة ؛ــ بل بأنه انعكاس الحياة على نفس الشاعر !.. فالشاعر ؛ مثل القمر ، لا يعطينا الحياة فى أشعتها المحرقة ووهجها الذى يعمى البصر ، ولكنه يتلقى بعض أشعتها ، ويصفيها من خلال نفسه ويعرضها علينا بعد ذلك ضوءا جميلا منظما مهذبا ، ترتاح له العين ويسبح فيه الذهن ويأنس له القلب !..

من أجل ذلك كان الشعر غير دقيق فى تصوير الحياة لنا ، كما أن القمر غير دقيق فى نقل أشعة الشمس إلينا !.. كلاهما يعطينا شيئًا ممزوجا بطبيعته ، مخلوطا بخصائصه !. وكلاهما أيضًا ، فيما أرى ، يرمى إلى الهدف عينه ؛ فالسؤال الذى يلقى على الشعر هو السؤال عينه الذى يطرح على القمر : ما الذى تقصد إليه من إعطائنا هذا الضوء المهذب الجميل ؟..

أما القمر فيجيب :

ــ لست أقصد بهذا الضوء أن أريكم واقع الأشياء ؛ فإنكم ترون هذا الواقع مثلا واضحًا فى وهج النهار ، ولكنى أريد أن أدثر لكم الأشياء فى رداء جديد من نور وظلال ؛ لأوقظ فيكم روح الوجود ، وجوهر الكائنات » وأثير فى أذهانكم عوالم أخرى أجمل وأكمل من العالم الموجود وأجعلكم ترون فى ضوئى شيئا آخر غير الذى ترون فى ضوء الشمس فتحيون بذلك حياتين،فيزداد وجودكم بذلك اتساعا !...

ويجيب الشعر بمثل ذلك قائلا :

ــ أنا أيضًا لست أقصد أن أريكم واقع الأشياء فى حقيقتها المادية ، فهذا من شأن العلم ، وما يجرى مجرى العلم من تاريخ وبحوث وتحقيق وإحصاء

وتسجيل !... ولكنى أريد بضوئى أن أطرق أبواب تفكيركم ، ومشاعركم ، وأنمى فيكم ملكة التخيل والتأمل ، وأجعلكم أنا أيضًا تحيون حياتين : حياة الواقع الأرضى ، وحياة الفكر العلوى !...

ولكأن الشعر أدرك خطر السينما والصحافة الذى يهدده فى الغد ، فأردف يقول :

ـــ لا تنتظروا من عدستى أن تلتقط ظاهر الحياة ، فإن « الكاميرا » ، والمصور الصحفى سيكون لهما غدا فى ذلك فن دقيق رائع ، ولكن عدستى هى التى تلتقط وتسجل حياة القلب .. وهى حياة لا تستطيع أن تصورها « الكاميرا » ، ولن تستطيع !... وسيكون الشاعر الذى يمثل عصره هو ذلك الذى يصور ، لا مجرد الحياة العادية الجارية ، ولا الأوضاع والأحداث المحلية ، بل هو ذلك الذى يمثل حياة الفكر والروح فى عصره !.. هو « أبو العلاء »، بالنسبة إلى الدولة العباسية !.. وهو « دانتى » بالنسبة إلى القرون الوسطى ؟.. و « طاغور »، بالنسبة إلى الهند اليوم .. و .. و « فاليرى »، بالنسبة إلى أوربا الحديثة .. إلخ ..

وأخيرًا يجيب القمر قائلا :

ـــ عدستى أنا أيضا ليست مثل عدسة الشمس ، فهى لا تلقى أشعة كاشفة ولكن تلقى أشعة موحية !.. أشعة الشمس تقول للناس : انظروا ، وأبصروا ،!.. وأشعتى تقول للناس : اشعروا ، وفكروا .

مستقبل الشعر

هل دولة الشعر موشكة على الزوال ؟.. هل قرض الشعر سينقرض فى مستقبل غير بعيد ؟..

ما من ريب فى أن هنالك أخطارًا تهدد حياة الشعر ، وهذه الأخطار ليست وليدة اليوم ؛ فقد ظهرت كلما ظهر فى الإنسانية حدث أو تحول ؛ فالشاعر الذى كان يرفع القبيلة ويخفض القبيلة ، قد أحس الخطر على سلطانه ، يوم تحولت القبيلة إلى دولة ؛ فلم يعد الشاعر عندئذ يتكلم باسم جماعة ، ولكنه يتكلم باسم فرد هو ملك أو عظيم ، ثم تحولت الدولة من الأرستقراطية إلى الديمقراطية ، فما عاد الشاعر يتكلم باسم ملك أو عظيم ، ولكنه أصبح يتكلم باسمه هو ، للتعبير عما فى نفسه !.. وإلى هنا لم يمس الخطر كيان الشعر فى ذاته ـــ وإن كان قد انتقص من سلطانه السياسى ، وحد من نفوذه العام !..

أما الخطر الذى توجس الشعراء خيفة منه على كيان الشعر ، فهو ظهور « العلم » فى القرن التاسع عشر ، على نحو عاصف بمصير البشرية ، مغير لنظرتها إلى الأشياء !..

فقد روى أن الشاعر « كيتس » نهض ذات ليلة ، فى إحدى الولائم ، رافعا كأسه بهذا النخب الغريب : اللعنة على ذكرى « نيوتن »!.. فلما سأله الحاضرون عما قصد قال : لأن نيوتن حطم نظرتنا الشعرية إلى قوس قزح ، حين فسره لنا ذلك التفسير المادى !.. فشرب الحاضرون عندئذ ـــ وكانوا من الشعراء ـــ على لعنة نيوتن !..

على أن الأيام أثبتت لنا بعدئذ أن « العلم » لم يستطع هدم « الشعر » ، كما أنه لم يستطع هدم « الدين »!.. فالحقيقة الفنية والحقيقة الدينية تستطيعان الحياة على الرغم من ظهور الحقيقة العلمية !..

فقوس قزح ، يمكن أن يكون موضوعا لقصيدة مبتكرة اليوم ، وفى الغد !.. يتغنى فيه الشاعر بالجمال الذى يبعثه فى النفس فى أوقات الصحو ، أو فى أوقات الغيم ، دون أن يحفل بتكوينه العلمى ، أو بنظريات التحقيق الضوئى !..

والسيف ، يمكن أن يظل رمزًا للقوة والحرب ؛ يبرق نصله فى أبيات الشعر على مدى الدهور ، دون أن تنال من جماله الشعرى حقائق القنبلة الصاروخية والذرية !..

والقمر سيمضى طول الليالى يدثر الدنيا بغلالة أشعته الفضية ، مهما يكن من أمر تبحرنا فى حقائقه الفلكية والجيولوجية !.. ولن نستطيع أن نقول للهائمين بحسنه ، من شعراء وعشاق : « أفيقوا !.. إنكم تهيمون بحب جرم ميت . لا ماء فيه ، مظلم مشوه بالبراكين المنطفئة !.. »

إن علمنا بحقيقة القمر ، لن يمنعنا من حب ضوئه الشاحب ، ولن يمنعه من التأثير فى نفوسنا الشاعرة !..

ما دامت هناك نفس ، مستقلة عن الرأس .. فلا خوف على الشعر من العلم !..

* * *

لكن .. على الرغم من كل ذلك ، فإن الشعر فى عصرنا الحديث آخذ فى الضعف ، سائر إلى الفناء أو إلى ما يشبه الفناء !.. إن كل شاعر يمضى ، يترك مكانه فراغا !.. وكل ذواقة للشعر يذهب ، لا يترك خلفا !.. وكل راوية للشعر منقرض !.. وكل ناشر لدواوينه مبتعد !.. نرى هذا اليوم فى كل بلد ، فإن دور النشر فى أنحاء العالم لا تطبع ديوان الشعر إلا وهى مؤمنة بالخسارة ، مدركة لفداحة التضحية !..

لماذا ؟.. هنا الخطر !.. الخطر الحقيقى على الشعر ؟..

العلة — فيما أعتقد — هى ضعف الثقافة فى الشعوب !.. إن شعوب الأرض اليوم تتعلم على نطاق واسع تعليما سطحيا !.. إن تلك الطبقة الممتازة من

المتذوقين للفنون العليا تكاد تغرق اليوم فى محيط هذه الملايين ، من أشباه المتعلمين !.. هذا المحيط الطامى لم تنتشر فيه الثقافة؛ ولكن الذى انتشر فيه هو ضعف الثقافة !.. وهذا المحيط الذى يمتد فى كل بقاع الأرض — من المشارق للمغارب — هو الذى يفرض ذوقه على الإنتاج الذهنى وعلى دور النشر !..

والشعر هو خلاصة الثقافة ، وعصارة الذوق ، فهو لذلك فن مركز ، يضغط فى أبياته القليلة ، ما يوحى بالكثير إلى أصحاب الأفهام !..

إنه ليس كالنثر فن إسهاب وإيضاح ، يفرغ فى رءوس الناس ما يريد من كلام وثرثرة ومعلومات — يزدردونها هينة لينة ، بلا جهد ولا اجتهاد !.

إن الشعر فن إيجاز وإيحاء ، يفترض فى السامع قدرا من الثقافة وحظا من الذوق!.. إنه ليس طعاما، يقذف به فى الفم، ولكنه مفتاح تحرك به موسيقا النفس ؛— فلا بد إذن أن تكون النفس مستعدة له ، وأن تكون قد هذبت أوتارها ، قبل أن تتهيأ للمفتاح !..

هذا التهذيب أو الإعداد لم يتح بعد لكل ذرات هذا المحيط الطامى من الشعوب !.. وما دامت الغلبة للعدد ، فلا مفر من أن يلبى المجتمع نداء غالبيته الطاغية الساحقة!.. وما هو هذا النداء؟.. إنه الرغبة فى التقام السهل، أى النثر!..

وليس كل النثر أيضًا ، ففى النثر ما يسمو إلى مرتبة الشعر ، إيجازا وتفكيرًا وفنا !.. هذا أيضًا يجب أن يبعد ، أو يحصر فى أضيق نطاق إلى أن يختنق !..

لن يبقى إذن حرًا طليقا رائجا مزدهرا غير الغذاء الذى تستطيع الملايين إساغته واقتناءه !..

وهو بالطبع لن يكون الشعر الممتاز !..

فهل يتغير يوما هذا الحال ؟.. أو يصير الشعر آخر الأمر إلى زوال ؟!..

* * *

وإذا استطاع الشعر أن يزول يومًا ، فهل يزول « الشاعر » ؟..

هذا الكائن العجيب ، الذى أوجدته الطبيعة ، من بين الخلق على نسق

غريب !..

هذا الذى قال فيه « موررياك » متسائلا :

« من هذا الرجل الذى يتكلم بخيلاء ، ويمشى بكبرياء ؟.. لا شك أنه رجل من أصحاب الملايين ، أو أرباب البيوت المالية .. »

لا .. لم يكن هذا الرجل سوى « شاعر » من أصحاب الأبيات الشعرية !.. أما كبرياؤه فليست سوى نوع من الدفاع عن النفس !..

إن الشك فى أعماق الشعراء يعيث كالسوس !.. إنهم فى حاجة إلى التفاتنا ، حتى لا يغمرهم اليأس !.. إن هذا البلبل الذى يشدو فى الربيع .. هذا الكروان الذى يشدو والناس نيام ، هذا الذى يسمونه الشاعر ، ما استوثق يوما كل الوثوق أن أذنا قد سمعته !.. إن أغانيه تصعد ضائعة بين النجوم لتهبط عائدة إلى قلبه !.. وإن صمتنا ليبدو له كأنه خيانة ، أو كأنه نذالة !.. إذا خرج الشاعر يوما عن طوره ، ورمانا بالتهم ، وغضب علينا وقذفنا بالحمم ،ــ فلنحتمل منه !.. فإن أغلب الناس على هذه الأرض ، قد أصيبوا بالصمـم !.. إنهم لا يسمعون أهازيجه !..

ولكن هل من اليسير أن يسمع كل الناس أهازيج الشاعر ، وأن يرتفعوا إلى سماء معانيه ؟.. حسبه ، فيما أعتقد ، أن يكون هناك اهتمام ، فهو لا يطلب فى حقيقه الأمر أكثر من إشهاد بأنه موجود ، وأن الأمة فى حاجة إلى وجوده !.. ولقد نال فى غابر الأزمان هذا « الإشهاد » الرسمى بوجوده ، فمن ذا ينكر أن « المتنبى » كان له فى دولته شأن وأى شأن ؟!.. ومن ذا ينكر أن « أوربا » تعترف بفضل شعرائها وأدبائها حتى الآن ؛ــ اعترافًا معنويًا أدبيًا يعوضهم بعض الشىء عما فقدوه من تقدير مادى مالى فى العصور الحديثة ؟.. فحكومات الغرب وشعوبها إن لم تستطع أن تمنح الشاعر أو الأديب مالا وإقبالا ؛ فإنها تمنحه تعظيما وإكبارا .. فتقيم له التماثيل ، واحتفالات الذكرى ، وتحفل بآثاره ، وتفاخر بأعماله !..

ولكن الشرق ؟.. ولكن ، « مصر » ؟.. إن بعض السطحيين يتساءلون أحيانًا : كيف لا ينتج أدباؤنا وشعراؤنا إنتاج زملائهم فى بلاد الغرب ؟.. أما أنا فأتساءل : كيف استطاع أدباؤنا وشعراؤنا أن ينتجوا إطلاقا ؟.. ولماذا هم ينتجون ؟.. إن موقف أدبائنا وشعرائنا اليوم ليدعو إلى العجب : إنهم فى موقف لم يقفه أدب ولا شعر فى عصر من العصور ؛ فالمعروف أن الأدب يعيش دائمًا بتشجيع طبقة من المجتمع : ففى العهود الماضية كان فى كنف العظماء والأغنياء .. يتبارون فى حمايته ، ويتسابقون فى إعلاء كلمته !.. وفى العهود الحديثة ، وزوال الأمية انتقل أمره إلى يد الشعب المتعلم ؛ فهو الذى يثيب الأديب بالتهافت على اقتناء كتبه وهو الذى يحيطه بمظاهر الاحتفال والتقدير !.. أما أدبنا اليوم فهو حائر كاليتيم بين أغنياء لا شأن لهم بأدباء ولا شعراء ، وبين شعوب لم يتم تعليمها ؛ فهى لا تستطيع أن تعنى بأدب أو شعر !.. فأدباؤنا وشعراؤنا ينتجون ، وهم يعرفون أن إنتاجهم لا يهم الأغنياء ولا الفقراء !..

لقد أحست الحكومة البريطانية أن الكتاب الإنجليزى فى أزمة ، وأن الفكر الإنجليزى : من أدب وشعر ، وفن ، وعلم ، يجتاز مرحلة دقيقة ، فسارع الوزير المختص بطلب اعتماد — يقدر بمئات الآلاف من الجنيهات — ينفق فى سبيل الفكر الإنجليزى : فى الخارج ، حتى يظل الإنتاج الفكرى فى إنجلترا محتفظا بمستواه ، فلا يقنط المؤلفون ، ولا ينصرفون عن التأليف والإنتاج !..

أما فى « مصر »؛ فإن الحكومات تدع المؤلفات الأدبية ، تعامل معاملة الأرز والقطن ، والسكر ؛ — فتكبل بقيود التصدير وأغلال العملة ، وتحبس فى أيدى مؤلفيها ، لا يدرون ما يصنعون بها ، ولا لمن صنعوها !..

هناك .. الحكومات تغار على نشر الفكر القومى « وهنا تنام الحكومات أو تهب لتقص أجنحة الفكر العربى !..

وبعد ذلك يقال لأدبائنا : ألفوا كما يؤلف أدباء أوربا.. ولشعرائنا : غنوا وأنشدوا كما يغنى وينشد الشعراء العالميون !..

أدب القصة

إن الإنسان ليس مجرد جسم يتحرك فى محيط البيئة المادية ؛ من ريف ، أو حضر أو منزل ، أو ناد ، أو مكان عمل ، مما درج بعض القصاصين عندنا على تسميته بالحياة الواقعية !.. ولكن الإنسان أيضًا ــ فوق ذلك ، وأكثر من ذلك ــ « عقل »، يتحرك فى عوالم فكرية !.. وهو « روح » يسبح فى معان شعرية !.. وهو مبادئ فلسفية ، ودينية ، واجتماعية ، تصطرع وتتطور !.. فالعناية بحياة هذا الجزء الأعلى من الإنسان هى التى تجعل من القصة أدبًا رفيعًا !.. لولا ذلك لما كان لمثل : « سوفوكلس » أو « تولستوى » أو « شكسبير » أو « جوته »ــ ذلك المكان السامق فى الآداب الخالدة ، فهم ما أرادوا أن يحكوا للناس مجرد قصص ، ولكنهم أرادوا أن يبرزوا لنا أعمق ما فى الإنسان !..

فما من واحد من هؤلاء قنع بتصوير بيئته أو لونه المحلى لمجرد التصوير !..فإن « ڤولتير » لم يرسم لنا الفرنسيين فقط ، و « شكسبير » لم يرسم لنا الإنجليز فقط ،و«تولستوى» لم يرسم لنا الروس فقط ، و « جوته » لم يرسم لنا الألمان فقط ،ــ فهم جميعًا ما رسموا حقًا وما صوروا غير الإنسان !..

وما من واحد منهم أراد أن يصور الإنسان فى حياته القومية المحدودة ذات الألوان الصارخة العابرة !.. ولكنهم جميعًا قصدوا أن يصوروا فيه شيئًا ثابتـا خالدًا !.. لمحنا منه فى ومضات تفكيرهم ، وقبسات عبقريتهم .. شيئا هو فوق الإنسان ذاته !.. وهذا هو الذى جعلهم يقرءون فى كل بلد ، وكل لغة ، وكل زمن !..

* * *

ذلك لأنه ما من واحد من أولئك الخالدين ، جرؤ على حمل القلم قبل أن ترسخ قدمه فى أعماق الثقافة المعروفة فى عصره، فقد كانوا يدركون أنهم ينشئون

« أدبا » أى ذلك الشيء الذى يتصل اتصالا مباشرا بالجوهر الثابت فى كيان الإنسان !.. ولكن انتشار القصة — باعتبارها مطالعة سهلة — قد دفع الكثيرين إلى اختصار الطريق ، والهرب من الجهد ، واتخاذ القصة مركبا هينا ، لا يكلف أكثر من سرد حوادث محلية ، وحبك مواقف مسلية ، ووصف أشخاص ، ورسم مناظر من الحياة الجارية : بأى أسلوب اتفق ، ليطلق على هذا العمل الزهيد بعدئذ ، اسم الأدب المبتكر والخلق الأصيل !..

وما دامت هناك جماهير ينتشر بينها التعليم البسيط ، عاما بعد عام ، وتنجذب بطبيعتها إلى اللون اليسير الخفيف الشائق ، وما دام هناك ناشرون يريدون الربح ، فيمدون الناس بما يشتهون —، فلا بد أن تنبت القصة وأن يكتب لها الذيوع !..

ومهما يكثر عدد القصاصين ، فلن يستطيعوا أن يكفوا فى المستقبل تلك الأسواق التى ستفتح للقصة ، فليست دور النشر وحدها هى التى تحتاج إلى القصص ، ولكن الصحافة اليومية والأسبوعية بأنهارها الواسعة لن تكف عن طلب فيض من القصص لا ينتهى .. فالقصة إذن مقضى عليها بأن تكون صناعة ، رائجة يزدحم عليها الطلب !.. وبهذا وحده يقضى عليها فى الوقت عينه بأن تبتعد نهائيا عن منطقة الأدب !..

* * *

والأدب من ناحيته سوف يرى أنه غير مستطيع أن يعمل طليقا ، فى أجوائه العليا وهو مرتبط بالقصة !.. لقد أراد أن يستعين ببريقها وتشويقها فى اجتذاب الناس ، ولكن الناس ما إن يروا قصة تافهة القيمة ، محبوكة الصنعة ، حتى يندفعوا إليها متحمسين صائحين : « هذه هى الحياة ! »، وينصرفوا بجموعهم عن القصة الأخرى التى تطوى فى أعماقها الحياة الحقيقية ، تلك التى غاص لها الأدب والفكر ، ضجرين قائلين : « ليست فيها حياة !». ذلك أن الحياة عندهم هى التى يرونها فقط بعواطفهم السطحية ، جاهلين أن الحياة فى

الأدب والفن ليس معناها السطحية فى النظر إلى الحياة !.. فهل يأتى يوم ينفصل فيه الأدب عن القصة ؟.. فلا يحتفظ منها إلا بالقدر الصغير الذى قد يخدم أهدافه ؟.. وبذلك يمضى مستقبلا باحثًا كاشفًا عن الحقائق فى جوهرها ، لا يحسب لأحد حسابًا ، ولا ينظر خلفه ، ليرى من تبعه ومن لم يتبعه ؟.. تاركا « القصة » لشأنها ، ولأسواقها ، ولجماهيرها .ـــ لها صفتها الخاصة ، شأنها ـــ فى ذلك ـــ شأن الصحافة ، والإذاعة ، والسينما !.. غير مجترئة على أن تتمسح بأعتاب الأدب ، أو طامعة فى أن يسبغ عليها جلاله !..

هذا الاتجاه فى الأدب ظهرت بوادره منذ الآن فى أدباء عظام منهم « أندريه جيد الفرنسى » و « ألدس هكسلى » الإنجليزى ، و « ستيفان زفايج » النمسوى و « إيليا اهرنبرج » الروسى : فقد استخدموا القصة ـــ فيما مضى ـــ استخدام الجراح للقفاز ، كى يصلوا بها إلى شىء عميق دقيق فى كيان الإنسان !.. ولم يجعلوها قفازًا للمتعة أو الزينة ، يجذب النفس ويخلب اللب !.. ومع ذلك ، فقد انتهوا إلى التجرد بعض الشىء من العنصر القصصى ، ليعرضوا حقيقة الإنسان ومشكلات الزمان فى قالب أدبى طليق ، هو أحيانًا قالب المذكرات ، أو اليوميات الحقيقية التى لا خيال فيها ، وأحيانًا قالب التاريخ أو المقالة أو البحث الذى لا اختراع فيه . كما جرت أخيرًا فى الصحف الأوربية مناقشة بين بعض الأدباء البارزين ، موضوعها هذا التساؤل : هل ماتت القصة باعتبارها من فروع الأدب ؟.. هل هى فى طريق الموت ؟.. وكان المؤيدون لفكرة موتها ، يقولون : إن الأدب ليس فى حاجة إليها ، لأنها بطبيعتها الخاصة لا تستطيع أن تقول كل شىء !.. والأداة التى لا تستطيع فى الأدب أن تقول كل الحقيقة ، سيقضى عليها الأدب بالخروج من دولته .. والمقصود بذلك أن القصة لها حدودها الضيقة الحبيسة فى إطار « حدوتة » ممتعة ، فهى لا يمكنها فى كل الأحوال الاضطلاع بمهمة التعمق فى بحث قضايا الإنسان

الكبرى .. تلك المهمة التى تميز الأدب الكبير !..

* * *

تقابل ذلك بوادر اتجاه آخر فى محيط القصة ، ذلك أنها ـــ وقد أيقنت أن الأدب هو التعبير الأعلى للقيم الخالدة فى الحياة والإنسان ـــ مما يحتاج إلى ثقافة بعيدة الأفق ، ودراسة للإنسانية ، رحيبة المحيط عميقة الجذور !.. فى حين أن القصة المجردة لا تحتاج إلى كل هذه الأسباب لتصل مباشرة إلى هدفها من إمتاع الجمهور ، فقد أصبحت القصة اليوم بمعناها الشائع وهدفها المقتصر على الإمتاع العابر هى الميدان الأعظم لنبوغ النساء !.. فما من أحد رأى نجاحا . كنجاح « ذهب مع الريح »، أو « عنبر إلى الأبد »، أو قصص « فيكى باوم »!.. ومن يدرى ربما أثبت لنا الغد أن القصة لن تكون إلا « أدب » النساء !.. لأنهن بطبعهن يحذقن ملاحظة التفاصيل الدقيقة لشئون الحياة اليومية ، ويجيدون تحليل العواطف الداخلية ولديهن ولع فطرى بالاسترسال فى الوصف ، وسليقة غريزية للإسهاب فى القص ، ولهن براعة فى الإمساك بالقلم ينسجن به قصة من حكايات بعض الناس ، كما يمسكن بالإبرة ينسجن بها ثوبا من « التريكو »، إلا أنه قلما تستطيع المرأة أن تكون « أديبة » أى كاتبة عميقة الثقافة قوية الذهن تتناول الإنسانية كلها بنظرة ناقدة . وتحيط بمشكلات عصرها وتؤثر فى تفكير زمنها !..

* * *

لكن .. أليس من الجائز أن يتم زواج بين الأدب والقصة ؟.. ما من ريب فى أن هذا شائع الحدوث . غير أن هذا الزواج أيضًا شأنه شأن كل زواج !.. كثيرًا ما يسيطر فيه طرف على طرف ، ويتغلب طبع على طبع ، فإذا تغلب الأدب فنحن أمام فن ناقص ، وإذا تغلبت القصة فنحن أمام فن رخيص !.. أما إذا حدثت المعجزة ـــ وهى فى الواقع معجزة كل أسرة ـــ وتم التوازن التام فى هذه

الزوجية الموفقة !.. وتمشى الأدب فى القصة ، كما يتمشى الروح العميق فى التكوين البديع ، فنحن إذن أمام معجزة فى الفن !.. ولكن هذا الزواج السعيد لا يحدث أكثر من مرات قلائل فى كل قرن ، لهذا كانت الآثار الخالدة فى الأدب القصصى أندر ما تكون مناط حكم أو مجال قياس .. لكأن الطبيعة تغار من كمال تلك الآثار !.. فهى تولد كاملة ، فى لحظات وئام ، غفلت عنها عين الطبيعة التى لا تنام !..

حياة الشخصية القصصية

قوة الخلق الفنى لشخصية قصصية لا تكون فقط فى حياتها المتدفقة النابضة داخل القصة نفسها ، بل فى حياتها خارج القصة ، فى حياتها الممكن استمرارها على وجوه أخرى فى رءوس الناس !.. فقصة « روميو وچولييت » مثلا قد بلغ خلق أشخاصها من القوة جدا يمكن أن يمنحهم حياة جديدة فى نفس القارئ غير الحياة التى رسمها « شكسبير »!.. تأملت أخيرا شخصية « چولييت » طويلا ، وقلت فى نفسى : إنها لم تكن أول امرأة أحبها « روميو »؛ فقد أومأ إلينا « شكسبير » فى مطلع روايته أن « روزالين » كانت هى معبودة « روميو » الأولى . وها كم حوارا وجيزا بين « بنفوليو » وصديقه العاشق المشهور ، ينبئنا بحقيقة مشاعره ، فى ذلك الحين !..

قال « بنفوليو » لـ « روميو » :

ـــ فى ذلك الحفل المقام فى دار آل « كابوليت »، سوف تجد « روزالين » تلك التى تهيم بها حبا !.. وستجد أيضا كل جميلات « فيرونا »، فاذهب إلى هناك ، وصن عينيك من المحاباة والتحيز ، وتأمل مليا من أدلك عليهن ، ولسوف ترغم على الاعتراف بأن بجعتك ليست سوى غراب !..

فقال « روميو » لـ « بنفوليو »:

ـــ لو كفرت عينى بمن تعبد ، وصرحت بهذا البهتان ، لكان أولى بدموعى أن تنقلب نيرانا مستعرة ، وبعينى أن تحرق هى ذاتها كما يحرق الكذابون والسحرة !.. امرأة أجمل من محبوبتى منذ أن ولدت الدنيا ؟!.. فإن الشمس التى ترى كل شىء ، ما رأت لحبيبتى « روزالين » نظيرا !..

وذهب « روميو » إلى حفل آل «كابيولت » متخفيا .. وهناك وقع بصره ، لأول مرة ، على « چولييت » وسأل : عمن تكون ؟.. فلم يجبه أحد .. فوقف

مشدوها ، يتأملها ، ويصيح فى أعماق نفسه :

يا لهذه الروعة !.. إن ضياءها ليكسف أضواء المشاعل !.. يا لهذا الجمال !.. إن حسنها ليتألق فى جبين الليل كما تتألق الجوهرة فى أذن غادة حبشية !.. جمال أنفس من أن يناله بشر .. وأرق من أن تحويه أرض !.. إنها لتنير هذا الجمع ، كأنها حمامة بيضاء بين غربان !.. أعرفت الحب أنا حتى الساعة ؟!.. عينى تقول : « لا ».. إنها أول مرة أبصر فيها الجمال الحق !..

ووقع فى قلبه منذ تلك اللحظة ذلك الحب العنيف الذى سجلته الأساطير وخلدته عبقرية « شكسبير »، وأصبح اسم « چولييت » على شفتيه ، وعلى لسان الدهر ، وشفاه المحبين ، رمز الغرام الذى يجرع كأس المنون للعاشقين !.. أما « روزالين » فقد تلاشى رسمها من رأسه ، وذهب اسمها فى النسيان !.. ولم يعد لها مكان فى ذاكرته ، ولا ذاكرة الزمان !..

وقاد الحب « روميو » و « چولييت » إلى النهاية المحتومة ، وتزوجا خفية عن عيون أهلهما المتعادين ، ولعب القدر للتفريق بينهما لعبته المرسومة ، — فكانت المأساة المعروفة !.. لقد أراد الراهب الذى عقد قرانهما سرا أن يجمع بينهما ، فأعطى « چولييت » المنوم الذى يظهرها بمظهر الموت ، فلما تجرعته دفنها أهلها فى قبر الأسرة الفخم .. وأقبل « روميو » وقد ظنها ميتة ، وجهل أنها منومة ، فأعد لنفسه هو الآخر سما يذيقه نوم الأبد ، ودخل عليها القبر قائلا لجسدها المسجى :

— يا حبيبتى .. يا زوجتى .. ما استطاع الموت أن ينال من جمالك شيئا .. ها هو ذا الحسن لم يزل نابضا بتاج سلطانه فوق مرجان ثغرك وورد خدك .. وإن لواءك الأسود أيها الموت ليقف دونها مخذولا لا يستطيع حراكا .. آه يا « چولييت » المعبودة ، لماذا أنت هكذا جميلة ؟.. إنى لأكاد أعتقد أن الموت نفسه هائم بمفاتن سحرك ... إن شبحه حائم حولك فى هذا الظلام ، لينالك ، ولكنى سأبقى إلى جانبك دائما ..

وأخرج من جرابه قارورة السم وأفرغها فى جوفه ، وهو يقول :

ــ « لقد صدقتنى القول أيها الكيميائى .. سمك يسرى فى جسدى سريعا ،ــ قبلة أخيرة !..»

ولثم ثغر « چولييت »، وسقط غائبا عن الوعى ، و لم يمض قليل حتى انتهى فعل المنوم ، واستيقظت « چولييت »، وأبصرت « روميو » ممددا تحت قدميها ، فأدركت ما حدث .. لقد حسبها ميتة حقا ، فلحق بها إلى السماء . فنظرت إليه وقالت :

ــ ماذا أرى ؟!.. كأسا لم تزل يد حبيبى قابضة عليها ؟!.. إنه السم الذى قاده سريعا إلى حتفه !.. أهكذا شربت كل ما فيها أيها الأنانى !.. هلا تركت لحبيبتك « چولييت » قطرة منها ؟!.. سأعتصر شفتيك بقبلاتى ، عسى أن أرتشف من بينهما قليلا من سم يمنحنى الموت ، الذى يجمع بينى وبينك دائما !..

وأخذت تلثم فمه ، وهى تقول : « شفتاك حارتان »!.. إلى أن سمعت ضجيجا خارج القبر ، فخافت أن تفلت منها فرصة الموت ، وأن يحول الناس بينها وبين اللحاق بحبيبها إلى السماء !.. فاستلت خنجر « روميو » وطعنت به قلبها طعنة أردتها قتيلا ، وسقطت فوق صدره جثة هامدة !..

تلك هى القصة كما سجلتها الأساطير ، وخلدتها عبقرية « شكسبير »!.. ولكنى أفترض أن الكيميائى الذى أعطى « روميو » قارورة السم لم يصدقه القول ، وما فعل إلا ما فعله الراهب ، وأعطاه منوما هو الآخر ينتهى أثره بعد حين !..

واستيقظ « روميو » فألفى الناس محيطين به ، يذودون عن حياته ، ويمنعونه من التفكير فى الموت ، وقد جردوه من سلاحه وحرسوه ، وعهدوا به إلى الراهب يلازمه ملازمة ظله ، ويغسل بالنصح الطويل أحزان قلبه .. حتى مرت الأيام السود وعاد إليه بعض صوابه ، وخضع للمحنة واستسلم للقدر ، وبعد عنه شبح الموت ، وتسرب إلى نفسه بصيص العزاء ، وليس أقوى من الزمن

سلطانا ، إذا اجتزنا عتبة قصره المسحور نسينا من أمرنا ما لا ينسى !..

وكانت هناك امرأة سحرتها قصة هذا الغرام كما سحرت كل نساء « فيرونا ». فتمنت — كما تمنين — أن تدنو من ذلك العاشق ، الذى وقفت المدينة كلها سدا يحول بينه وبين الموت لحاقا بمحبوبته !.. إنها تعض الآن بنان الندم على ما كان من صدها له وفتورها نحوه فيما سلف !.. أتراه يحفظ لها فى طيات قلبه شيئا من شغفه الماضى ، دون أن يعى ؟!.. ذلك كل أملها الآن .. إذا نفخت فى ذلك الرماد .. فمن يدرى ؟.. لعل تحته جمرة تلتهب من أنفاسها !.. وإذا التهبت من جديد نيران حبه الغابر لها فأى فخر ، بل أى سعادة كتب لها أن تراها ؟؟.. « روميو » الذى ماتت من أجله « جولييت ».. يصبح لها ، وملكها ، والهائم بها ؟!..

كان هذا حلم « روزالين » !..

وإذا تمكن حلم من امرأة ، وتمكنت هى منه ، فلن تتركه حتى يغدو حقيقة !..

وسعت « روزالين » إلى « روميو »؛ وأدنت أنامل عطفها من خده لا بسة له ثياب الصديقة الوفية ، التى يحتاج إلى حنانها فى ساعات حزنه ، ولبثت بجواره الأيام والليالى تبدى له إخلاصا بلا غاية ، وتظهر له حبا بلا أمل ، حتى استطاعت أن تظفر منه مع الزمن بعاطفة من المودة ، أخذت تنمو فى كل يوم وتكبر وتتقد ، حتى كادت تلامس المحبة والميل .. وأخيرا .. تزوج « روميو » من « روزالين » !..

* * *

مضى عام على عقد القران.. وأنجب «روميو» طفلا.. وبدأ يحس كأنه يتخبط فى خيوط الحياة الزوجية ، وأنه ليس أكثر من ثور يدور فى ساقية الأيام المتشابهة فى أنينها ، وصياحها ، وبكائها ، وصمتها وصخبها .. وبدأت « روزالين » ترى « روميو » زوجا ككل الأزواج ، لا هو عاشق فى قصة ، ولا بطل فى أسطورة !.. وجعلت ذات صباح تتأمله وهو يرتدى على عجل ثياب الخروج ،

مهمل الهندام ، أشعث الشعر !.. فقالت له متهكمة . وكأنها تخاطب نفسها :

ــ أهذا « روميو » الذى ماتت من أجله « چولييت » ؟!..

فالتفت إليها ضجرا :

ــ دعى « چولييت » فى قبرها نائمة !..

ــ ولماذا تنظر إلىّ بهذا الوجه المتبرم !؟..

ــ لأنى ضقت ذرعا بهذا الكلام .. ما من شىء عندك غير « چولييت ».. « چولييت ».. إنى أسمع منك مائة مرة فى اليوم اسم « چولييت »..

ــ وماذا يغضبك فى هذا .. إلا أن يكون فى ذلك فتح لجراح قلبك !..

ــ لا شأن لك بقلبى !..

ــ ومن قال لك إنى أريد أن يكون لى شأن بقلبك ؟!.. وهل هو موجود ؟.. إنى أعلم أنه لم يعد لك قلب منذ أن ماتت « چولييت » ؟..

ــ لا تتحدثى عنه إذن !..

ــ إنى لا أفعل سوى شىء واحد ، أسائل نفسى دائما : لماذا أنت حى ؟.. ما فائدة حياتك ؟.. إن أكبر غلطة ارتكبتها هى أنك لم تمت مع « چولييت ».. كل قيمتك هى أنك كنت عاشق « چولييت ».. أما فيما عدا ذلك فأنت لا تساوى شيئا فى الرجال !.. إنما أنت التفاهة بعينها ، والحمق ، والخمول ، والغباوة ..

ــ وصلنا إلى السباب وسلاطة اللسان !..

ــ لا أريد شتمك !.. فالذنب ذنبى ــ غلطتى هى أنى تزوجتك !.. نظرتى الأولى إليك يوم صددتك كانت هى الصائبة ، ولكن « چولييت » خدعتنى ، سامحها الله ، وجعلتنى أراك من خلال عينيها !.. لقد كانت قصيرة النظر !.. لقد كانت ضعيفة الإدراك بلهاء !..

ــ اشتمينى أنا ماشئت ؛ ولكن لا تشتمى ميتة تحت التراب !..

ــ تدافع عنها ؟!.. ألم أقل إنك لم تزل تحبها ؟!..

ــ إنى لا أدافع عنها ، بل أدافع عما يليق وما ينبغى للموتى من احترام !..

ــ يا لحرارة صوتك كلما تعلق الأمر «بجولييت»!.. قلبك هذا البركان الخامد بين يدى أنظر فى فوهته ، فلا أجد فيه غير فراغ وصقيع !.. هذا الجراب الذى لا يصلح إلا لأن ألقى فيه بكل قاذورات بيتى .. أرى الدخان يتصاعد منه فجأة عندما يمر بيننا شبح « جولييت »!..

ــ إن هذا الدخان الذى تقولين عنه لا يتصاعد من قلبى ، ولكنه يتصاعد من حياتى معك .. تلك التى أصبحت جحيما !..

ــ خسئت وخرست!.. اذهب عنى !.. اذهب عنى أيها الوقح ــ بل أيها الأثيم الذى يرضى أن يعيش مع امرأة لا يحبها !..

ــ لقد أكدت لك مرارا أنك مخطئة واهمة ؛ إذ تظنين أنى لا أحبك ..

ــ إنك كاذب .. أنت لم تحبنى يوما ..

ــ لقد أحببتك يوما حبا عنيفا !..

ــ يوما .. فيما مضى .. فى الغابر من الأيام !.. قبل أن تراها بالطبع !.. قبل أن تعرف « جولييت ». نعم هى دائما « جولييت » !.. أرأيت ؟!.. إنك لا تريد أن تنساها .

ــ لماذا تعذبين نفسك هكذا « يا روزالين »؟!.. أنت التى لا تريدين أبدا أن تنسيها .. خذى هذا المنديل ، وكفكفى دموعك .. ودعينى أكشف لك عن دخيلة قلبى !..

ــ أنت كاذب !.. لا أصدق حرفا مما تقول !.. لن أصدق حرفا من كلامك ! .. ستزعم لى أنك تحبنى ؛ كما قلت لى كثيرًا هذا العام ، وأن الماضى قد دفن ، وأن حبى قد نبت فى قلبك !.. نعم ، وأى نبات ؟.. كالزهرة التى تنبت فى تراب المقبرة !.. ولكن هذا هراء !.. ما أنت إلا زوج يريد السلام فى بيته بأى ثمن ، ولو كان الثمن هذه الكذبة الكبرى !.. لا،لا أستطيع أن أصدق أنك تحبنى ، وأن بك قلبا حيا يتسع لى !.. إنما الحب كله لـ « جولييت »!..

« چولييت » هى حبك الخالد !.. « جولييت »!.. هذه المرأة التى انتزعتك منى ، تلك السارقة التى سرقتك منى — حية وميتة — لا تكف عن تطويقك بذراعيها !.. إنها دائما هنا فى بيتى !.. لكأنه بيتها !.. وفراشنا ، لكأنه فراش عرسها !.. لا أستطيع لها طردا .. هذه اللصة الملعونة .. هذه الدخيلة الملعونة .. هذه الملعونة !.. هذه الملعونة !..

— واأسفاه !.. زوجتى !.. زوجتى ، قد جنت !..

* * *

وترك « روميو » منزله ، وخرج هائما على وجهه فى الطرقات يقول لنفسه :

— نعم ، كان يجب أن أموت بموت « چولييت »!.. لا من أجل الحب ؛ بل من أجل راحة دماغى بعد ذلك !...

فقد كان هذا الحوار مع « روزالين » يكرر ويعاد فى الأسبوع مرات .. وعبثا حاول هو أن يقنعها بالحقيقة، وهى أنه يحبها ؛ حبا لا هو بالصاخب ، ولا هو بالثائر ، حبا لا علاقة له بحبه الأول العنيف .. ولا صلة له بحبه لـ « جولييت » الملتهب !.. إنه الحب الزوجى الهادئ الدائم !.. إنه ليس الحمى الطارئة على الأجسام ، وهى مريضة !.. ولكنها الحرارة الطبيعية المقيمة فى الأجسام وهى صحيحة !..

ما كان فى إمكان « روزالين » أن ترى هذه الحقيقة ، لأن بصرها لم يكن يرى غير تلك الصفحة الواحدة فى ماضى زوجها : صفحة « چولييت » الرائعة !.. إنه لمن العسير على امرأة أن تدرك أن هذه الصفحة لن تبقى خالدة فى تاريخ رجل !.. لقد جلبت « روزالين » على نفسها وعلى زوجها الشقاء ، لأنها لم تصدق أن « چولييت » كانت حلما فى شباب « روميو »، وأنه ليس فى مقدور الإنسان أن يعيش فى الحلم إلى ما بعد طلوع النهار !..

القدر فى الخلق القصصى

ما من قصة من واقع الحياة ، يمكن أن تسلم من عنصر « المصادفة » ، ذلك أن الحياة لا يمكن أن تسمى حياة ، بدون أن يسيطر عليها « القدر » فإذا لم يكن هنالك قدر ، فمعنى ذلك أن هنالك فقط عقلا بشريا !.. والعقل البشرى وحده إذا صنع قصة فإنه يخرجها مخلوقا خياليا ، لا يتصل بالحياة ، فلا بد إذن من المصادفة ليوجد القدر ، لأنهما زوجان لا ينفصلان ..

فما من زوجين خلق أحدهما للآخر ، مثل هذين الزوجين !.. لكأنهما الطبق وغطاؤه ، والكف وأصابعها ، والقلم ومحبرته ، والجلاد وسيفه ، والجواد وفارسه ، ـ عمل أحدهما مرتبط بعمل صاحبه ، ولا يبرم أحدهما أمرا إلا بمعونة الآخر !..

وإنى لأتمثل الزوج ـ وهو « القدر » ـ قد جلس ذات ليلة إلى زوجته « المصادفة » يتسامران .. فقال الزوج :

ـ إنى أعجب لحياتنا معا ؟!.. أنا مثال الصرامة والدقة والحزم ، أعيش معك أنت يا مثال الهوى ، والطيش ، والجنون ؟!..

فقالت الزوجة :

ـ صف نفسك وصفنى بما تشاء !.: لا تهمنى الأوصاف والنعوت !.. ولكن ، هل نسيت أنى أنا التى أخرجك دائمًا من المآزق ، وأنقذك من الورطات !..

ـ متى ذلك ؟.. إنى ضعيف الذاكرة !..

ـ نعم ؛ ككل الأزواج عند اللزوم ، ولكنى أذكرك على الأقل بحادث واحد لا ينسى ، وواقعة لا تنكر ، لأنها مسجلة فى الأساطير ، يتناولها الشعراء ، ويتناقلها القانون ، من جيل إلى جيل : حادثه « أوديب » !.. ألا تذكر ؟..

« أوديب » الملك ؟؟ أنسيت يوم جئتنى يائسًا ، عاجزًا ، متوسلا ، تقول لى : « ماذا أصنع ؟ أمامى مخلوق يدعى « أوديب »، مكتوب فى « لوحى » أنه يجب أن يقتل أباه ، ويتزوج أمه !.. كيف يتم هذا الحكم العجيب عليه ؟.. ماذا أصنع ، حتى ينزل به القضاء المكتوب !؟.. عند ذاك ، هدأت أنا من روعك ، وقلت لك : يا عزيزى .. القدر !.. لا تصنع أنت الآن شيئًا .. دعنى أنا أحوك لك الحوادث ، وأنسج لك الظروف .. أنسيت كل هذا ؟!»...

فقال الزوج :

ـــ أما أنك خياطة بارعة ، فهذا ما لا سبيل إلى إنكاره ، وهل كنت تريدين أن أعطى زوجة ، لا تجيد على الأقل الخياطة والنسيج ؟.. ولكن الذى آخذه عليك هو ذلك المقص الطائش فى يدك !.. بعض التأنى !.. بعض التعقل !.. لا تكونى هكذا عصبية المزاج !.. إنك تلبسين أعمالى أحيانًا أردية سخيفة التفصيل ، سريعة التطريز !.. لطالما سمعت من ينتقدنى من الناس بقوله : يا لهذا القدر ، الذى يبدو فى صورة بعيدة عن العقل والمنطق !.. ولو علم الناس أن العقل والمنطق ، لا يمكن أن يكونا من صنع امرأة ؛ـــ لما اتهمونى ظلما .. ولكن أين لهم أن يعلموا أننى متزوج ؟!.. منك أنت يا عزيزتى «مصادفة»؟!..

فقالت الزوجة بهدوء ورفق :

ـــ أتستطيع أن تدلنى على رداء واحد لم أتقن نسجه !.. هل انتقد أحد على مر الأحقاب ما صنعت فى «أوديب»!.. قلت لى: إنه يجب أن يقتل أباه، ويتزوج أمه !.. فانظر ماذا فعلت أنا لأمكنك من ذلك : جعلت والديه يعرفان هذا المصير من أحد العرافين ؛ فيدفعان به ، وهو فى المهد ، إلى راع ؛ ليسلمه إلى الفناء .. ولكن الراعى أسلمه إلى ملكة عاقر ، فى مملكة بعيدة ، حتى شب وهو يعتقد أنه ابن هذه الملكة وزوجها ، ثم جعلته ـــ وهو فتى ـــ يعلم بنبوءة العراف ، فيهرب ممن يعتقد أنهما والداه !.. وعندئذ ، جعلت أباه الحقيقى يسافر من مملكته ـــ مع حاشية قليلة العدد ـــ فيتقابل مع ابنه ، وهو لا يعرفه عند مفترق طرق ، ويحدث

بينهما نزاع على من يمر قبل الآخر ، ويشتد الشجار إلى حد الضرب ، وهنا جعلت ضربة من يد الابن تنحرف فتصيب أباه ، فيقع جثة هامدة ، ويخلو عرش المملكة ، وتظل أم « أوديب » الحقيقية بلا زوج !.. عند ذاك ، جعلت وحشًا غريبًا ، يهدد أهل تلك المملكة ، ويفتك بشبابها !.. وجعلت الملكة الأرملة ، تعلن إلى الناس أنها تقدم نفسها عروسًا لمن يقتل الوحش ، وينجى المدينة من شره .. وهنا جعلت « أوديب » هو الذى يقتل الوحش وينال العروس التى هى أمه .. ماذا فى ذلك يخالف العقل أو المنطق ؟..

فقال الزوج متجنبًا الرد على سؤالها :

— لا فائدة !.. أهنالك امرأة تعترف بأن تصرفاتها غير معقولة ؟!.. إنك فى كل يوم تفرقين بين ما ينبغى أن يتلاقى ، وتجمعين بين ما يجب أن يفترق !.. لشدما يغيظنى أن أرى رجلا وامرأة ، كل شىء فى أحدهما يناسب الآخر ، كل شىء فى أحدهما ينادى الآخر ، وهما يعيشان الأعوام — أجدهما على مقربة من الآخر — فما تتدخلين أنت بحركة ، أو بهمسة ، أو بوخزة ؛ لتنبهى أحدهما إلى صاحبه .. وإذا كل منهما يسير بعد ذلك فى طريق ، فتتدخلين أنت ، وتقحمين على كل منهما إقحامًا شخصًا غريبًا ، ذا طباع مختلفة متنافرة ، ولا تزالين بهما حتى يجتمعا ، وكل شىء فيهما يصرخ مستغيثًا ، طالبًا أن يتعدا بعد السماء على الأرض !..

— أنسيت أننى إنما أسير وفقًا لأوامرك !..

— هذا صحيح !..أنا أصدر الأمر ، وأنت تدبرين !.. أنا آمر بالطعام ولكنك أنت المسئولة عن الألوان إذا تنافرت ، والطهو إذا لم يحسن سبكه !..

— كيف تريد أن يكون حسن السبك ، وأنت الذى قلت لى فى الحالة التى ذكرتها : مكتوب فى لوحى ، أن هذين الزوجين يجب أن يكونا فى زواجهما شقيين ؟!..

فأطرق الزوج و لم يجب ؛ كأن أمرًا هاما يشغل باله ، وفجأة رفع رأسه ،

والتفت إلى زوجته قائلا :

ـــ ما علينا .. اسمعى ياعزيزتى « مصادفة » !.. أمامى حالة ، أريد أن أختبر فى علاجها براعتك !.. رجل فى تمام صحته ، قد حجز محله فى القطار المتحرك بعد ساعة ، ولكن المكتوب فى لوحى ، أنه سيموت فى الجو ، ذلك اليوم نفسه ، ماذا نصنع ؟..

ـــ ليس أبسط منها حالة !.. انظر !.. سأجعله يقابل صديقا ، يحدثه عن وقوع تصادم لقطار فيتشاءم ، وينوى السفر بالطائرة التى علم أن صديقه مسافر بها ، وإذا لم يكن موت الصديق أيضا مقررًا ـــ فى لوحك ذلك اليوم ـــ فإنى أجعله يؤجل سفره ، وينزل لصاحبك عن محله ، وترتفع الطائرة بالرجل ، وتحترق فى الجو بمن فيها !.. ما رأيك ؟..

فهز الزوج رأسه ، وقال متنهدا :

ـــ دائمًا أسلوبك الملتوى كخيوط العنكبوت !.. لماذا لا تنزلين صريحة صارمة كالصاعقة !.. ولكنك امرأة ، لا تجيدين غير « شغل الإبرة »!..

فانتفضت الزوجة غاضبة ، ونهضت صائحة :

ـــ يالظلم الأزواج !.. إن طول العشرة يضجركم ويبطركم !.. ولكنى أقسم لك لو استمر نقدك لى ، على هذه الصورة ؛ـــ لكففت عن معونتك ، وامتنعت عن هذا العمل الذى تسميه « شغل الإبرة » لأرى ماذا تصنع بمفردك ـــ أنت الصارم الحازم ؟!..

فتراجع الزوج ، وأجلس زوجته إلى جانبه ، وقال لها برفق :

ـــ مهلا ياعزيزتى « مصادفة » !.. مهلا !.. ترفقى بصحتك .. لا تكونى هكذا عصبية المزاج !..

فقالت الزوجة متدللة :

ـــ لست عصبية المزاج !.. إن نسيجى الذى تنتقده ، ليس سوى خيال خصب .. أما أنت ـــ بحزمك وعزمك ـــ فضعيف الحيلة ، فقير المخيلة .. تريد

أن تنزل بأحكامك ؛ كالسيف الأصم ، بلا تمهيد ولا تدبير !..

— أحمد الله أنك معى ؛ لتمهدى وتدبرى . أما من قبلة للصلح ؟!..

— على شرط ألا تعود ، فترمينى بقلة العقل والمنطق !..

— وألا تعودى أنت فترمينى بضعف الحيلة والخيال !...

وتعانقا وتصالحا ، وباتا ليلتهما متصافيين هانئين إلى أن طلع النهار . وتوالت الليالى ، ونسيا الشرط والوعد ، وعاد كل منهما إلى سابق عهده ، يبدى رأيه فى صاحبه ، ويعقد فى جو الزوجية سحابة تبرق وترعد ، ثم تنقشع . وهكذا دواليك ؛ لأن تلك هى الحياة التى اصطلح على تسميتها « الحياة الزوجية الموفقة السعيدة » حتى إن كان الزوج اسمه « القدر »، والزوجة اسمها « المصادفة »!..

الفنان والجمهور

هل يجب على الفنان أن يهبط إلى الجمهور ، أو أن يصعد إليه الجمهور ؟..
سؤال كثير التردد على شفاه الناس ، والإجابة عنه تقتضى شيئًا من التأنى ، فلا بد ـــ قبل كل شىء ـــ أن يكون هنالك « فنان »!.. أى إنسان أقوى فى الإدراك ، وأسلم فى الذوق ؛ـــ من سواد الجماهير !.. فإذا انعدم هذا الشرط لم يعد هنالك محل لهبوط ، أو صعود !.. ولم يبق إذن معنى للسؤال !.. فإذا استوثقنا من أن الفنان موجود ، وأنه قائم ، بإدراكه وذوقه ، وأسلوبه ، فوق قمة ، يشرف منها على الجموع ،ـــ فقد حق علينا أن نبحث : أيهما يخطو نحو الآخر حتى يتم اللقاء ؟.. أهم الذين يتسلقون إليه الجبل ؟.. أم هو الذى ينزل إليهم السفح ؟..

قد يكون من الخير أن نلتمس الهداية عند المبدع الأعظم لهذا الكون !.. لقد أراد ـــ وهو فى عليائه ـــ أن يبلغ الناس رسالة . فماذا فعل ؟.. إنه تعالى لم ينتظر من الناس ، بمفردهم ، صعودًا إليه ؛ لأن هذا شاق عليهم ؛ ولأنهم فى ظلامهم وجهلهم لا يعرفون مسالك الطريق إلى نوره !.. إنهم فى حاجة إلى من يمسك بأيديهم ، ويقودهم ويصعد بهم !.. لا بد إذن من النزول بينهم ، ولكن من الذى ينزل ؟.. الدين الإسلامى يعلمنا أن الذى نزل هو محمد ؛ رسولا من عند الله !..
أما الدين المسيحى فيقول لنا : إن الذى نزل هو الله نفسه ؛ متجسدًا فى المسيح !..

مهما يكن من اختلاف فى الدينين ، فهما متفقان فى الغاية : أن الله رأى أن يدنو هو من الناس برسالته ـــ لا أن يتركهم ، يصعدون إليها ؛ من أرضهم !..

لا جدال إذن فى أن الفنان لا يستطيع أن يبقى فى القمة ، حبيس فنه ؛ منتظرا أن يصعد إليه الجماهير فى جبله الوعر ، يحملون المصابيح فى أيديهم ، ويتصبب

العرق من أبدانهم وهم يصيحون به : « أين أنت أيها الفنان المعلق فى السحب ؟!.. جئنا نبحث عنك ؛ فقد أدركنا بالفراسة ، أو بالحدس والتخمين ، أنك فى ذلك المكان ؛ فهل عندك رسالة تبلغنا إياها ؟!..

لا يمكن بالطبع أن يقع شيء من ذلك ، ولكن المعقول هو أن ينزل ذلك الفنان ، حاملا رسالته تحت إبطه ليلتمس الناس ، فى مسارحهم ومشاربهم وأسواقهم ، ومتاجرهم وملاهيهم ، ليقول لهم : « أيها الناس !.. أصغوا إلىّ لحظة !.. إنى لم آت لأثقل عليكم ، ولا لأضيع وقتكم عبثا ، ـــ ولكن معى شيئا أعرضه : فيه متعة لكم !.. ولكن فيه أيضًا تهذيبًا لنفوسكم ، ورفعا لمداركم !.. »

وهنا تقوم ـــ فى وجه الفنان ـــ مثل الصعوبة التى قامت فى وجه الأنبياء ، فالجماهير ـــ أمام النبى أو الفنان ـــ تتفرع عندئذ إلى طائفتين : طائفة تحسن الإصغاء إلى لب الرسالة ، ولا يشغلها الغث عن السمين ، ولا الغلاف المزوق عن العرض المكنون ، ولا الظاهر الشائق عن الباطن المقصود ، فتتبع الفنان فى كل طريق ، وتسلمه قيادها ، فيصعد بها الجبل خطوة خطوة ، متحاملة على نفسها ، متمسكة بالصبر ، ماسحة عن وجهها غبار الكد وآثار الضجر ، مؤمنة بقائدها وبالهدف الذى يسير بها إليه ، ـــ حتى تجد نفسها ـــ آخر الأمر ـــ قد استوت معه فوق القمة !.. وطائفة ، عامية عابثة ، ما إن ينتهى بها الإصغاء إلى معان أعمق مما تصورت ـــ حتى يطيش حلمها ، ويذهب صبرها ، وتسرع منفضة من حول الفنان ، ضاحكة ساخرة ، ما وعت من رسالته غير السطح المموه ، والقشرة الملونة ، والجانب السهل الخفيف ، والشكل البراق السخيف ، الذى ما قصد به إلا اجتذابها ، وإثارة استطلاعها واستدراجها إلى ما فى داخله من جوهر مفيد !..

هذه الطائفة الأخيرة ـــ من غوغاء الفكر ، وكفرة الدين ـــ هى التى تتعب

الأنبياء والفنانين !.. وهى فى الفن تتظاهر بمتابعة الفنان ، إلى أن يبدو عليه ميل للجد والصعود ، فتحزن وتقف وتقول له هازلة : « إلى هنا ، واترك يدنا ، واصعد وحدك !..» وهى فى الدين تساير النبى حتى ينهاها عن منكر تريده ، فتهزأ به ، وتقول : « اذهب عنا واتركنا فى لذائذنا !..» تلك هى الطائفة التى كتب عليها الضلال فى العقيدة ، والظلام فى الفكر ، وهى التى لن ترقى إلى قمة أبدًا !..

الشهرة الأدبية

من رأى « كارليل » أن « چان چاك روسو » رجل مريض ، وأن رغبته المحرقة — فى مدح الناس له — قد بلغت حد الجوع ، الذى لا يعرف له شبع !.. ولقد روى عنه أنه دعى ذات مساء إلى حضور رواية تمثل على المسرح ، فاشترط على من دعاه أن يذهب متنكرا ، كما يفعل الملوك ، أى يخفى وجوده عن الناس ، حتى يكون فى زعمه ، على شىء من الراحة والتحرر والطمأنينة ، ولكن الجمهور ما لبث أن لمح « چان چاك روسو » فى مقعده ، ولم يلق بالا إليه ، ولم يحفل بأمره ، فثارت ثائرة « روسو »، وضاق صدره طول المساء ، وساء خلقه ، وغضب إذ خاب تدبيره ، وأخطأ حسابه ، وعرفه الناس .. على أن الذى دعاه ورأى منه هذا الحال ؛— أيقن كل اليقين أن العلة الحقيقية فى غضب « روسو » وثورته ليست فى معرفة الناس له .. بل فى أنهم عرفوه وتبينوه ، ولم يبدوا له الحفاوة ، ولم يستقبلوه بالترحيب !.. ويعلق « كارليل » على ذلك بأن طبيعة « روسو » كلها قد تمكنت منها هذه الفكرة المسيطرة — فكرة الشهرة عند الجماهير ، وما يقترن بها من مساس بشخصه ، وإعلاء أو حط من قدره !..

وإذا تركنا « روسو »، وصدقنا ما قيل فى « جوته »، و « بيتهوڤن » من أنهما كانا يضمران الغيظ ، كلما مرا فى الطريق معا على جماعة من الناس ، تعرفهما وتحييهما ، فقد كان كل منهما — فيما روى — يعتقد أن التحية موجهة إليه ، وأنه هو المقصود بإيماءة الرأس ، وإشارة البنان !..

وإذا تركنا كل هؤلاء ، ورجعنا إلى أدباء العرب وشعرائهم ؛— وجدنا كثيرا من أعاظمهم يحبون الشهرة ، ويفاخرون بذيوع الصيت فى جموع الناس !.. وهذا هو « المتنبى »؛ الذى يقول مباهيا :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

ما هذه الشهرة التى يحبها أكثر العظماء ؟!.. أهى شىء غير أن تكون معروفا لأناس لا تعرفهم ؟!.. وما قيمة ذلك عند رجل عاقل ؟.. ما الذى يحبب إليك هذا الوضع الغريب : أن يكون سترك مهتوكا ، وأمرك مكشوفا ، لقوم مجهولين لك ، يحملقون فى وجهك إذا سرت ، ويتهامسون عليك إذا أقبلت ، وينبشون فى أسرارك ، ويبدون رأيهم فى خياتك ، ويجعلون منك موضوعا للحديث الفارغ أو الساخر ، ويرون من حقهم أن يشرحوك حيا أمام الملأ ، وأن يجردوك من ملابسك فى الطريق العام ؛ لأنك كما يقولون : رجل عام !.. ليس من حقك الستر ، ولا بد أن تعرض للناس حقيقتك العارية !.. أليس هذا الذى يحب لنفسه هذا الوضع غير مريض أو مجنون ؟!..

مامن شك أنه مريض أو مجنون ، ذلك الذى يحب راضيا مباهيا أن ينزل عن ملكيته لنفسه ، ويصبح مملوكا لأناس لا يمتون إليه بصلة ، يتصرفون فى أمره كما يريدون ، ويصورونه لأنفسهم وللمجتمع على النحو الذى يحلو لخيالهم السقيم أو السليم !..

إن المشهور شخص باع الحرية واشترى العبودية ، باع حريته فى أن يذهب حيثما يريد ، فلا يجد من يفسر تنقلاته تفسيرات مختلفة ، وباع حريته فى أن يتصرف كما يشاء ، فلا يجد على تصرفاته معقبا ، وباع حريته فى أن يراقب الناس ولا يراقبه أحد ، ويطلق لسانه فى كل شىء فلا يحاسب على ما يقول،ويكون هو السائل ، ولا يكون هو المسئول!.

لماذا تباع هذه الحرية إذن فى سبيل هذه العبودية ؟..

لا يوجد غير سببين :

إما أن الشخص يتعرض للشهرة ، أو يسعى إليها وهو عالم بعواقبها السيئة ، وأعبائها الثقيلة ، ولكنه لا يجد منها بدا فى سبيل غاية أسمى ، كتبليغ رسالة إلى الناس ، أو نشر أفكار فى المجتمع ، فمثله مثل الذى يسعى إلى هدف دونه بحر ، فلا يجد مفرا من أن يرضى بخلع ملابسه ، ليخوض الماء !..

وإما أن الشخص يحب الشهرة لذاتها ، ويجعلها هى الهدف ، ولا يهمه أن يصل بعدها إلى شىء : فمثله هنا مثل الذى يتجرد ويقذف بنفسه فى البحر ، لا ليعبره إلى غاية أخرى ، بل ليظل فيه سابحًا أو غارقا ، وهو بذلك وحده ناعم راض مسرور .. لا يريد من هذا البحر خروجا ، ولا يريد من هذه العبودية انطلاقا ، يتأذى إذا صدف عنه بحر المجتمع ، فلم يصفق لمجيئه ، ولم يهتز لذهابه !..

حب الشهرة على هذا النحو مرض من غير ريب ، وهو يسبب آلاما نفسية لصاحبه ، وهو أشد فتكا فى العظماء والأقوياء من البشر — ليت العلم الحديث يكشف له علاجا !..

شخص الفنان

جلسنا أمام البحر ، تهب علينا أنسام سبتمبر الباردة اللطيفة ؛ كأنها الطيور المهاجرة ، هاربة من طلائع الزمهرير إلى الجنوب !.. هذا أوان السمانى بدأ موسمه وكثر باعته ، يحملون الأقفاص ، ويصيحون من حولنا منادين ..

قال صاحبى :

ــ يا لهذا السمان القوى !.. إنه يقطع هذا البحر العظيم طائرًا فى الفضاء ، لا يستريح على أرض ، ولا يتنفس فوق شجرة !.. أذكر أنى فى مستهل العمر تمنيت لو أن خلقنى الله طائرًا من الطيور ، أما وقد خلقت إنسانا ؛ فقد كان الأولى بى أن أكون على الأقل فنانا ــ ولكن الحياة جرفتنى فى نهرها الضيق !..

ــ وما الذى كان يغريك بتلك الأمنية ؟

ــ أمر واحد كان يجذبنى ويغرينى : حرية الفنان !.. إن الحرية لقوة !.. تلك الحرية التى هى أثمن امتياز ، منحه المجتمع لرجل الفن !.. أو قل إنه هو الذى استخلص هذه الحرية بيده !..

فالمجتمع لا يستطيع أن يمنح الفنان شيئًا ــ إنما الفنان هو الذى هرب من قيود الناس الأرضية ، وخرج على أوضاعهم السطحية ، وزهد فى قيمتهم المادية ، وارتفع إلى قيم أخرى أسمى وأبقى ، ــ وبذلك استطاع أن يطير إلى الأعالى ، لأن وظيفته التحليق فوق رءوس الناس ، ليرى ما لا تراه عيونهم !..

* * *

قالها الصديق بحرارة وإيمان ، وسكت منتظرًا منى الكلام !... ولكنى رفعت بصرى إلى سرب من طير النورس الأبيض ، يبسط أجنحته على صدر الماء ، وقلت :

ــ هذا «النورس» يرى الأسماك تسبح فى الأعماق ، وهى لا تراه !.. تلك هى

الحرية حقا .. ولكن الأسماك الآدمية لا تلبث أن تلمح وهى فى غمرتها ، الفنان فى ارتفاعه ، فتصوب إليه نظرات الأفاعى حتى يسقط فى أفواهها !.. كم من الفنانين استطاع أن يحتفظ بقيمه العليا طويلا !

ــ الفنان الذى يسقط ، ليس هو الفنان الحق !..

ــ هذا صحيح !.. ولكن المؤلم أن ترى فنانا ، يجاهد فى سبيل المحافظة على قيمه العليا ؛ كما يجاهد الطير ليبقى فى علوه ، ولكن الناس لا يتركونه يجاهد ضد نفسه ، وضد جاذبية الأرض ، بل يسرعون إليه مدفوعين بالفضول يتناولونه بالنبش فى ريش حياته ، والتفتيش فى حنايا وجوده وشخصه ؛ــ يفسرون كل شيء فيه بمقاييسهم ، ويخضعون كل بادرة منه إلى أوضاعهم ، ولا يدعونه حتى يربطوا رجله بخيط يلهون به ، ويشدونه إليهم كلما آنسوا فيه ميلا للهرب .. لا يا صاحبى !.. لا تتحدث كثيرًا عن حرية الفنان !..

* * *

وسكت لحظة أتأمل موج البحر ، ثم مضيت أقول :

قرأت يومًا لأحد الأدباء الغابرين هذه العبارة : حبذا لو قرأ الناس مؤلفاتى كما لو كانت وجدت داخل زجاجة مختومة ملقاة بين أمواج اليم .. هذا أديب يتمنى أن يلقى إلى الناس بإنتاجه ، ولا يلقى إليهم بشخصه !.. لقد كانت هذه خطتى دائمًا فى مطالعة آثار الفن !.. ما أذكر أنى قرأت مرة مقدمة عمل فنى !.. بل كنت أنصرف قدمًا إلى العمل ذاته ، إنى لا أعرف شيئًا كثيرًا عن حياة « شكسبير »، و لم أعن بالنظر فى حياة « الفردوسى »؛ أو « الجاحظ ».. و لم أحاول أن أقرأ حياة « جوته » أو « موليير »!.. كل هؤلاء تغذيت بكثير من إنتاجهم ــ قبل أن أعرف من هم ــ بل لقد منعت نفسى منعا صارما عن قراءة حياة « فاجنر » بقلمه ، وهى فى ثلاثة أجزاء ملأى بالطريف الغريب ، و لم تهزنى حياة « بيتهوفن » ولا حياة « موزار » ولكنى حفظت الكثير من موسيقاهم عن ظهر قلب !.. إنى أريد أن أكتشف الكنوز بنفسى ، ولا أريد غواصا معى يختنق

أنفاسى بثرثرته ، أو دليلا يقودنى حسب هواه !..

* * *

وغرقت فى الصمت .. وأطرق الصديق لحظة .. ولكنه ما لبث أن التفت إلىّ قائلا بنبرة شك :

— لا .. لست من رأيك فى هذا !.. وهل يستطيع الناس أن يقدروا الأثر الفنى دون أن يعرفوا صانعه ؟!.. لو لم ندرس حياة الكثير من الفنانين ونلم بظروف إنتاجهم ، ونعرف تفكيرهم وفلسفتهم وبيئتهم واتجاهاتهم .. أكان من الممكن أن نفهم مرامى أعمالهم ؟!.. إليك مثلا بسيطا : الفن الإغريقى ، ما سر تقدير العالم له ؟!.. أليس لما يعرفه للناس عن حياة أكثر خالقيه ؟.. ماذا يحدث لو جهلنا كل شيء عن شخصية فنانين ؛ من أمثال « فيدياس » أو « براكسيتيل »؟!..

— لا يحدث شيء .. وأبادر فأطرح عليك هذا السؤال :

ألا تقدر أنت — ويقدر العالم كله معك — ذلك التمثال المصرى البديع ! رأس « نفرتيتى »؟.. أتستطيع أن تخبرنى من صانعه ؟.. و « أبو الهول » الرهيب ، أتعرف من ناحته ؟!..

— إذا عرفنا ذلك كان أدعى إلى زيادة متعتنا الفنية !..

— أتظن ذلك ؟.. أما أنا فأرتاب فيما تقول .. ماذا يحدث لو عرفنا كل شيء عن الخالق الأعظم الذى أبدع الكون المنسق العظيم ؟!..

— إن الخالق الأعظم هو نفسه الذى يبعث إلينا برسله ؛ ليعرفونا به تعالى ، ويصفوه لنا ، ولم يقتصر على ذكائنا وحده فى معرفته ، ولم يكتف بقدرتنا المحدودة على فهم آثاره وأعماله ومراميه !..

— وهل استطاع الرسل أن يصفوه لنا على حقيقته ، أو أنهم وصفوه لنا على تلك الصورة التى توافق عقولنا ، ولا تعلو على إدراكنا !.. إنه لأمر عسير على الرسل أنفسهم ، قبل أن يكون عسيرًا على الناس !.. وإن قليلا من بينهم من

أمكنه التحليق إلى حيث يقتبس شعاعا من نور الله ، وأقل من هؤلاء من تمكن من شرح هذا الشعاع للناس على نحو يفهمونه ، و لم يكن فى مقدور الناس أن يعرفوا عن الله أكثر من أنه جبار قهار ، لطيف غفور ، كريم رحيم !.. إلخ .. صفات إنسانية تدركها مشاعرهم الآدمية !.. لا ياصاحبى .. إن الناس لا يمكن أن يتصوروا إلا ما كان على صورتهم !.. وإنهم هم الذين يفرضون عليك الصورة التى يعرفونها ، كما لو كانت ثوبًا من صنع أيديهم يلبسونك إياه قهرًا . هذا ما دفع الخالق الأعظم أيضا إلى تحذير الناس من الخوض فى شخصه .. وحمل رسله على منع الناس من الاسترسال فى أسئلة خاصة بذاته تعالى — وإذا كان الناس قديرين على تناول الذات العلية بالتشويه ، فما بالك بشخص الفنان — وما هو إلا فرد من بينهم يستطيعون أن يقولوا فيه ما يشاءون — حتى من يزعم أنه شارح لشخصه ، ومفسر أو مدون لحياته ، أو مؤرخ — قلما يوفق إلى تقصى الحقيقة فيه .. إنما هو يجمع نتفا من تقولات الناس ، إذا لم يكن قد رآه ، فإذا كان من معارفه رسم له صورة من وحى رأيه الشخصى فيه ، قد يخطئ فيها أكثر مما يصيب !.. لو علمت كيف يكتب التاريخ لألقيت فى هذا البحر بكل كتب التراجم !.. ثق أنه ليس أصدق من « الأثر الفنى » وحده . هو صورة الفنان التى لا تشوه .. هو روحه المنطلق من جوف ردائه الدنيوى .. هذا الرداء الذى لا يستطيع الناس أن يتقولوا فى تفصيله ، بما شاء لهم جهلهم أو زيفهم ، أو تحمسهم ، أو إغراقهم !.. « العمل الفنى » هو وحده الذى يحلق فوق الأجيال حرًا سليما ، بعيدًا عن أيدى العابثين وأفواه الناهشين . هنا حرية الفنان التى ليس له حرية سواها !»..

***

ومر بنا فى تلك اللحظة بائع « سمان » يحمل قفصه وينادى ..

فقلت لصاحبى :

— حرية الفنان، مثل حرية «السمان».. إنها فى الفترة التى يحلق فيها فوق البحر.. بحر الفن.. مهاجرًا من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال!.. أما فيما عدا ذلك فإنه يهرب من أطباق الثرى أو الثلوج، ليسقط فى أطباق الأرز أو الثريد!..

منطق الفنان

المجتمع ــ هذا الكائن الضخم ــ كالبحر يحيط بمنارة الفنان ويعلو بسواد أمواجه على صخرتها يريد أن يضمه بين أحضانه .. متوهما أنه يغمره بعطفه وحنانه ، ومحاولا أن يخضعه لمنطقه وقوانينه ، فإذا أقصى الفنان رأسه عن مستوى الغمر ، وأبعد مصباحه عن لفحة الموج ؛ وتصرف فى أمر بوحى من ضوئه الداخلى ؛ ــ حكم عليه المجتمع من الفور بالشذوذ !..

ما من أحد أشد التصاقا بالمنطق كالفنان ، لأن الفن ذاته منطق !.. ما الفن إلا منطق فى رداء جميل !.. « بيتهوفن » فى عالم الأصوات هو سيد المنطقيين بلا مراء !.. إنه « أرسطو » الموسيقى !.. أنغامه تنساب فى منطق عجيب خلاب ، مقدماتها تفضى إلى نتائجها الحتمية ، وتتسلل مثل أبرع الأفكار الفلسفية إحكاما !.. وإذا كان الخلق صورة من الخالق ، فلا بد أن يكون المنطق ــ وهو روح الفن ــ من خصائص الفنان !..

كل فنان منطقى مع نفسه ، وحياته ، وشخصيته ، والظروف التى فيها يعمل ، وينتج ويخلق !.. ولا أستطيع أن أصدق شيئًا غير ذلك ، ولكنه نوع من المنطق خاص به ، ملائم لحياته ، وظروفه الخاصة ؛ لا علاقة له بالمنطق العام الذى اصطلح عليه المجتمع وسنه شريعة للناس ، بغير تفريق ولا تمييز !..

إن الفنان لا يتقيد بنظرة الناس إلى الأشياء .. لأن الناس تصنع نظارات مصنوعة سلفا لكل أمر من أمور الدنيا !.. أما هو فينظر إلى الأشياء بعينه هو المجردة عن كل منظار صنع بيد غيره ، فيرى بالضرورة غير الذى يراه الآخرون .. إنه يبتدع منطقه بنفسه ؛ كما يبتدع فنه ، فإذا أدهشت الناس تصرفاته رموه بالشذوذ !..

قليل من المفكرين أو المنصفين من يفهم الفنانين !.. إن من أراد أن يفهم فنانا

وجب عليه أن يضع نفسه فى مكانه ، ويحس إحساسه ، ويعرف لون حياته ونشأته وماضيه ؛ وعراكه وجهوده ؛ وميوله ونزعاته ؛ — فإذا تعمق فى درسه خرج منه يقول : معقول .. ليس هنالك شذوذ !. إنما هو منطق مقبول !..

إن المجتمع يخطئ دائمًا فهم الفنان كلما أراد أن يطبق عليه قانونا ثابتا .. لطالما سمعنا من يزعم — عن تخبط وجهل — أن الفنان ينبغى له أن يتزوج لينتج ، أو أن يعيش مترهبا ليبدع ، أو أن يشقى فى الحب ليخلق ، أو أن يذوق الفقر أو أن ينعم بالثراء .. إلخ ، — كل هذه الأقوال هراء !..

لقد أشبع التاريخ أولئك المتحذلقين تكذيبًا ، وخلد فى سجله عباقرة فى الفن أنتجوا آيات !.. بعضهم وهو عزب ، وبعضهم وهو متزوج !.. بعضهم وهو فى ذلة الفاقة ، وبعضهم فى نعمة الرخاء !.. بعضهم وهو غارق فى الحب ، وبعضهم وهو محروم من الحب !..

ولطالما توهم الناس أن الفنان الذى ينتج من أجل المال — يسف ، وأن من يعمل — بناء على طلب — يهبط ويسخف !.. وها هو ذا « بيتهوفن » يخلق السانفونية التاسعة العظيمة ، من أجل خمسين جنيها بناء على طلب دار من دور النشر الموسيقى !.. وها هو ذا « شكسبير » كان يحشر أحيانًا فى بعض مسرحياته الفكاهية ما يعجب جماهير الملاعب ، ويربح ما يقيم أوده ويكفل معاشه .. فلا الإنتاج من أجل المال ، ولا العمل على إرضاء الجماهير ، منع الفنان الحق من أن يخرج فى الفن روائع، لأن العبقرية إذ انفجرت فإنها تستمد وحيها من السماء ومن الأرض ، من الروح ومن المال . من السحب ومن الوحل !.. كل شىء لها منبع وحى ومصدر غذاء !..

ليس فى الوجود قانون يطبق على الطبيعة الفنية !..

إنها قادرة على الإبداع فى أى ظرف ، وفى كل حال — لا شىء يقتلها !.. كل شىء يغذيها ، ويقويها ، وينفعها .. إنها لا تقتل أبدًا من الخارج .. ما من شىء فى الكون يهدم الفنان ، حتى يده !.. حتى أخطاؤه ، لأن فنه يأكل ويطعم ويستفيد

من كل ما يصادفه من العلو ومن الهبوط ، ومن الفوز ومن الإخفاق ، من الفضائل ومن الرذائل !.. من الاعتصام بالشواهق ، ومن التردى فى المساقط والمهاوى !..

شىء واحد يقتل الفنان .. ولا يصيبه إلا من الداخل ، هو : نضوب الزيت من مصباحه .. وانطفاء جذوته ، وانتهاء رسالته !.. وهو نفسه لا يعرف ذلك الموعد ، ولا يتنبأ بذلك الحين !.. وربما سكت دهرا ، فإذا الفتيلة تتوهج بلمعة أخيرة رائعة ، قبل أن تخبو طبيعته الفنية ، وترقد رقدة الأبد !..

ليس أثقل — فى نظرى — من أولئك الذين يسألون الفنان : لماذا كف عن إنتاج الآثار القيمة ؟.. لو أنهم أعطوا قدرًا من الفهم والعلم ، لأدركوا أن الفنان لا يخلق بإرادتهم ولا بإرادته !.. فليسألوا ذلك الجبل الشامخ فوق البحر « بركان فيزوف » الأشم : متى تضطرم أحشاؤه ؟!.. ومتى يخرج رأسه النور ، وصدره الحمم ؟!..

الفنان لا يشيخ

لا أنسى تلك المذكرات التي قرأتها منذ سنوات ، عن « تولستوى » بقلم سكرتيره الذى لازمه فى كهولته وشيخوخته !.. كان ذلك السكرتير شابا لم يتخط الثلاثين ، وكان حديث عهد بالتخرج فى الجامعات ، يوم دعى إلى خدمة « تولستوى »!.. كتب يصف أول لقاء له بالكاتب العظيم ، فقال إنه ذهب إليه فى قريته « يا سنايا نوليانا » حيث مزرعته الواسعة ، وهو يرتعد فرقا من رهبة المقابلة!..ويحسب حسابا لما يقول وما لا يقول ، ويرتب الكلام بمقدار،والصمت بمقدار؛فهو أمام عقل من أكبر عقول «أوربا» فى ذلك الوقت!..ومشى متئدًا مضطربا فى طريقه إلى البيت الكبير ، فرأى رجلا أشيب الرأس واللحية فى ثياب الفلاحين ، يجلس تحت شجرة ، فسأله عن « تولستوى » وأين يكون الساعة ؟. فى البيت أو فى الحقل ؟.. فابتسم له الكهل ، وأجلسه إلى جواره ، وجعل يلاطفه ويحاوره حتى أنس له الشاب ، واطمأن إليه ، فمال الكهل على أذن الشاب هامسا : أنا « تولستوى »!..

وطفق السكرتير الشاب ، يسرد بعدئذ مفصلا فى صفحات طوال كيف نشأت بينه وبين « تولستوى » صداقة وألفة ، واتفاق واتساق فى كل قول وشعور ، إلى حد نسى معه الفارق الذى يفصل بينهما : فى السن والفكر والمقام ــ وكلما مرت الأيام بهما ، تأكد إحساس الشاب بأن « تولستوى » ليس أكبر منه سنا ، وأنه مثله فى نحو الثلاثين !.. شىء واحد يضحكهما معا ، ويبكيهما معا ، ويثير اهتمامهما معا !..

إلى أن كان يوم هبط فيه القرية أنجال الكاتب العظيم ، جاءوا من المدينة ، ونزلوا ضيوفا على أبيهم .. وكانوا فى سن الشاب السكرتير ؛ فإذا شعور مفاجئ يصدمه على الفور!.لكأن أولئك الأنجال هم الكهول؛وكأن أباهم هو الشاب الخجول!.

فقد كان فى كلام أولئك الأبناء، وفى حركاتهم وضحكاتهم؛ — ذلك الوقار المتكلف والجد المصنوع ، والبعد عن البساطة والطبيعة ، مما حمل السكرتير على الصمت رهبة منهم ، واكتفى بأن نظر إلى « تولستوى » بعينه وكأنه يقول له: فلنصبر عليهم حتى يرحلوا ؛ إنهم أكبر منا سنا !.. فيتلقى الجواب نظرة باسمة متواضعة من الكهل ، وكأنه يجيبه موافقا : « أصبت يا صديقى !.. مالنا ولهؤلاء المسنين ؟!.. »

* * *

مثل هذا القلب نجده عند « جوته »، فقد بلغ جوته الثمانين ، وما شعر بأن قلبه قد شاخ ، وإذا هو يقع فى غرام فتاة فى الثامنة عشرة ، نضرة كالزهرة .. وحاول أصدقاؤه عبثا أن يفهموه الموقف ، فما ازداد إلا تشبثًا برغبته فى الزواج منها !.. إنهم هم الذين لم يفهموه ؛ ولم يدركوا أن هذا الشاعر الشيخ كان له دائمًا قلب شاب !.. إنه ليدهشنى كيف وقف « جوته » ذلك الموقف الصارم من « هاينى » !.. فقد روى « هاينى » أنه يوم كان شاعرًا شابا طلب مقابلة « جوته » شاعر « ألمانيا » العظيم .. فلما أذن له ودخل عليه ، وجده صامتا صارما ؛ كتمثال إله ، ولم يرض أن يلقى من عليائه بكلمة رقيقة ، إلى الشاعر الشاب !.. وخرج « هاينى » من ذلك المكان الرهيب ، يسخط ويقول : « ما جوته هذا سوى معبد أجوف !.. » فى يقينى أن ما بدا من « جوته » يومئذ ؛ لم يكن سوى الرداء التمثيلى المزركش ، الذى يحلو للعبقرية أحيانا أن تدثر فيه دلالها وفخرها !.. ولو صبر « هاينى » الشاب ؛ حتى تتوثق الألفة بينه وبين الشاعر الكبير ؛ — لرأى العبقرية قد خرجت عارية من ردائها الرسمى .. فإذا فى جوفها قلب بسيط طيب صاف فياض بالرحمة نابض بالشباب ..

ذلك أن الممتازين من الرجال لهم دائما هذه الصفة :

إنهم يخلقون وبين ضلوعهم قلوب لا تشيخ !..

أدركته حرفة الأدب

كتب « فولتير » إلى شاب ، يريد الاشتغال بالشعر والأدب رسالة ، يبصره فيها بمتاعب هذه الحرفة ـــ جاء فيها هذا القول :

« استعدادك الأدبي قوى ، ما من سبيل إلى مقاومته أو إلى الشك فيه ؛ فالنحلة يجب أن تفرز شهدًا ، والدودة يجب أن تنسج حريرًا ، ومسيو « ريومير » العالم الطبيعي يجب أن يشرحهما ، وأنت يجب أن تنشد فيهما شعرًا !.. ستكون شاعرًا وأديبًا ، لا لأنك تريد هذا ، بل لأن الطبيعة أرادته !.. ولكنك تخدع نفسك ، إذا حسبت راحة البال ستكون من نصيبك ، فحرفة الأدب ـــ وخصوصًا لمن ابتلى بالعبقرية ـــ ذات طريق أفعم بالأشواك من طريق الثراء .. فإذا شاء الحظ العاثر أن تكون محدود الموهبة ، قليل الحظ من التفوق ـــ وهو ما لا أعتقده فيك ـــ فأمامك ندم سيلازمك طول العمر !.. وإذا كنت ممتازًا فائزًا ، فأمامك خصوم وأعداء سينبتون من حولك !.. إنك ستسير على حافة الهاوية، بين الحقد والاحتقار !..

قد تسألنى : ولماذا أتعرض للحقد ؟.. ألأنى صنعت قصيدة بليغة أو مسرحية رفيعة ، أو كتابًا فى التاريخ نفيسًا ، أو حاولت أن أستنير وأنير الآخرين ؟!.. نعم ، يا صديقى !.. من أجل هذا ، ولهذا ستجلب على نفسك الشقاء إلى آخر الدهر ، ولنفرض أنك أنشأت مؤلفا رائعا ، فإنك لا بد لك من أن تهجر الراحة التى تعرش على بيتك ؛ لتبحث عمن يفحص لك عملك ، ويعينك على نشره بين الناس !.. فإذا كان ذا أفكار تخالف أفكارك ، أو لم يكن صديقًا لأصدقائك ، أو كان بالمصادفة فى جانب منافسيك وحسادك ، فإنك لن تظفر منه بمعونة ، ولن يكون حالك معه خيرًا من حال رجل يبحث عن وظيفة فى دوائر المال . وهو متجرد من وساطة النساء !.. ولنفرض أنك بعد عام قضيته ـــ بين رفض

ومفاوضة — نجحت آخر الأمر فى طبع كتابك ، فما الذى سيكون ؟.. لا مفر لك من أحد أمرين : إما أن تنجح فى كم أفواه تلك الكلاب الحارسة لباب الأدب ، وإما أن تجعلها تنبح فى جانبك وتروج لبضاعتك !.. وفى « فرنسا » ثلاث مجلات أدبية أو أربع ، ومثل هذا العدد فى « هولندا »، وهى تختلف : فى اتجاهاتها ومواقفها وتحزبها .. ولأصحاب هذه الصحف مصلحة فى أن يجعلوها ساخرة .. وللمحررين فيها رغبة فى أن يتملقوا طبيعة البخل والخبث ، التى فطر عليها الجمهور !..

وأنت تريد أن تقرع لك طبول الشهرة ، فلا محيص لك من مداهنة الكتاب ومصانعة الحماة وممالأة رجال الدين وأهل العلم ؛ بل أهل التجارة ، حتى الباعة الجوالين !.. وبرغم كل هذا الحرص منك « فلن يمنع ذلك ضحفيا من الصحفيين أن يتناولك بالنهش والتمزيق !..

ومضى « ڤولتير » مسترسلا فى هذا القول ، حتى ختم رسالته بقوله :

— « ماهدفى من كل هذا النصح الطويل ؟.. أهو صرفك عن طريق الأدب ؟.. كلا فليس لى أن أقف فى وجه القدر ، ولكنى أردت فقط أن أحملك على التريث والصبر !..

* * *

ليس من الضرورى أن يكون الإنسان « ڤولتير »؛ حتى يصادف مثل هذه المشاهد من حين إلى حين !.. فلقد قال لى شاب ذات يوم :

— « الأدب يا سيدى فى دمى !.. وأنا دائمًا تائه النفس ، موزع الفكر ، هائم الخيال ، لا أتحكم فى وقتى ، فهو يتمزق بفترات طويلة من السبحات ، والسرحات ، والتحليق فى الفضاء .. »..

ما من شك فى أن هذا الشاب وأمثاله ضحية من ضحايا الصحف ، التى تصور « الأديب »؛ فى تلك الرسوم الكاريكاتورية : شخصًا مذهولا مخبولا ، لا يعرف الفرق بين رأسه وقدميه ..! فيؤخذ هذا الهذر على أنه حقيقة ، ويقع فى

وهم الشبان أن تلك هى علامة الأديب الذى خلق الأدب فى دمه !.. ومتى شاع هذا الوهم فيهم ، صعب إقناعهم بأن الفكر صحو لا نوم ، وأن المفكر هو أشد الناس يقظة ، لأنه يجب أن يرى للناس ما لم يروا ، وأن يبصرهم بما لم يبصروا ، وأن ينبههم ويهديهم وهو مكتمل العقل متفتق الذهن متسع الأفق والحيلة والمعرفة والتجارب !..

لمثل هذا الشاب أقول : عش أولا إنسانا صحيحًا ، لتستطيع بعدئذ أن تفكر للناس تفكيرًا صحيحًا !..

ثم هنالك سؤال يجب أن يطرح على مثل هذا الشاب :

وما الذى يغريك بحرفة الأدب أو مهنة الفكر ؟..

إذا كان الجواب : بريق الشهرة !.. فليعلم أن الشهرة تصاحب الامتياز فى كل مهنة أخرى !.. على أن الشهرة فى كل مهنة تقترن بها الثروة ، إلا شهرة الأديب أو المفكر ، فالطبيب المشهور ، أو المهندس المشهور ؛ أو حتى المطرب ، والحاوى ، والمهرج ، إذا ذاع لهم صيت ؛ — جاءهم الصيت بالمال الوافر !.. أما المفكر الشهير ، فقلما يستطيع أن يجمع من تفكيره مالا !..

الهدف للأديب أو العالم أو الفنان الحق ، هو أن يعيش ؛ لينتج ثروة فكرية !.. أما الهدف للآخرين فهو : أن ينتجوا ؛ ليعيشوا فى ثروة مادية !..

يجب أن يكون ذلك مفهوما لكل شاب ، قبل أن يقدم على الانقطاع لهذه الحرفة !.. وإن أكثر رجال الأدب — حتى فى بلادنا — لم يظفروا بمال يذكر ، وحادوا عن طرق جمع الثروة ، وقد يسرتها الحرب الأخيرة لكل من سعى إليها حتى من الغوغاء والجهال والحمقى .. وكرسوا جهودهم للواجب المفروض عليهم ، أو الذى فرضوه هم على أنفسهم ؛ طمعا فى ماذا ؟.. لست أدرى !.. ربما كان الجزاء الحقيقى للمفكر هو لذة التفكير ذاتها !.. ولذة الكشف عن تلك الأسرار التى تزخر بها نفسه ونفس الإنسانية !..

* * *

إن حقيقة رجل الفكر تتمثل لى فى هذه الصورة البسيطة : صورة قاعة متسعة ، معلق بحيطانها عديد من الساعات الدقاقة !.. تلك هى الدنيا وقد تعلق بها جموع الناس !.. هكذا تمضى الحياة بناسها فوق حائطها : يسيرون فى مجراهم ، ويدقون دقات الحظ أو المصير فى أوقاتهم ، ثم يقفون وقفتهم الأخيرة ، وقد سكن محركهم ، وانتهى أجلهم !..

ساعة واحدة من بين ساعات الحائط ، تركت مكانها من الجدار ، وكشف عنها الغطاء ، ولم تحفل بالسير كما يسير غيرها ، ولا طربت لرنين الدقات كما طربت البقية ، بل جعلت همها وشاغلها فحص نفسها من الداخل !.. فنثرت التروس وطرحت الأجراس ، وفكت الأجزاء ، وحلت المحركات ، وطفقت — بدافع أو بباعث الرغبة فى المعرفة والنور — تدرس عمل كل ترس ، وجزء ، وآلة ، وعقرب ، — لتقول بعد ذلك لبقية الساعات المعلقة السائرة فى طريقها مغلقة البصر ، محجبة الوجه بغطاء الزجاج :

— هل عرفتم من أنتم ؟.. وما نبضاتكم ؟.. وما دقات قلوبكم ؟.. وكيف تسيرون ؟!..

الأدب والسعادة

يقال أحيانا : إن مهمة الأدب هى إسعاد الناس ، أو معاونتهم على بلوغ السعادة !.. ربما كان هذا صحيحا لو عرفنا أولا : ما هى السعادة ؟..

أريد أن أتصور هذه الفكرة الخيالية : البشر يضجون على هذه الأرض ، ويصيحون طالبين السعادة ، وقد انقسموا فريقين ؛ فريق يراها فى العدالة الاجتماعية والمساواة الإنسانية ، وفريق يراها فى الثراء الفردى والإنتاج الواسع !.. واشتد الخلاف بين الفريقين ، وأيقن كل منهما أن الآخر هو الذى يحول بينه وبين السعادة التى يحلم بها البشر ؛ فأخذا يهيئان معدات الحرب ، غير حافلين بتدمير الأرض فى سبيل الهدف !..

وعلا صخبهما حتى بلغ السماء ، فقالت الملائكة :

ــ سيدمرون الأرض من أجل السعادة !..

فنزل عليهم صوت من عليين :

ــ أعطوهم ما يريدون !..

وعندئذ حدثت فى الأرض معجزة ؛ فقد انقلبت الصحارى جنات واسعة . جارية الأنهار ، دانية القطوف ، شهية الثمار .. وزالت الفوارق بين الناس ؛ فإذا كل فرد غنى ثرى ، ولم يعد هنالك ظالم ولا مظلوم ، ولا سليم ولا سقيم ؛ــ فالجميع فى صحة ورفاهية وسلامة وعافية .. والمستوى الاجتماعى والعقلى والروحى مرتفع للجميع : الكل سادة ، والكل أحرار !.. إنه العالم المثالى الذى كان ينشده الفلاسفة والحكماء !..

ومرت على الناس لحظة ، شملهم فيها العجب والذهول . وجعلوا ينظرون إلى حياتهم الجديدة وكأنهم لا يصدقون !.. كل شىء فى متناول أيديهم : الرزق موفور ، والصحة دائمة ، والحرية قائمة !... ما من مطلب إذن يسعون إليه ..

وما من أمر يشكون منه .. إنها السعادة !.. نعم ، هى السعادة !..

وهكذا غرقوا لحظة فى سعادتهم فرحين مهللين !..

إلى أن استيقظوا بعد حين وهم يقولون :

— وبعد ؟!..

وكشفت لهم هذه الكلمة فجأة عن هول مجهول !.. فصاحوا فى الأرض :

— وبعد ؟!.. وبعد ؟.. وبعد ؟..

وقعدوا يتأملون حالهم قائلين :

— وبعد ، ألا يوجد غد ؟.. وما قيمة الغد إذا لم يحدث فيه شيء ؟..

وما هو الشيء الذى يجب أن يحدث ؟.. كل شيء قد حدث .. الحرية .. الثروة .. الصحة !..

واستولت عليهم هذه الفكرة المروعة فثاروا ..

— لا يوجد غد .. لا يوجد أمل .. لا يوجد كفاح .. لا يوجد عمل !..

ومشوا فى مسالك الأرض يرددون ذلك القول ؛ كأنه نشيد . وقد أحسوا بعض الراحة الخفية وهم يثورون هذه الثورة : لقد وجدوا أخيرًا — منذ أن ابتلوا « بالسعادة » — شيئا يشكون منه !. لقد عرفوا حلاوة الشكوى مرة أخرى !..

نعم ، لقد أدركوا أنهم سجناء !.. سجناء سعادتهم !.. إنهم خلقوا ليكون لهم غد!.. غد يعطيهم شيئا ، هو ثمرة عمل اليوم .. غد هو فى نظرهم رمز التقدم ، ولكنهم لا يتقدمون ؛ لأن كل تقدم قد تم — أى أن كل شيء قد وقف !.. وما دام كل شيء قد وقف ، فهو إذن الموت !.. هم إذن أموات ؛ هادئون فى قبور سعادتهم !..

أترى السماء قد أعطتهم « الموت » بدلا من « السعادة ».. أم أن هذه السعادة الكاملة هى نوع من الموت ؟..

ولكن الموتى لا يشكون ولا يثورون ، وهم قد اكتشفوا فى نفوسهم هذا الخيط الضئيل من خيوط الحياة : الشكوى والثورة !. فهناك إذن أمل !.. لكن

إلى من يتجهون بهذه الشكوى ؟..

وهنا رفعوا جميعًا رءوسهم إلى السماء صائحين :

— أيتها السماء !.. رحمة بنا ولطفًا !.. ارفعي عنا هذه السعادة !..

فسمعوا صوتا يأتي من عليين :

— تريدون الفقر ؟..

فقالوا جميعا :

— نعم ! لنكدح من أجل الغني !..

فقال الصوت :

— تريدون المرض ؟..

فقالوا جميعا :

— نعم !.. لنقاوم من أجل الصحة ..

فقال الصوت :

— تريدون العبودية ؟..

فقالوا جميعًا :

— نعم !.. لنكافح من أجل الحرية !..

فقال الصوت :

— وإذا عدتم إلى الشكوى ؟..

فقالوا أجمعين :

— سنعود إلى الشكوى ؛ لأننا بها نطلب ونأمل ونعمل !.. وبالطلب والأمل والعمل نسير ونتطور !.. وبالسير والتقدم والتطور يكون لنا أمس ويوم وغد !.. وبالأمس واليوم والغد نعيش !.. نعيش !..

فقال الصوت :

— والسعادة ؟..

فقالوا جميعهم :

— هى شىء يأتينا من داخل أنفسنا ، لا من الخارج !..

فقال الصوت ، وهو يخفت ، ويرتفع ، وينقطع :

— لعلكم الآن قد فهمتم حكمة الخالق !..

* * *

نعم !.. هنا مهمة الأدب !.. هى أن يعين الناس على تفهم حكمة الخلق وروح الوجود !.. وإفهام البشر أن السعادة عمل ، وكفاح ، وتقدم ، وتطور !..

الأدب ومصير العالم

عندما نشرت « سليمان الحكيم » عام ١٩٤٣ ، لم يكن قد وقع بعد ذلك الحدث العظيم الذى هز البشرية ، وهو انطلاق تلك القوة الهائلة من الذرة ؛ كما انطلق « الجنى » من القمقم .. ولم تكن الحرب القائمة الدائمة فى أغوار الإنسان قد أسفرت عن وجهها الحقيقى !.. تلك الحرب بين غريزة السيطرة والطموح ، التى تمتطى « القدرة » الجامحة ، وبين الحكمة « العاقلة » التى تريد أن تمسك بأعنة المطية الخطرة !..

اليوم يخيل إلىّ أنى تنبأت بذلك قبل حدوثه ، وقصدت فى القصة تصور ذلك الصراع الدائر الآن على مسرح الدنيا ، الذى كاد ميزانه يميل بنا إلى الهاوية !.. فالجنى المنطلق من القمقم ، هو المتسلط الساعة على النفوس ، والقوة عمياء !.. ما نالها أحد ، حتى اندفع يدوس بها الآخرين !.. والقدرة مغرية .. ما ملكها أحد حتى بادر إلى استخدامها فيما ينبغى وما لا ينبغى !..

إن أزمة الإنسانية — الآن وفى كل زمان — هى أنها تتقدم فى وسائل قدرتها ، أسرع مما تتقدم فى وسائل حكمتها !.. إن المخالب فى الإنسان الأول قد تطورت إلى أسلحة حجرية ، ثم إلى سيف ، ثم إلى مدفع ، ثم إلى قنبلة ذرية !.. ولكن وسائل تحكمه فى غرائزه ، لم تتطور إلى حد يمكنها ، فى كل الأحيان ، من كبح جماح القدرة المطلقة !.. لذلك كان لا بد دائما من وقوع كارثة ، أو حدوث إخفاق ؛ حتى يفطن العالم آخر الأمر إلى ضرورة الحكمة !..

ولكن المشكلة هى أنه قلما يفطن . وإن فطن فقلما يستطيع الوقوف فى الوقت المناسب !.. إن منظر الإنسان فى هذا القرن العشرين ليدعو إلى العجب !.. فالصورة الحقيقية هى صورة مخلوق له ذكاء العالم وضمير القرصان وغريزة الحيوان !..

لسنا نطمع ، طبعا — وقد منحنا هذا الكيان الآدمى بخيره وشره — فى أن نقتل « الجنى » الذى فينا ، بذكائه وعبقريته وطموحه وسلطته ، ولكننا نأمل أبدا فى أن نقيم من نفوسنا الخيرة سدا يقف فى وجه إغرائه كلما طغى ؛ وأراد أن يجمح بنا إلى الهلاك !..

لكن ، ما وسيلتنا اليوم فى بناء هذا السد ؟.. ومن الذى يتولى إقامته وتشييده ؟.. أهم رجال السياسة ؟.. أم رجال الفكر ؟.. أم رجال الدين ؟..

ليس رجال السياسة بالطبع !.. فهم ، مهما تخلص نياتهم ؛ عاجزون عن التحرر من مطامع دولهم ، وهم المتهمون ، وهم المخفقون !.. أما رجال الدين فخير من يضطلع بهذه المهمة — لولا تلك القيود التى تمنعهم من الخوض فى كل ميدان !..

بقى رجال الفكر .. ولهم من سعة الأفق ، وسمو النزعة الإنسانية ، ومن التجرد عن الهوى ، ومن الحرية فى العمل ؛— ما يمكنهم من أداء هذا الواجب العظيم ..

فما الذى يقعدهم ؟..

لقد قام منذ أعوام قليلة نحو خمسمائة من رجال الفكر والأدب ، على رأسهم « أندريه جيد » و « فرنسوا مورياك » يطلبون إلى هيئة الأمم المتحدة العمل على إلغاء الحروب ، باعتبارها وسيلة من وسائل حل المشكلات الدولية !..

هذا عمل طيب . وصيحة قيمة من رجال الفكر والأدب هناك !.. ولكن مع الأسف !.. من الذى سيصغى إليها ؟.. ومن الذى سيستجيب ؟..

أهم ممثلو تلك الأمم التى اجتمعت كما يجتمع وحوش الغاب عند تقسيم الفريسة ، لا يسمع منها إلا زمجرة من هنا ، وتحفز من هناك ؟!..

إن إطلاق الصيحات والاحتجاجات ، من رجال الفكر ما عاد يجدى ... لم يبق للإنسانية من طريقة سوى إيفاد رجال الفكر أنفسهم بدلا من رجال السياسة ، إلى حيث يبتون فى مصير العالم كله !.. يوفدون فى هيئة دولية ، لها

السلطة المطلقة فى توجيه هذا العالم .. لا يمثلون فى هذه الهيئة مصالح دولهم وحدها ، بل يمثلون الإنسانية ، باعتبارها وحدة لا تتجزأ !..

ولكن من الذى سيوفدهم بهذه الصفة ؟!..

هنا المسألة !..

على أن هذه الصعوبة الكبرى لا يجب أن تدعونا إلى اليأس ، فهذا حلم لا يمكن أن يتحقق فى مستقبل قريب .. حسب رجال الفكر أن يؤدوا واجبهم على قدر ما يستطيعون !.. وعلى الأيام أن تنضج ما غرسوه من أفكار !.. حبذا لو قام رجال الفكر والأدب ، فى مصر والشرق العربى أيضًا ، يرسلون إلى هيئة الأمم مثل هذه الصيحة ، — فإن الشرق أولى أن تصدر من مفكريه مثل هذه المشاعر الإنسانية !..

إنى لواثق أن تضامن المفكرين المؤمنين فى أنحاء العالم بهذه الرسالة العليا — رسالة الحكمة التى تكبح القوة — كفيل على مر الزمن أن يحدث فى نفوس البشر فرقعة ، ربما استطاعت — فى يوم من الأيام — أن تسكت صوت القنبلة الذرية ، فإنى أومن بأن للأدب والأدباء مهمة كبرى : هى صيانة المصير الإنسانى من الدمار ، كما أن للأدب والأدباء رسالة عظمى : هى السير بالعالم إلى مصير أكمل !..

الباب الحادى عشر

الأدب وأجياله

الأجيال تتماسك فى الأمم ؛ كما تتماسك حلقات السلسلة الفقرية فى الأجسام ..

حلقات الأجيال

الدنيا حلقات !.. كل جيل يجب أن يمد يده إلى الجيل الذى يليه !.. إذا تم ذلك فى أمة فقد صح كيانها واستقام ، شأن الجسم السليم بسلسلته الفقرية المتماسكة ، وإذا لم يتم ذلك فنحن أمام كائن سقيم ، انفصلت حلقات وجوده وانفصم عمود ظهره ، و لم يعد يصلح للبقاء !.. وإذا كان من واجب القادة أن يرسلوا البصر إلى خمس سنوات أو عشر إلى الأمام ، يعدون خلالها برامج الإنتاج ، فإن من واجبهم أيضًا أن يعدوا الرجال الذين يخلفونهم فى مراكز القيادة !.. بهذا لن تكف عجلة التقدم عن المسير !..

والإنتاج الفكرى ككل إنتاج – يجب ألا يشذ عن هذا المبدأ ، وعلى المفكرين أن يرسلوا ، هم قبل غيرهم ، ذلك النظر البعيد إلى حياة الفكر فى خلال ما يستقبل من أعوام ، وأن يعدوا الأمر ، ليحتل غيرهم ما احتلوا من مقاعد ، وأن يمهدوا الطريق أمام المواهب الجديدة ، لتظهر وتزهر وتؤتى ثمراتها !.. فإن السؤال الذى يجول دائما فى الخواطر هو : مالذى سيحدث فى العشرة أو العشرين عاما المقبلة ؟.. هل الأمل معقود على طائفة من الأدباء ، يمكن أن تبرز بنوبتها فى الصف الأول ، لتمضى فى رفع مشعل الأدب والفكر فى هذا البلد ؟!.. أو أنه كما يقال : « ليس فى الإمكان أبدع مما كان ؟!.. »

رأيى أن إمكان الإبداع ممتد فى كل أوان !.. فالإبداع شىء حى متحرك فى الزمان والمكان ، لا يتعلق بالماضى وحده ، ولكنه كالشجرة يمتد ويتطور فى مختلف الفصول ، يبدل ويغير فى أوراقه ومظاهر إيناعه وإثماره ، ماضيه متصل بحاضره ، وحاضره مرتبط بحبل مستقبله !.. إن المجهودات تبنى فوق المجهودات والمواهب تنبع من المواهب ، والإبداع يؤدى إلى إبداع .. والثمرة تخرج منها الثمرة ، وكل هذا فى فلك يدور ، ولا ينفك عن الدوران إلى آخر الأزمان !..

ونحن — إذا جلنا اليوم فى حديقة الأدب العربى الحديث — وجدنا أشجارا مملوءة بعصير الحياة ، يانعة بأزهار الفن ، لا ينقصها إلا أن ننظر إليها بعين الرضا ، وأن نتخيل ما ستكون عليه غدا من سموق وارتفاع ؛ فلا شيء يفسد الحديقة ويقفرها ويفقرها ، مثل أن نرى دائما أشجارها شجيرات ، لن تكون يوما ضخمة الجذوع وارفة الظلال !.. يجب أن نروض عيوننا على أن ترى الأشياء والأشخاص فى غدها — لا فى حاضرها وحده ، وأن نعرف كيف نقرأ المستقبل من خلال سطور الحاضر !.. إذا استطعنا ذلك ، فما من شك أننا واجدون فى مختلف فروع الأدب أقلاما ، سيكون لها من الصدارة والقيادة فى الأعوام العشرة أو العشرين المقبلة ، مثلما كان لأصحاب الصدارة والبروز فى العشرة أو العشرين عاما الماضية !..

فحديقة الشباب تزخر بأزهارها طيبة الأريج ، لا سبيل هنا إلى تعداد صنوفها وألوانها !.. وكل ما أردناه هنا هو أن ندعم الأمل فى غدنا الأدبى ، وأن نتساءل عن واجبنا إزاء هذه النخبة من أعلام الغد — أولئك الذين يمسكون بطرف الخيط من وجودنا ؛ ليصبحوا غدًا امتدادنا ، وأن نحاسب أنفسنا ، نحن الذين تقدمناهم فى حلقة الزمن ، عما صنعناه من أجلهم ، وعما يجب أن نصنع بالوارثين لنتائج جهودنا !.. قبل كل شيء يجب أن نعلم : أهم حقا فى حاجة إلينا ؟.. وأى نوع من المعونة هم مفتقرون إليه ؟.. أهو مجرد اهتمام بأعمالهم ؟.. ما من شك فى أن الاهتمام خير نافخ فى همة الفنان، فإن الفنان لا يصبر طويلا على الإنتاج لنفسه!. إنه يعمل كى يسمع لعمله صدى .. إنه زهرة تعيش بأشعة من نظرات الناس !.. أخيْرا كانت تحمل تلك النظرات أم شرا ... إن الفنان لا يهدمه الذم ولا القدح ؛ بل يدعمان وجوده . إنما الذى يهدمه حقا « الإهمال »!.. كفنه منسوج من العنكبوت ، ومدفنه تحت غبار النسيان ، ومن خيرة الفنانين من توهم أنه مهمل فدفن فنه حيا ، وانطلق يجد فى عمل آخر من أعمال الدنيا ، لا صلة له بأدب ولا بفن ، فخسره الفن والأدب !..

* * *

لا بد إذن من التنويه بأعمال الفنانين والأدباء ، وإشعارهم من حين إلى حين ، أن رسالاتهم إلى قلوبنا وعقولنا قد وصلت ، وأننا لجهودهم شاكرون ، ولمزاياهم عارفون !.. ولكن ما هي الطريقة ؟.. ما من شك فى أن علينا نحن أن نصنع شيئًا من أجل الذين جاءوا بعدنا !.. لطالما اتهمنا بالأثرة والانصراف عن مساعدة الآخرين وربما كان فى هذا الاتهام بعض الصواب ؛ فقد شغلنا عن ذلك زمنا .. لا عن أثرة وحب ذات ، بل لتوهم طبيعى أننا نستطيع أن نحمل فى الأدب كل الأعباء !..

ولعل هذا من دوافع العمل المشروعة ؛ أن نتصور أنه لن يتم شيء إلا بأيدينا نحن !.. فلقد جاهدنا كثيرا ، وأنفقنا أغلب العمر فى التكوين والإعداد واستكمال الأداة الفنية ؛ كما لو كنا نحن وحدنا المنوط بهم فتح الحصون وبناء القصور !..

ولكن الحياة علمتنا أننا لن نستطيع أن نفعل أكثر من شق طرق ووضع أسس ، وعلى غيرنا أن يبنى !.. شعورنا اليوم شعور من يولد له الولد على كبر !.. إنه يفيق فجأة على نظرة أخرى إلى الأشياء : إنه لن يرى نفسه مركز دنياه ! المسئول وحده عن الرسالة .. ولكنه يرى دنياه حلقات يكمل بعضها البعض ، ويرى أن صغيره لم يولد عبثا ، بل خلق ليكمل شيئًا لن يستطيع هو إتمامه ، وأن عليه منذ اليوم واجبا آخر غير مجرد الإنتاج — عليه أن يعين خلفه على الوقوف على قدميه ؛ ليحمل « بدوره » رسالته على منكبيه !..

غير أن المشكلة التي تحيرنا دائمًا هى : وسيلة المعونة !.. أهى فى تجنيب الجيل الجديد أخطاءنا ؟.. أم هى فى إشعاره بأخطائه ؟.. أهى فى إعداده قبل الظهور ؟.. أم فى إظهاره قبل الإعداد ؟.. ثم أولئك الذين قطعوا فى فنهم شوطا ، وظهروا بعض الظهور ، وبدت مواهبهم متألقة كقطع النور ، أعلينا إزاءهم واجب ؟.. ما هو ؟.. وما السبيل إلى الوفاء به ؟.. إنا جميعا لعلى استعداد أن نؤدى واجبنا ، لن نحجم عنه أبدًا إذا عرفنا الوسائل وملكنا الأسباب !..

تبعات الأجيال

كل جيل مسئول عن أفكاره التى قد تتسرب ــ بعلمه أو بغير علمه ــ إلى نفوس الأجيال الجديدة .. لذلك يحسن تفسير تلك الأفكار من حين إلى حين ، حتى لا يساء فهمها ..

من ذلك أنى رأيت بعض الشبان ينزحون اليوم إلى بلاد الغرب فى طلب العلم ، فيصطدمون بحياة أخرى وحضارة أجنبية .. فإذا هم أحيانا ، يفكرون ويشعرون شعور « محسن » وتفكيره فى كتاب « عصفور من الشرق » يوم ذهب بعد الحرب العالمية الأولى إلى الغرب .. فهم يهيمون مثله باحثين هناك عن « الروح ».. وتسيطر على تفكيرهم مثله فكرة واحدة : هى روحانية الشرق وعظمتها ومواضعها ، ومنابعها !.. ثم يسيرون خلف « محسن » الآخر فى كتاب « عودة الروح » ينقبون كما نقب عن منبع ميراثهم الثقافى والروحى ، فى « رواسب » الآلاف من السنين الكامنة فى ضمير مصر ، ريفها وأهلها الصادقين !.. ويعتزون مثله بأصالة الشعب المصرى ، ويرددون ألفاظه المباهية بعراقة حضارته !.. إلخ ..

من الخير بالطبع أن ندع هذا الشباب يعيش فى مثل هذه المشاعر والأفكار !.. لكن من الخير أيضًا أن نقول له : قدس ماضيك دون أن تذهب فى ذلك التقديس إلى الحد الذى يجعلك توصد روحك ، دون تلقى كل جديد ينفعك ، ولو كان ذرة من أشعة !.. اغترف بشجاعة من كل منبع ، وخذ من كل ميراث ، لتثرى نفسك ، ويتسع أفقك !..

هذا قول من واجبى أن أكرره دائمًا !..

فالخطر على غدنا كل الخطر من ذلك الفهم المحدود لكلمة « طابعنا »، ومن تلك الفكرة التى تجعل الشباب يتخذ من روحانيته الشرقية ، ورواسب حضارته

المصرية سجونا وحصونا تعزله عن تفكير العالم ، وتمنعه من المساهمة فى النشاط الفكرى الإنسانى العام بقوة وشجاعة ، دون أن يرى بهلع فى الثقافة الغربية أو الحضارة الأجنبية غيلانا تستطيع أن تخطف بسهولة روحه من بين جنبيه !.. إن روحنا أقوى وأعمق من أن تغطى عليه حضارة من الحضارات .. فلماذا كل هذا الخوف من مواجهة الحضارات الأخرى ؟!..

كل من أراد أن يكتب عندنا قصة حرص على أن يكتب تحتها بخط واضح : « قصة مصرية »!.. وعنى بأن يجرى حوادثها فى الأحياء الوطنية ويصبغها صبغا عنيفا بالألوان المحلية !.. كل ذلك ليقنع نفسه بأنه يصنع فنا قوميا ذا روح مصرية أصيلة ..

كل هذا نوع من مركب النقص أو من الخوف لا مبرر له .. إن الروح المصرى الأصيل يستطيع أن يطبع أى موضوع يمسه ، ولو كان فى محيط أجنبى ، كما استطاع الروح الإسلامى أن يطبع فن العمارة ، الذى استنبطه من الوثنيين والبيزنطيين !.. وكما استطاع « شكسبير » أن يطبع بشخصيته الأساطير التى نقلها عن الإيطاليين ، والدانمركيين ، والشرقيين !..

بل إن جانبًا كبيرًا من الآداب الكبرى يتعمد أن يتخذ موضوعه بلادًا وأشخاصًا أجنبية عنه!.وهو ممتلىء الثقة بأن الموضوع الأجنبى لا يؤثر مقدار شعرة فى لون الطابع الشخصى لهذا الأدب !.. هذا هو الأدب القوى الواثق بنفسه ، يطبع بخاتمه ما شاء من موضوعات ، ويدع علمه يرفرف على ما شاء من بلاد !..

فكرة أخرى تحتاج إلى تفسير : نشرت منذ أعوام فى صفحة ١٠٥ من كتاب « تحت المصباح الأخضر » هذه السطور :

« ... إن سفور المرأة فى مصر قد سبق سفور الأديب !.. من أجل هذا نرى أن جانبا كبيرًا من أدبنا الحديث ، ما زال أدبا « حبيسا » تفوح منه رائحة الحجرة المغلقة !.. أدب صناعة ، وأدب « علب محفوظة » من التعبيرات المستعارة ، والأساليب والدراسات المستخرجة من خزائن الأقدمين !..

أما أدب الهواء الطلق ، أدب التعبير عما فى أعماق النفس فى حرية وأمانة وإخلاص ، أدب الحياة النابضة بتفاصيل المشاعر الآدمية .. هذا الأدب الخارج من القلب ، ليخاطب كل قلب على وجه البسيطة ، هذا الأدب العالمى الذى يؤثر فى نفس كل أمة ، وكل جنس ، وكل آدمى ، لأنه نبع صافيا خالصا حارا من قلب آدمى ، — هذا الأدب حظنا منه قليل ، لأن حظنا من الصراحة والصدق قليل !..» إلخ ..

***

هذا كلام جرت به الأقلام اليوم كثيرا .. كما رددت الألسن عبارات « الفن والحياة » و « الفن والشعور » و « الفن والصدق » إلخ .. مما يدل على أن معنى الأدب أخذ يتحول إلى الاتجاه المثمر ، فى مجتمعنا المعاصر .. لكن هل معنى ذلك أن نكف عن النظر فى كتب الأقدمين ؟..

أرى من واجبى أيضًا أن أوضح .. لقد أحيت وزارة المعارف ذكرى أبى العلاء المعرى ، وأخرجت كتاب « سقط الزند » فعكفت على مطالعته من جديد !.. وخرجت من ذلك أقول : فن هذا العبقرى « رهين المحبسين ».. أهو فن هواء طلق وقلب شعور وحياة ؟!.. أم هو فن رجل ضرير حبيس حجرة مغلقة ، يمتعنا حقا !.. ولكنه إمتاع لا يثير عواطفنا ، بقدر ما يثير تفكيرنا ، ولا يهز قلوبنا بقدر ما يهز رءوسنا ، ولا نجد فيه اللذة سهلة ميسرة ، ولكننا نبلغها بذهننا بعد كد وجد وغوص ؟!.. »

إذن يجب أن أوضح للشباب كلامى المطلق الذى نشرته منذ أعوام ، وأن أقول لهم : إن الشعور الحار وحده ، بما يثيره من انفعال ، ليس هو كل الفن ، ولا هو خير الفن فى بعض الأحيان ؛ لأن المتعة التى تأتى عن غير غوص ، هى فى أكثر الأحوال رخيصة !.. وآلام « فرتر » العاطفية أقل رتبة فى نظر « جوته » نفسه وتاريخ الأدب من « فاوست » الذهنية !..

غموض قولى السابق ، أتى من أنى لم أحدد معنى « القلب » !.. القلب فى

الفن هو الصدق ـ لا الصدق بمعناه الضيق ، المقصور على الشعور العاطفى أو الوجدانى ـ بل أيضًا صدق الشعور بحقيقة فكرة من الأفكار !..

على هذا النحو يجب كذلك تحديد معنى « الحياة » فى الفن !.. ما من شك أن الفن هو تعبير عن الحياة .. وليس من السهل تصور فن منفصل عن الحياة ، إلا أن نتمثل فن الزخرفة الإسلامى الذى لا يصور زهورًا ، ولا طيورًا ، ولا حيوانًا !.. ويقوم على تخطيط هندسى !.. فن عريق بديع لا شك فيه ، ولكن نسبته إلى الحياة التى نعرفها تحتاج إلى مشقة فى التخريج !.. هذا التجريد الذهنى فى الزخرف الإسلامى ، يماثله التجريد الذهنى فى الفن المصرى القديم ، بخطوطه الرئيسية العارية من اللحم والدم !.. لقد كان همه أن يحيى الفكرة فى الحجر ـ لا أن يقلب الحجر حياة كما فعل الإغريق ..

مهما يكن من أمر تفضيلنا هذا النوع أو ذاك ، فإن اختلاف العقليات والاتجاهات والأنواع فى الأدب والفن ، يحملنا على أن نوسع معنى « الحياة » حتى تشمل كل هذه الألوان من الآداب والفنون ..

لا بد أن تكون « الحياة » فى الفن ليست بعض ما يقع فى العالم الخارجى ويضطرب فيه الإنسان بحسه ومشاعره فقط ـ بل أيضًا كل ما يقع فى العالم الداخلى ويستخرجه الإنسان بفكره وذهنه وتأملاته !.. إن الحياة فى الأدب والفن هى الحياة كلها ـ الحياة الكاملة ، بمعناها الواسع العميق ـ تلك «الحياة» التى تسكن فى كل جزء من أجزاء الإنسان الحى،فى قلبه وفى غريزته،وفى حسه ، وفى رأسه !..

* * *

ذلك بعض من تلك الأفكار التى تركناها ، تسعى من جحور الكتب إلى وعى الشباب دون انتباه!. حبذا لو عدنا من حين إلى حين،بأيدينا أو بأيدى غيرنا من النقاد والباحثين ، نراجع ما نشرنا ، ونسترجع ما أصدرنا ، لنعيده مفسرًا مجددًا ، كما تفعل المصارف المالية عندما تسترجع من أيدى الناس أوراق العملة القديمة لتردها فى حلة جديدة !..

انفصال الأجيال

العلاقة بين الأجيال ظاهرة طبيعية ، تسترعى دائمًا النظر ، وتستوجب الدراسة والبحث ، ولكنها فى « مصر » اتخذت من الصور ما يثير العجب ويحير الفكر ؛ فلقد شاهدت بنفسى صورتين متناقضتين كل التناقض — أما الصورة الأولى فهى التى عاش فى إطارها جيلنا والأجيال التى سبقته ، ولا حاجة بى أن أصفها بالقول !... يكفى أن أورد واقعة واحدة ، فيها كل الدلالة والمغزى :

سمعت المرحوم والدى ؛ يتحدث عن أبيه باحترام عميق فى كل مقام ، وكان أبوه ممن تعلموا فى الأزهر ، ثم أقاموا بعدئذ فى الريف ، يزرعون ما يملكون من أطيان !... وكان والدى قد أوغل فى الحلقة الرابعة ورقى إلى منصب القضاء ... وطفق أبوه فى ذلك الحين يتصرف فى أطيانه بالرهن والبيع ، ثم يعود إلى الشراء والاقتناء ثم يقترض ، ويتعهد ويتعاقد !... فقال بعض أصدقائه :

— هذه تصرفات قانونية ، وابنك قاض من خيرة القضاة ، ألم تستشره ؟...

فما كان من الأب إلا أن صاح :

— ابنى ؟!... أستشير العيال ؟!...

ولم يكن والدى يجد غضاضة فى ذلك القول ... وكان يتلقاه بابتسامة التسامح ، وشعور التوقير ، ولو أنه فى دخيلة نفسه ما أراه اعتقد أن أباه كان على صواب !... إنى ما سمعت منه قط نقدًا لأبيه ، فقد كان ينحنى على يده يقبلها أينما التقى به !... وكان يلتمس له المعاذير . غير أنى ، على قدر ما تسعفنى ذاكرتى ، قد خيل إلى وقتئذ أن والدى كانت له نظرة أخرى فى الصلة التى يجب أن تقوم بين الآباء والأبناء ، ولكن حدث بعدئذ ما جعلنى أضرب كفا بكف من الدهشة والعجب ؛ فقد صرت — أنا بدورى — فى الحلقة الرابعة وانخرطت فى سلك القضاء ، وشاهدت المرحوم والدى يتصرف بالرهن تلو الرهن فى بيت كنا نعتز

به ، ويقابل أمامى كل من هب ودب من السماسرة والمرابين ، يسر إليهم الحديث ويهمس لهم فى الآذان ، ولا يخطر بباله قط أن يكشف لى عن جلية الأمر ، وبواعث التصرف ، أو يسألنى رأيى المتواضع ، فيما هو مقبل عليه ، وأنا الذى أحقق كل يوم فى تصرفات الناس ، وأفحص وأزن ما لهم وما عليهم من حجج وبينات ، وأتحمل فى أرواحهم وحرياتهم ، وأموالهم أخطر التبعات !...

ومع ذلك ما قامت فى نفسى ثورة ، وما ارتفع لى فى حضرته صوت ، وما كنت ألقاه وأنا فى ذروة العمر إلا بتقبيل يده والإصغاء إلى نصائحه .

* * *

تلك صورة طواها الزمن — فيما أعتقد — ونشر صورة أخرى لجيل جديد ، يرى الأمور على وضع آخر ؛ فهو يصر على أن يكون له رأى فى محيط البيت والمدرسة والمجتمع !... وقد جاء هذا الجيل فى ظروف عالمية تبرر الانقلابات ، وفى ظروف قومية تنادى بالحرية ، واجدًا من الجيل السابق الذى يحتضنه مؤازرًا لنزعته ومشجعا ، لأن هذا الجيل السابق لم يكن إلا جيل الثورة المصرية !.. على أن أبناءنا وقد ظفروا بحق إبداء الرأى فى كل شىء ، لم يقفوا عند هذا الحد ، فما من شاب يقبل منك الآن نصحا أو يلقاك اليوم ، فتأنس منه توقيرًا لسنك ، أو احتراما لجيلك !... إنه يخاطبك مخاطبة القرين للقرين ، مهما يكن الفارق بينكما فى المكانة والسن ، وما من شاب يقنع اليوم بأن يكون له فى شئون أسرته رأى ، وفى مذاهب السياسة رأى ، وفى برامج دراسته رأى ، وفى أساتذته رأى !... إن مجرد إبداء الرأى أصبح لا يكفيه !...

جموح الشباب ، وبلبلة الأفكار ، وزلزلة القيم ، وهزات الأحداث العالمية ، وسرعة التطورات الاجتماعية ؛ — كل هذا جعل الجيل الحديث يشب على عدم احترام القديم الثابت المستقر من النظم والأفكار والقيم والأشخاص !... وبانهيار هذا الجدار انطلق الشباب يهيم فى كل واد ؛ بلا ضابط ولا رابط !... وتولدت عنده بذلك عقيدة راسخة : هى أنه ليس فى البلاد رأى غير رأيه تستقيم به

الأمور ... وأن من حقه أن يفرض هذا الرأى فرضا على آبائه وأساتذته وقادته ، لو استطاع إلى ذلك سبيلا !...

* * *

فى الصورتين إذن انفصال بين الأجيال !... فى الماضى كان آباؤنا يفرضون علينا إرادتهم، وفى الحاضر .. نرى أبناءنا يريدون فرض إرادتهم علينا !.. أتزانا نحن الجيل الذى بلا إرادة ... أعطيناها لآبنائنا تشجيعا !؟...

تصادم الأجيال

كلما حدث فى مجتمع انفصال بين الأجيال ، رأى كل جيل أن هذا المجتمع غريب عليه ، وأنه برىء منه ، لا يدرى كيف جاء ، ولا كيف تكوّن ، ولا يعرف من المسئول عنه ؟..

جاءتنى رسالتان تصوران هذه النظرة إلى المجتمع !.. الأولى ؛ تمثل رأى الجيل السابق . هذا نصها :

« إن جيلنا كان له من الملاهى « كازينودى بارى »، وفتيات « أوركسترا كافيه إچبسيان » للطبقة المتفرنجة . وقهوتان للرقص والغناء فى « وجه البركة ».. أما اليوم فقد أصبح من مستلزمات الطبقة المتوسطة وجود « البار » الأمريكانى فى المساكن الخاصة .. وأصبح من حق جارى أن يثير أعصابى بميكرفون..وأصبح المخنثون يمشون متشابكين خمسة خمسة على الأفاريز!..أصبحت الأوضاع مقلوبة !.. القانون يهاب الإجرام ، والأب يخشى ثورة الابن ، الذى رضع من ثدى الحرية الفاجرة !.. أما فى غير مصر فإن القانون الرقيب على المجتمع ، قد أجبر يوما ممثلة مصرية كبيرة ، كانت تضع ساقا على ساق فى الترام فى «جنوا» أن تنزل ساقها، فثارت واعتبرت هذا الإجبار اعتداء على الحرية، ولكنها اضطرت آخر الأمر أن تلتزم حدود المجتمع الذى تعيش فيه ، فأنزلت ساقها على مضض ..»

أما الجيل الجديد فتمثله رسالة هذا نصها :

إننى ـــ كأحد أبناء الجيل الجديد ـــ أقول : إنه جيل يريد أن يصل إلى إدراك معنى الحياة ، وإلى بلوغ أقصى ما يمكن من المعرفة ، والتقدم ، والرقى !.. على الرغم مما يرى فى تصرفاته من تهور واندفاع ، لا يقفهما عقل ، ولا يحد منهما إدراك ، حتى صار الناس يوجسون خيفة من أعماله ، ويرون فيها خطرًا عليه

وعلى المجتمع !.. وما من شك أن للجيل الجديد أخطاء ، ولكن على من تقع التبعة ؟.. أليس المسئول هو الجيل الذى سبقنا ؟.. إنه لم يعرف كيف يقود الجيل الجديد إلى الشاطئ الأمين !.. لقد أخافه وأرهبه هذا التطور فى التفكير الإنسانى ، فترك له الحبل على الغارب !.. أهو قد حار بين أن يقدم معه ، أو يحجم عن مجاراته !.. ومن هنا ظهر تردده وضعفه — وتخاذله !.. أو أنه قد تجاهل ، أو تغافل عما تطورت إليه الحياة العامة ؛ فأراد أن يعود به القهقرى — وكانت النتيجة فى كل الأحوال أن عصى ؛ لأن الحياة التى نعيشها فى هذا العالم الحاضر لا تسمح له أن يمشى إلى وراء ، وإلا داسته العجلات السائرة فى موكب الحضارة !.. إنما الخلاف هو فى اختلاف طبيعة الجيلين : أحدهما يريد التقدم والآخر يريد القفز !.. وليس هذا بجديد !.. هكذا كان الآباء والأبناء فى كل زمان ومكان ، ولكن الجديد فى عصرنا الحاضر — عصر الثورات والانقلابات — هو أن الخلاف فى الطبيعة والنظرة قد انقلب هو الآخر إلى ثورة ؛ ثورة اتخذت لها شتى المظاهر : فى البيت ، والمدرسة ، والمعمل ، والمجتمع !.. ولم يعد من السهل أن نفرق فى دخانها بين حدود النظام والحرية ، والحق والواجب !.. وبهذا اختلطت الأقدار ، وضاعت معالم القيم ، وفسدت العلاقة بين الأجيال ، وانفصلت حلقاتها !.. وانعدم التعاون بينها ، وانتهى الأمر إلى ما نرى ؛ من وقوف كل جيل موقف المرتاب من الجيل الآخر !..

كل الأزمة إذن هي فى هذا الانفصال بين الأجيال !..

خرج البنون على آبائهم ، وخرج التابعون على قادتهم !..

فى النظرتين إذن إنكار لحالة المجتمع ، واعتراف بأنه قائم على فساد !.. وليس المهم إلقاء التبعات ، وقذف الاتهامات ، إنما المهم هو البحث فى العلة وعلاج الداء !.. وما من شك فى أن الأفكار تتطور اليوم بسرعة ظاهرة ، والحياة تتجدد ، والمجتمع يتابع كل ذلك على الرغم منه ؛ كورقة فوق تيار جار !..

وما أظن كثيرين من الجيل السابق يخطر لهم أن يقفوا عجلة الزمان ، أو يرجعوا

عقارب الساعات إلى الوراء ؛ فهم متهمون أحيانًا بأنهم قد جرفوا فى التيار جرفا ، دون أن ينظموا له الجسور والسدود ؛ فالتجديد الشامل فى نواحى المجتمع ، لم يتم شىء منه فى واقع الأمر إلا : بإيحاء ، أو رضى ، أو تساهل من الجيل السابق !.. ولكن الجيل الجديد يعيش فى عصر التغيرات الخاطفة ، والتطورات السريعة ، والاختراعات المفاجئة ، فأصبح لذلك أقل من الجيل الذى سبقه صبرا وجلدا ، وأقوى منه رغبة فى كل تغيير ، وأعنف منه ثورة على كل ثابت مستقر !..

ليس الخلاف بين الجيلين فى الحقيقة على مبدأ التطور والتجديد ؛ فالكل مسلم بضرورة الانحناء لدواعى التجديد والتطور . ولكن الخلاف الحقيقى فى ذلك التصادم — فى ضياع الاحترام والثقة — فى السير ، لا بروح التعاون ، بلى بروح التحدى !..

تجاهل الأجيال

إن انقطاع الصلة بين الأجيال يحدث أيضًا من ذلك الجهل بطبيعة كل جيل ، أو التجاهل لما تتطلبه تلك الطبيعة .. وها هي ذي رسالة ، تصور هذا الجهل ، أو التجاهل بين جيلين :

« ... يمنعني والدى من قراءة المجلات والجرائد ، على اختلاف أنواعها ، ولا يقبل مناقشة فى فائدة القراءة والاطلاع . وكلما أبصر فى يدى مجلة مزقها .. وهو ينهانى عن مصادقة أى شاب ، حتى إن كان مثقفا ، وهو يرتاب فى حركاتى وسكناتى ، ويخاف علىّ !.. وهو يريد أن أعيش كعابد فى صومعة ، لا يرانى الناس ولا أراهم !.. إنى مشغوف بالقراءة ، فماذا أصنع لأرضى هوايتى ، وأرضى فى عين الوقت والدى الذى أكن له كل احترام ؟. »

هذا والد يريد أن يربى ولده ، كما يربى ذلك النوع من الزهر فى بيوت الزجاج !. وأنا لست من علماء التربية للبشر ، أو للزهر ، حتى أبت فى هذا الأمر . ولكنى أعتقد أن كل كائن إنسانى أو نباتى لا يتعرض للشمس والهواء والريح والغبار ـــ ينشأ رقيق التكوين ، ضعيف البنيان ، يحتاج إلى دثار من العناية ، ليحيا ، وإلى جدران من الحيطة ليعيش ، ويكفى أن تحدث المصادفة فى تلك الدروع ثغرة ذات يوم ، لينهار ذلك الكيان عند اللمسة الأولى !.. كلا أيها الوالد الخائف !.. ليس هذا هو السبيل ، حطم بيت الزجاج وأخرج زهرتك وعرضها برفق للشمس والهواء !.. دع ولدك يقرأ ، ودعه يصادق ، ودعه يعيش ربيعه !..

لا تخش لون القراءة الذى يشغف به ابنك فى هذه السن المبكرة إن الطبيعة أعقل منك أيها الوالد ، إنها هى التى تغرس الميول فى النفوس ، وتلونها على حسب الأسنان والأعمار ؛ كما تلون أوراق الأشجار !..

ففى الشباب يورق الخيال ، والشعور ، والعاطفة !.. وفى الكهولة يورق العقل ، والحكمة ، والتجاريب !.. ومن الخطأ أن يتحدى والد الطبيعة ، وأن يتغلب بما يغرسه على غرسها وأن يتطلب فى ربيع العمر شجرًا قائم الجذع صلب العود تحت عصف الريح!..ولكنها فيما يظهر قصة كل والد: إنه يحكم على ولده بمزاجه، ويقيس درجة حرارته « بترمومتره »؛ وكأنه لا يستطيع له فهما — كما لا يستطيع الشتاء أن يفهم الربيع ؛ فهو يسخر من زهره الأبيض الطاهر ، فوق الغصون اللينة المخضرة ؛ ويهزأ من طيره الصادح ومن ليله المقمر ، ومن نسيمه المعطر ، ومن كل تلك الرقة التى يملأ بها الدنيا — ذلك الفصل الرقيق !.. إنها فى نظر الشتاء الصارم ضعف ؛ لأنه فصل العنف ، تصطرع فيه العناصر ، وتتعارك القوى !.. إنه الحياة فى كفاحها الأكبر .

أنا أيضًا وقفت هذا الموقف من والدى — رحمه الله — وأنا فى الثانية عشرة من عمرى !.. كنت أرهب أيام الجمع ؛ لأنها الأيام التى يفرغ فيها لى ، يناقشنى فيما أقرأ ، وكان يتخير لى هو نوع الكتب ، التى يجب فى عرفه أن أقرأها !.. وكان أخفها وطأة كتاب يحوى « المعلقات السبع »، ضربت بسببه أوجع الضرب ، فقد كان والدى لا يكتفى منى بالحفظ عن ظهر قلب ؛ بل يريد منى أن أشرح له أبيات ذلك الشعر الجاهلى فى تلك السن !. وكنت إذا عجزت عجب لجهلى وحمقى ، ثم استشاط غيظًا منى — مدفوعا ولا ريب بالخشية على مستقبلى الضائع — وإذا يده تتناول وجهى بالصفع الثقيل ، فلا تتركنى حتى يسيل الدم من أنفى ، وهو يصيح بى :

— يا جاهل !.. يا غبى !.. أيوجد أسهل من هذا البيت لزهير بن أبى سلمى : هذا السهل الممتنع يا أحمق !..

« ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم »

ثم يهز رأسه إعجابا بالحكمة التى ينطوى عليها هذا الشعر !.. حقا هذا شعر خليق أن يقدره والدى الذى حنكه الدهر ، وعرف من تجاريبه حقيقة كل كلمة

فى هذا البيت ، ولكن الذى يدهشنى الآن هو : كيف غاب عن والدى وقتئذ أن مثل هذا البيت لا يمكن أن يتصور حقيقته ذهن غلام فى الثانية عشرة ؟!..

أترى كان المقصود أن أشرح البيت شرحا محفوظا ؛ كما ألقيه إلقاء محفوظا ؟!.. وما قيمة ذلك ؟. إن هذا لا يرفعنى عن الببغاء إلا مرتبة بسيطة !.. ولكن المقصود — فيما أعتقد — أن يشرح الإنسان المعانى شرحا محسوسًا ، بكل شعوره ، وكل إدراكه ، وكل إحاطته الشخصية لما يشرح ويفسر !.. فى مثل هذه الحالة لا يمكن أن يطلب إلى غلام ، أو شاب أن يفسر إلا ما تستطيع تجاريب سنه أن تلم به من مدارك وإحساسات !..

من أجل ذلك يجب على الوالد والمدرسة تجنيب الغلام أو الشاب ذلك النوع من الكذب على نفسه وعلى غيره ؛ بتلقينه تفسيرات « موضوعة »، لأشياء لا تدركها سنه !..

لهذا أيضًا يحسن بالوالد والمدرسة تمكين الصبى أو الشاب من قراءة ما يناسب سنه من ألوان القراءات !..

ولا تقلق أيها الوالد ، ولا تظن ابنك — وهو اليوم غارق فى هذه المطالعات التافهة اليسيرة — سائرا منساقا فى تيارها إلى آخر العمر !.. إن تيار الحياة هو الذى يغير لون المطالعات ، وأنت نفسك أيها الوالد الذى تقرأ اليوم كتب الفلسفة أو مقالات السياسة والاقتصاد ، أو تعنى بالتاريخ أو بالأدب الرفيع أو بعلم النفس أو بعلم الرياضة — كنت فى صباك مشغوفا بقصص « روكامبول » أو « أبى زيد الهلالى ».. ولكنك لا تذكر ذلك العهد ؛ كأغلب الآباء !.. ويخيل إليك أنك لم تقرأ قصة قط، لأن تيار حياتك اليوم دفعك فى مجرى بعيد عن حياة الخيال، وبدا لك عقلك ، وكأنه لم يعد يطيق هضم القصص !..

أيها الوالد !. اترك ولدك لسنه !.. وافهم طبيعة جيله !..

حرمان الأبناء

كم سعدنا فى طفولتنا الجميلة بشهر « رمضان »، وكم شقينا أيضا !.. من ذا الذى لا يذكر خفقة قلبه الصغير ، فى صباه ، وهو أمام حانوت « السمكرى » يقلب أنظاره الشائعة ، وأبصاره الزائغة ، فى مختلف « الفوانيس » بزجاجها ذى الألوان ؟.. ما أبهج ذلك الفانوس الأصفر الأخضر الأحمر المعلق فى القمة !.. ولكن ثمنه ولا شك باهظ !.. ترى هل يرضى الأهل ببذل هذه التضحية من أجله ؟.. إنه على كل حال لن يكلفهم شططا ولكنه سيفعم قلبه بسرور لن يقدر الكبار مداه أبدا !.. ما أقسى الكبار أحيانا !.. إنهم قد يضنون ببضعة دراهم لن تغنيهم ، هى الفرق بين لعبة ولعبة !.. ولكنها — فى الواقع — هى الفرق بين سعادة و سعادة !.. ما أشد نسيان الكبار !.. لقد كانوا كلهم صغارا فى يوم من الأيام !.. لماذا لا يذكرون ذلك العالم السحرى العجيب الذى تتفتح للأطفال أبوابه الذهبية فجأة كلما أرادوا الحصول على شىء من تلك الأشياء التى يحلمون بها !.. عالم من هناء سماوى ، لن يتاح لأحد غيرهم أن يعيش فيه بهذا الثمن الزهيد بعد أن يجاوز أعمارهم !.. لو تذكر الكبار ذلك العالم الذى أغلقت دونهم أبوابه بخروجهم من طور الطفولة لما ضنوا على أولادهم بشىء !.. فهم الآن وفى أيديهم القدرة ، وفى جيوبهم المال ، لن يستطيعوا فتح كوة فى ذلك العالم مهما يشتروها بثروة الدهر وذخر العمر !.. ما أعجب تلك المعجزة التى يسمونها الطفولة !.. فيها تستطيع أن تدخل الفردوس الذى لن تدخله بعد ذلك أبدا بقروش معدودات !.. سل كل صاحب ملايين فى أمة من الأمم : هل فى مقدورك أن تشترى اليوم بملايينك لحظة سعادة ؛ كتلك التى كنت تشتريها فى صباك بدرهم أو درهمين ؟

أرأيتم يا ملوك المال ؟.. تلك ملايينكم قد تضاءلت أمام ثروة طفل !.. وذلك

ذهبكم قد تحول إلى تراب أمام كنوز الطفولة !..

هنالك مع ذلك مشكلة تحتاج إلى تفكر وتدبر :

إذا كانت لك القدرة على إشباع رغبات طفلك وتحقيق أحلامه ، فهل تفعل أو تتمهل ؟.. هل من مصلحة الطفل أن تروى كل رغبته ، أو أن تبقى فيه بعض ظمأ لم ينطفئ ؟..

أقول ذلك لأنى لم أظفر فى طفولتى بكل ما كنت أتوق إليه من لعب ، وأصبو إليه من أشياء .. فكنت أخلقها لنفسى بنفسى بخيال مشبوب ، وكان من أقرانى وجيرانى من يملك لعبا نفيسة عجيبة تملأ حجرته ، وتملؤنى دهشة ، أقف بينها مشدوها ، وأحملق فيها معجبا ، وألمسها مكبرا !.. وصاحبها الصغير يعبث فيها بيده الصغيرة محطما ومحقرا !.. كنت ولا ريب أدرك قيمتها أكثر منه ؛ وأرى فيها أشياء باهرة ، لا تراها عيناه ، وكأن كل لولب فيها ، أو لغز أو مفتاح ، يحرك كل مخيلتى ، ويهز كل واعيتى !.. كل ذلك ؛ لأنى لا أملكها ، ولا أستطيع أن أحصل عليها !..

ترى ، يا علماء التربية ، ما الواجب أن يتبع فى تنشئة الطفل ؟؟.. تلبية ندائه أو صم الأذن أحيانا عن مطالبه ؟.. منحه لذة الامتلاك ، أو تعريفه بمرارة الحرمان ؟..

إذا جاء « رمضان »، وتطلع الطفل إلى الفانوس المزركش المبرقش فى قمة الدكان ،ـــ فهل تترك خياله معلقا ، وأحلامه تهتز معه ، وتبتاع له الفانوس الآخر ، أو تأتى له بالأول ،ـــ تضىء زجاجه وشمعته ، وتطفئ خيال الطفل ولوعته ؟!..

صنع الأجيال

يؤكد عالم « بيولوچى » أمريكى أنه ـــ فى خلال خمسة أعوام ـــ سيصبح فى مقدور كل زوجين أن يختارا نوع المولود الذى يريدانه .. فمن شاء مولودا ذكرا جاء له ذكر ، ومن شاء الأنثى جاءت له الأنثى !..

إن العلم يريد أن يضع فى يد الإنسان مفتاحا رهيبا ، من مفاتيح الطبيعة الحكيمة !.. العلم !.. هذا النهم الذى يسكن رأس الإنسان ، ويدفعه إلى نيل ما لا ينبغى له أن ينال !.. لكأنى بالطبيعة ـــ هذه الأم الرحيمة ، وقد لمحت يد طفلها الإنسان ، تمتد خلسة إلى وسائدها : لتجذب من تحتها المفتاح ، تهب قائلة لنفسها مرتابة قلقة :

ـــ أيها الأحمق !.. تريد أن تصرف كل أمورك بيدك ؟. أخشى ألا تكون على ذلك قديرًا ، ولا به جديرا !.. إنى أدبر لك شأنك ، متحللة من كل نزواتك ، مرتفعة عن كل صغائرك .. أرى مصيرك لا فى نطاقه الفردى المحدود ، بل فى علاقته بمصاير غيرك من الأحياء !.. إنك ستندم على هذا النزق يوما !..

وكأنى بالإنسان يقول للطبيعة بلسان العلم :

ـــ لم أعد طفلا ، ما دمت قد عثرت على مفتاحك ؛ فإنى أهل لأخذه واستخدامه !..

فتهمس الطبيعة :

ـــ كل الأطفال يقولون ذلك .. ويمضون بالمفاتيح إلى الخزائن الممنوعة ، بحثا عن الحلوى أو المتعة فيبعثرون ما فيها ، ويلقون الاضطراب فى نظامها !.. افعل ما شئت ، وسنرى منك ما يكون !..

* * *

ولن يكون غير أمر واحد : ما إن يعلم الناس أن فى الإمكان اختيار نوع

الولد ، دون أن يتكلفوا أكثر من جرعة دواء ، بقليل من المال ، حتى يندفعوا كلهم أفواجا إلى الصيدليات ، يطلبون الدواء الذى ينجب لهم المولود الذكر !..
فما يمضى جيل حتى نرى الدنيا قد زخرت بالذكور !..

وتظهر عند ذاك مشكلة عالمية : هى البحث عن الأنثى !..

وقد تقع المعارك والحروب بين الرجال من أجل المرأة ؛ كما وقعت حروب « طروادة » من أجل « هيلينا »..

عندئذ تنقلب الكفة فجأة ، ويندفع الناس من جديد إلى مخازن الأدوية ، يطلبون الدواء الآخر الذى ينجب الإناث !.. فلا يمضى جيل ، حتى نرى الدنيا قد زخرت بالنساء !..

وتظهر مشكلة البحث عن الرجل ؛ فيعود الاندفاع إلى المخازن والصيدليات طلبا له .. وهكذا دواليك — حتى يحدث نوع من التوازن بعد أجيال !..

ذلك أن هذا الطفل الإنسانى الكبير غير قدير على أن يقر التوازن فى شئونه إلا بثمن باهظ من الجهد ، وبعد زمن طويل ينقضى فى الاضطراب بين النقائض والترنح بين الأضداد !..

* * *

هذا فرض قائم على حسن الظن بالإنسان ، وعلى أنه يستطيع بنفسه — آخر الأمر — أن يسيطر على نزعاته ونزواته .. وأنه فى إمكانه أن يحل محل « الطبيعة » فى تنظيم ملكاته .. ولكن هنالك فرضًا آخر يقوم على عجزه وإخفاقه !.. هنا لا نرى مناصًا من تدخل « الطبيعة » !.. هذه الأم اليقظة الصابرة ، لا يمكن أن يبلغ بها التغاضى والتسامح حد الإهمال ؛.. فهى ما تكاد تلمح العبث من طفلها ، قد انتهى إلى الحد الذى يفسر النواميس ، حتى تنهض مسرعة إليه ، تمسك زمام الأمر بيديها ، لتقر النظام فى نصابه بطرائقها ، وتعيد التوازن إلى حاله بأساليبها !...

فإذا كان عدد الذكور قد طغى طغيانا لا سبيل إلى كسر شرته ، أيقظت « الطبيعة » الفتن وأقامت الحروب ؛ فحصدت بنيرانها ما لا بد أن يحصد من هذا المحصول الفائض !.. وإذا كان تعداد الإناث هو الغالب ، أشاعت الإباحية ، والأوبئة ، والثورات الاجتماعية ؛ فأخمدت بموجاتها ما لا بد أن يخمد من هذا الفوران الزائد !..

وعند ذلك يتم لها النصر ، وتقنع من الإنسان بهذا الدرس .. فلا تريد منه إلا أن يشعر بغروره ، ويعتبر بنزقه ، ويسمع همسها وهى تحنو عليه باسمة ، غافرة ، مشفقة :

ــ أشبعت لعبا ؟!.. ألا يحسن بك الآن يا بنى أن تدعنى أتولى أمرك ؟!..

أجيال الطبيعة

يقول المفكر الصينى « بوتانج »: إن من الناس من يرفض أن ينتج ذرية !..
فهل تستطيع الأشجار أو الأزهار أن ترفض إنتاج البذور التى تكفل استمرار البقاء لنوعها ؟.. إن مشكلة العصر الحاضر هى أن كثيرًا من الناس لا يتزوجون ، وأن كثيرًا ممن تزوجوا يرفضون إنتاج الذرية لأسباب شتى : كارتفاع مستوى المعيشة ، وازدياد تكاليف الحياة ، ومشقة الكدح فى سبيل الرزق !.. لكن ما من سبب من الأسباب ، ينبغى — فى نظره — أن يحول دون قيام البشرية بواجبها الطبيعى الذى تقوم به الشجرة والزهرة !..

هذا قول حق !.. لكن هنالك فرقا فى رأيى بين الشجرة أو الزهرة ، وبين الإنسان !.. إن الشجرة لا تفكر فى معارضة القوانين الطبيعية .. إنها لا تنسى أبدا أنها جزء من الطبيعة ذاتها ، وأنها عندما تنتج البذور تترك للحياة مهمة فرز الصالح من الطالح ، ولا تتعجل النتائج ، وتدع للزمن حرية العمل ، ينضج من الأنواع ما ينضج ، ويميت منها ما يميت ، ويضحى بمئات الآلاف ، أو آلاف الملايين ؛ ليخرج فصيلة ممتازة رائعة كاملة بعد حين !..

أما الإنسان فأمره مختلف .. إنه حيوان يفكر أو نبات يعقل .. وعمل العقل والتفكير هو استخراج مبادئ واستنباط قوانين .. وهذه القوانين والمبادئ كثيرًا ما تعارض قوانين الطبيعة .. ذلك أن الإنسان العاقل يضع مبادئه فى نطاق زمنه المحدود .. ولكن الطبيعة تضع مبادئها فى نطاق زمنها غير المحدود .. من هنا ينبع سوء التفاهم بين الطبيعة والإنسان فى أغلب الأحيان ؛ فأكثر الذين لا يتزوجون قد اتخذوا هذا القرار ، بناء على مبدأ من مبادئ العقل الذى يزين لهم الحرية الفردية ، ويجعلها فى صورة مغرية من صور السعادة الإنسانية !.. هذا الرجل الفرد المحلق كالعصفور — بغير عش فى كل الأجواء — لا يخشى الغد ، ويتحدى

الأنواء !.. ما أسعده فى وحدته وراحة باله وعدم مسئوليته ، ويظل هذا الرجل فى الحياة يصفق بجناحيه لا يظل بهما أحدا .. إلى أن يموت بردا بغير عش ، أو يمضى راضيًا بغير ندم !.. وهكذا ينتصر العقل على الطبيعة !.. وإما أن يشعر العصفور أن التحليق فى الهواء لا يمنحه الحرية ؛ بل يمنحه التيهان ، وأن سعادته ليست فى نشر الجناح على الهواء بل على بيت وقرين !.. عندئذ تنتصر الطبيعة على العقل ، ويتزوج الرجل ، غير أن العقل لا يتركه وشأنه ، بل يعود إليه ليضع له المبادئ ، ويسن له القوانين ؛ ويقول له : إيرادك صغير ، فلا تنجب ، أو أنجب طفلا !.. أو إيرادك متوسط ، فأنجب طفلين !.. ويصغى الرجل إلى قوانين عقله ، ولا يصغى إلى قوانين الطبيعة !..

قانون عقله يريد وصل الإيراد بالذرية ، وقانون الطبيعة لا يرى صلة بين الإيراد وبين الذرية .. العقل الإنسانى المحدود يريد أن يحبس نتائج النسل الآدمى فى نطاق الزمن الآدمى القصير ، وفى حدود التكاليف المالية والمعاشية !..

وعقل الطبيعة — غير المحدود — لا ينتظر نتائج هذا النسل إلا بعد أجيال تتعاقب فيها الدول وتتغير النظم !..

وهنا السر فى أن الإنسان الفطرى ينتج من الذرية كثيرًا !.. والإنسان المتعلم ينتج منها قليلا !... ذلك أن الإنسان الفطرى أكثر مقاومة لعقله واندماجا فى الطبيعة وخضوعًا لقوانينها ، ولكن الإنسان المتعلم أكثر مقاومة للطبيعة وخضوعا لعقله !..

الإنسان الفطرى هو وحده الذى ينطبق عليه قول المفكر الصينى !.. وهو وحده الذى مثله مثل الشجرة والزهرة ، ينتج وينسل بلا تفكير ، وعلى الطبيعة أن تفرز إنتاجه الصالح من الطالح ، وتبقى القوى وتميت الضعيف ، وهو يتقبل حكمها باستسلام وإذعان !..

أما الإنسان المتعلم فلا يقبل حكم الطبيعة فى ذريته !.. إنه هو الذى يريد أن يقرر بنفسه مصايرها ، ويوجهها فى الحياة تبعًا لبرنامج يضعه بعمله ، ويرسمه

بعقله !..

إنها الحرب إذن بين الإنسان المتعلم المفكر ، وبين الطبيعة !..

وما دامت الحضارة تقلب كل إنسان إلى متعلم مفكر ، فلا بد أن تتسع هوة الخلاف بين الطبيعة والإنسان ، إلى حد نرى فيه النسل يوما يكثر أو يقل تبعًا لبرنامج رسمى تضعه الدولة ، وتطبقه على الأفراد !..

على أن الحضارة الحقيقية فى نظرى ليست تلك التى تخالف الطبيعة ، بل تلك التى تصاحبها وتهذبها . تلك التى تتيح للدولة أن تقول لأفرادها : « تناسلوا كما تشاءون ، ولا تخشوا شيئًا ؛ فكل نتاجكم هو خير لى وللبشرية ، وسأكفل له التعليم ، والتمريض ، والتنشئة ، والإعداد ، وتوجيه المواهب ، وتوفير العمل !..»

إذا تم هذا فإن الحضارة عندئذ ، تسير فى اتجاه الطبيعة ، وتعمل معها ، وتصبح منها ؛— فى موضع البستانى تجاه الشجرة أو الزهرة .. ذلك البستانى الذى يقول للشجرة : « أنتجى وأثمرى ، وأنا أتعهد !.. !.. » .

تنوع الأجيال

فى سورة « هود » من القرآن الكريم آية ، قل من فطن إلى مراميها البعيدة تلك هى :

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين .. »

مهما يكن من أمر التفسيرات التى شرحت بها هذه الآية ، فإنه يبدو لى أن فى جوفها وميضًا ينم أحيانًا عن أسلوب الله فى خلق الكون .. فذلك الاختلاف بين الأجرام فى الأحجام هو سر تجاذبها وتماسكها وتعاونها ، ولو أن الله جعل الأجرام حجما واحدًا وشبها واحدًا فى كل العناصر والأوزان والصفات لا نفرط عقدها ، وانحل رباطها . أما فى مجال أرضنا — وسكانها من الآدميين — فإن قانون الاختلاف له مثل هذه الضرورة واللزوم !.. ولقد قرأت أخيرًا للمفكر الإنجليزى « چون هادهام » فخيل إلىّ أنه يكتب بوحى من تلك الآية القرآنية هذه السطور : « لو أن كل بلد كان له من الهيئة ومن المواد الخام ما لسائر البلاد ؛ـ لكان كل بلد يستطيع الحياة مستقلا تمام الاستقلال عن جيرانه ، ولكن الله نظم خريطة الدنيا على نحو يجعل كل بلد فى حاجة كبيرة أو صغيرة إلى كل بلد !.. وهذا القول يصدق أيضًا على الشعوب ، فبكل شعب قد جعلت فيه مزية يستطيع بها أن يضيف شيئًا إلى مجموع الشعوب ، وكل شعب مدين للشعوب الأخرى بشىء يعوزه فى إنتاجه أو ينقصه فى تركيبه !..

وما يقال فى شعب يقال فى الأفراد الذين يتكون منهم ، فما من مجتمع صحيح البنيان إلا كانت صحة بنيته ناتجة من أفراد لا يتشابهون فى نوع العمل واتجاه التفكير .. لأن تلك الصحة إنما قوامها تلك المساهمة التى يؤديها إلى المجموع كل فرد بعمله الخاص ، وتجاربه الشخصية ، ومزاجه المختلف عن سواه ، وطبيعته ونظرته !.. وهل نستطيع أن نتصور قيام مجتمع ، يتكون من أفراد كلهم

متشائمون فى النظرة أو كلهم متفائلون .. وكلهم ذوو حرص أو كلهم مهملون ؟.. وكلهم شعراء ، أو كلهم مهندسون ، أو كلهم خطباء ؟!..

* * *

وإذا أردنا أن نكمل الصورة ، فلنهبط إلى الأعضاء فى جسم الفرد !.. فالصحة فى جسم الفرد قوامها أيضا ذلك الاختلاف فى وظائف الأعضاء !.. فالرأس يفكر ، والقلب يشعر ، واللسان ينطق ، والأذن تسمع ، والقدم تسير !.. وإن هذه الصحة لتنهار يوم نرى كل هذه الأعضاء تترك وظائفها المختلفة ، وتتجه كلها إلى وظيفة واحدة متشابهة للجميع ، وهى التفكير !.. نعم ، ماذا يكون حال الجسم لو تمرد القلب ، واللسان ، والأذن ، والقدم ، وقالت كلها : لن نشعر ، ولن ننطق ، ولن نسمع ، ولن نسير !.. نريد كلنا أن نكون مثل الرأس ؛ فلا نصنع شيئا سوى أن نفكر ؟!.. معنى ذلك ولا ريب هو شلل الجسم كله وسقوطه فى مكانه ، لا يتحرك ، ولا ينطق ولا يشعر ، ولن يغنيه تفكيره شيئا !..

أسلوب الله فى خلقه ، يبدو إذن من ذلك الاختلاف : فى الصفات ، والهيئات ، والسمات !.. هنا سر التناسق فى الخليقة ؛ أى سر تضامنها : فأعضاء الجسم متضامنة فى العمل ، لأنها مختلفة فى الوظيفة ، ولو أنها تشابهت فى الوظيفة لما تضامنت فيما بينها ، ولاستقل فى الحال كل عضو عن كل عضو ، وبهذا الاستقلال يتفكك الجسم ، ويتفتت الفرد !..

* * *

فإذا انتقلنا إلى مجال الرأى ، وجدنا أن اختلاف الآراء فى المجتمع البشرى ضرورة من ضرورات الطبيعة ، أى مظهر لإرادة الله !.. وهنالك فرق بين الاختلاف فى الرأى ، والاختلاف فى العقلية . فقد تتشابه العقلية فى شخصين ، ويختلف الرأى بينهما !..

والمجتمع السليم يجب أن يقوم على قدر من الوحدة والانسجام فى عقلية الأمة ،

وأجيالها ومقومات شخصيتها العامة — دون أن يؤثر ذلك فى اختلاف الآراء فيها!.. فلا ينبغى أن يشط بنا غرورنا الإنسانى، فنعتقد أن ما يجول فى رأسنا من رأى يجب أن يسود الناس أجمعين !.. ما من رأى واحد يمكن أن يسود هذه الأرض !..

إن العالم اليوم منقسم إلى معسكرين ورأيين ، كل منهما يريد أن يمحو الآخر من الوجود محوا : الرأسمالية فى جانب ، والشيوعية فى جانب — وكل منهما يعد من الذرة قنبلة ، يزيل بها خصمه من خريطة الدنيا !.. وقد تقع الحرب الفاصلة بينهما ، فى يوم قريب أو بعيد !..

ولكن الذى لن يقع ، هو وحدة الرأى فى هذا العالم ، حتى إن ظفر أحد الجانبين بالانتصار الساحق الماحق !.. ذلك أنه — فى تلك اللحظة عينها — لا يلبث أن ينقسم هذا الرأى الواحد المنتصر إلى آراء تختلف وتشتجر !.. وهكذا دواليك !.. لأن هذا ناموس الخالق الأزلى :

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين »!..

مبدأ الأجيال القادمة

الدنيا مركبة زاهية الألوان ، مذهبة الحواشى ، مطهمة الخيول ـــ سائقها الشيطان !..

هذا السائق اللبق يعرف دائما كيف يخاطب الركب .. إنه لا يجهل حب الناس للخير ، أو التظاهر بحب الخير .. فهو يتحاشى أن يخاطبهم بلسانه الحقيقى !.. لقد ابتدع لهم لغة بارعة براقة ، يقطر منها النبل والسمو !..

فهو ينحنى بجوار باب مركبته ، حتى تكاد جبهته تمس الأرض تواضعًا ، ثم يفتح الباب ، ويقول للناس :

ـــ هلموا اصعدوا ، أوصلكم إلى أنبل الغايات !..

فيصعدون : بعضهم عن إيمان ، وبعضهم عن غرض ، وبعضهم عن تورط !.. أما صاحب الإيمان فيقول فى نفسه :

ـــ الدنيا بخير !.. وأحمد الله أن أتاح لنا هذا السائق الطيب ، يذهب بنا إلى ما نؤمن به من غاية شريفة .

وأما صاحب الغرض فيقول :

ـــ ليس يعنينى الجهة التى يذهب بى إليها هذا السائق ، ولكن الذى يهمنى هو أن أصعد إلى جوار هؤلاء الناس المؤمنين الشرفاء !..

أما المتورط فيقول :

ـــ لم يكن نيتى الركوب ، ولكن ما دام الناس من حولى يصعدون كلهم مع هذا السائق ، فما الذى يقينى أنا من دون الناس ؟!..

ويغلق السائق على الجميع باب المركبة ، وهو يبتسم ويقفز إلى مكان القيادة ، ويمسك بالأعنة ، ويلهب بالسوط ظهور الجياد !.. فإذا المركبة تنطلق ، كالمجنونة تسابق الرياح ..

* * *

ولا يمضى قليل ، حتى يشعر الركب برجات عنيفة ، تكاد تحطم المركبة ، وتصيبهم بالدوار ، وتلقى بعضهم على بعض !.. عند ذاك ينظرون من النافذة ، فإذا هم يتبينون أن السائق قد ترك الطرق السوية ، وانحرف عن السبل المستقيمة ، ونزل بالمركبة يخب فى السكك الوعرة ، ويخوض فى المسالك الموحلة !..

فيصيح به أصحاب الإيمان مرتاعين :

ـــ ويلك !.. مهلا !.. ما هذا الطريق الذى تخوض بنا فيه ؟!..

فيلتفت إليهم السائق ، قائلا بخبث مستتر :

ـــ هو أقصر الطرق !..

فيقول المؤمنون :

ـــ ولكنه ليس نظيفا !..

فيجيب السائق :

ـــ المهم الغاية التى تقصدون إليها !! ما دامت الغاية نبيلة ، فلا تنظروا إلى الطريق !..

ويعود إلى سوطه يلهب به خيوله ، فتندفع المركبة فى وجهتها ، تاركة الركب المؤمن فى داخلها ، ينظر بعضهم إلى بعض متسائلين :

ـــ أحقا ؟!.. يجدر بنا أن نسير فى هذا الوحل والطين من أجل الوصول إلى غايتنا الشريفة ؟!..

ويشترك فى الحديث غير المؤمنين ، من هواة التظاهر والمتورطين ، فيقول :

ـــ ما دام هذا هو أقصر الطرق للوصول ، فما الضرر ؟..

فيصمت أصحاب الإيمان ، وقد أسلموا أمرهم إلى الله ، وهم ما أسلموه فى حقيقة حالهم إلا إلى الشيطان !..

* * *

تلك هى مركبة الدنيا من قديم منذ سلم فيها الجميع بمبدأ « الغاية تبرر الوسيلة !.. »

أخطر مبدأ عرفته أجيال البشرية المتعاقبة !.. هذا المبدأ وحده هو المسئول عن كل هذه الكوارث التى حاقت بالعالم حتى عامنا هذا جيلا بعد جيل !..

كل ساسة العالم وقادة الشعوب ، فى الأمس واليوم ، وفى الغد أيضًا ، ولا ريب يسيرون على هذا المبدأ ، مخدوعين بوهم أنه أقصر طريق ، للوصول إلى غاياتهم ، التى قد تكون فى بعض الأحيان نبيلة ، ولكن الذى يحدث دائمًا هو ما يحدث لركب المركبة التى يقودها الشيطان !.. إنهم لا يظفرون إلا بالطريق الموحل ، أما الغاية فلا تظهر لهم أبدًا فى الآفاق !..

ذلك أن الطريق الملتوى القذر ، لا يوصل أبدًا إلى الخير ولا إلى الشرف !.. إن الغاية النبيلة ليست من الضعة حتى تقبل أن يوصل إليها بطريق غير نبيل !.. إن الطريق إلى الشرف هو الشرف نفسه ، ولا شىء غير ذلك !..

والخير هو فى ذاته الطريقة والغاية ، لأنه شعاع من أشعة الله ، والله تعالى غاية ، لا بد أن يكون طريقها نورًا وخيرًا !..

فلو اتفق قادة العالم المجتمعون حول موائد السلام ، وقادة الشعوب والمجتمع والفكر الباحثون فى مستقبل الإنسانية — على أن يحطموا أولا مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » — لجاءت النتائج باهرة !.. فإن مناورات الساسة ستختفى ، وأساليب الكذب والمداراة والنفاق والخداع ستزول ، ولن يبقى أمام الجميع غير طريق واضح نظيف !. إذا أوصلنا إلى الخير العام ؛ فهو الهدف ، وإن لم يوصلنا إلى إصلاح سريع ؛ فحسب العالم أنه سار فى طريق خال من الشر والقذر !.. وإذا لم يكن هذا الطريق النظيف هو فى ذاته إصلاحًا وخيرًا ، فلن يعرف العالم الإصلاح والخير عن طريق التدمير والشر !..

هل لنا أن نأمل فى الأجيال الجديدة ظهور مبدأ جديد ، يتخذه العالم كله دينًا وعقيدة ، ويكون شعاره :

« الغاية النبيلة فى الطريق النبيل !.. »

شبح جيل

ذهبت إلى شارع « بلبور » ذلك الحى النائى من أحياء « باريس » — حيث كنت أقيم بعد الحرب العالمية الأولى — فماذا وجدت ؟.. وجدت الشارع الضيق كما كان ، ووجدت حجرتى مفتوحة كما كانت ، مفتوحة النافذة على الفضاء الواسع ، وأعترف أنى تأثرت ، وشعرت برجفة ؛ فقد خيل إلىّ أنى أرى شخصًا فى النافذة ، شخصًا أعرفه ، شابًا نحيل الجسم ، أسود الشعر ، يرسل البصر إلى الأفق البعيد ؛ كأنما يريد أن يهتك حجب الغيب ؛ ليطالع ما خط فى لوح قدره !.. ولكن القدر — فيما يبدو — ما كان قد خط بعد حرفا واحدًا فى اللوح !.. إنما وقف ممسكا به ينتظر — ينتظر الرسم الذى خطه الشاب لحياته !.. نعم ، لقد كان ذلك الشاب قد وضع لحياته شبه « خريطة » واضحة المعالم ، دقيقة التفاصيل !.. كان قد طرح فى مصر مهنة المحاماة والقانون ؛ ليمضى فى حمل القلم ، ويقول للناس أشياء ، يعتقد أنها قد تنفعهم !.. وما كان يريد غير ذلك ولا يطمع من حياته فى غير ذلك — فلا الجاه العريض كان يغريه ، ولا مفاتن الحياة كانت تستهويه ، ولا الثراء كان يجذبه أو يقنعه أو يرضيه !..

وعندما يضع « إنسان » لحياته خطة ، فإن « القدر » أحيانًا يأخذ وينفذ !..

لذلك تقدم « القدر »، فيما يظهر ، إلى الشاب وتسلم منه الرسم ، ونقله إلى لوحه وهو يهمس باسمًا : ما دمت أنت « المهندس » الدقيق لبناء حياتك ؛ فلن أكون أنا غير « المقاول » المنفذ الأمين !..

ولقد بر « المقاول » فعلا بالوعد .. وأتم العمل .. وأقام البناء طبقًا للرسم .. لا أكثر ولا أقل ..

* * *

وددت لو أستطيع أن أسأل ذلك الشاب الذى تخيلته فى النافذة :

ـــ أيعجبك هذا البناء ؟!..

لم أتلق بالطبع جواب جواب ذلك الشاب !.. ولست أدرى بماذا كان يجيب فى مثل سنه ؟.. ولكنى سمعت الجواب من أعماق نفسى أنا :

ـــ لا .. لا يعجبنى ..

وهنا .. خيل إلىّ أنى أسمع « القدر » يقول بنبرة تهكم :

ـــ الذنب ليس ذنبى .. لقد نفذت ما تسلمت .. إن كان هناك عيب فهو عيب الرسم !..

فقلت له فى الحال :

ـــ اطمئن .. ما من أحد يتهمك أنت .. ما من شك أن المسئول هو ذلك المهندس « الغشيم » !..

فقال مزهوًا .

ـــ عندما يترك لى أنا القدر مهمة الرسم ، فإنى أفعل المعجزات !..

فقلت له :

ـــ بالتأكيد .. ولكن ماذا تقول فى أولئك الأغرار الذين يتصدون للهندسة ووضع الخرائط . فيحبسون حياتهم داخل رسم خيالى .. لا يستطيعون منه خروجا أبد الدهر ؟!

فقال :

ـــ مهما يكن خيال الإنسان فهو لن يطاول خيالى !.. أستطيع أن أدلك على عشرة تعرفهم ، ولا شك أنهم اليوم من أصحاب الملايين ، أحدهم كان حوذيًا فى عربة نقل ، والآخر بائعا جائلا من باعة « الخردوات »، والثالث عاملا فى حانوت فواكه .. وهلم جرا .. ما من واحد منهم وضع لحياته خطة أو تخيل لمصيره رسمًا !.. تركوا كلهم لى أنا مهمة الرسم ، وعهدوا إلىّ بهندسة بناء حياتهم . فصنعت لهم ما لم يخطر لأحد منهم على بال !..

فقلت له :

ـــ ماذا صنعت لهم ؟..

ـــ أقمت بناء حياتهم ، على أعمدة من الذهب !..

ـــ أعطيتهم المال ؟!..

ـــ نعم .. أغرقتهم فى المال !..

ـــ نعم !.. أغرقتهم !..

قلتها هامسًا، وأنا أهز رأسى، تلك الهزة الطويلة التى تطوى التهكم المستتر!..

فقال « القدر »:

ـــ ماذا تقصد ؟.. ألم أعطهم أكثر مما كانوا ينتظرون ؟

فقلت على الفور :

ـــ هذا صحيح ؛ لأنهم ما كانوا ينتظرون من الحياة أكثر من ذلك ..

فقال متخابثا :

ـــ وماذا فى الحياة أكثر من ذلك ؟!..

فقلت باسما :

ـــ ألا تعرف أنت ؟!..

فقال :

ـــ أتعرف أنت ضوءًا أشد من وهج الذهب ؟!..

فقلت فى الحال :

ـــ القلوب الصغيرة هى التى تضاء بالذهب ، أما القلوب الكبيرة فلا تستطيع جبال الذهب أن تضىء أرجاءها وأعماقها !..

فقال :

ـــ أنا الآن إذن فى نظرك مهندس ومقاول من نوع رخيص !..

فقلت :

ـــ أنت مهندس ومقاول ، اعتاد أن يرسم ويقيم البيوت الصغيرة !.. لقد تبين لى الآن أن البيوت الكبيرة لا يرسمها غير أصحابها ..

فقال بخبث :

ـــ ولماذا شكوت الساعة إذن من بناء حياتك !؟..

فقلت مطرقا :

ـــ لأن الشاب الذى وضع الرسم، كان حسن الظن واسع الخيال، لقد خط على صفحة ذهنه بيتًا كبيرًا !.. كبيرًا جدًا ، لم أستطع أنا أن أملأه أو أتخذ مكانى فيه !.. إنى حبيس قصر رحب ، لم يستطع إيمانى ، ولا جهدى . ولا قدرتى أن تشغل كل قاعاته وأبهائه !..

***

قلت ذلك و انصرفت خارجا من شارع « بلبور » بعد أن ألقيت نظرة أخيرة على شبح الشاب الواقف فى النافذة ، وهمست :

ـــ وداعا !.. عفوًا !.. لم أستطع أن أفعل أكثر من ذلك !.. لعلك أنت الذى بالغت فى التفاؤل !..

ومشيت فى الطريق الذى كانت تقام فيه السوق كل أسبوع ، ويذهب إليها الشاب ليحمل مؤنته من الأرز والبيض، وينفق « الفرنكات » القليلة ، التى لا يملك غيرها على مدى الشهر الطويل ، ولكنه كان سعيدًا ؛ لأنه ما بالطعام وحده يعيش الإنسان !.. نعم كان سعيدًا ؛ بالأمل الذى يلمع فى الأفق ؛ كأنه نجم !..

ما تغير شىء فى ذلك الحى القصى ، إلا ذلك النجم الذى اختفى ، والأفق الذى غشاه الضباب !..

الباب الثانى عشر

الأدب والتزاماته

الأديب يلتزم ...
ولكن الأدب لا يلتزم ..

الأديب يلتزم

كثر الكلام بين أدباء « أوربا » ــ فى العصر الحديث حول الأدب الحر ، والأدب الملتزم ، حتى كاد المتتبع للجدل يحسب أن الموضوع جديد ، تمخضت عنه النظريات الجديدة فى الدولة والمجتمع !..

والحقيقة المسطورة فى التاريخ ، هى أن الالتزام فى الأدب والفن قديم ، بل ربما كان الأصل فى الأدب والفن أنهما ولدا مقيدين ، وأنهما لم يعرفا الحرية إلا فيما بعد !.. فالشاعر فى المجتمع البدائى ، ولد ملتزمًا بالدفاع عن القبيلة ، مشيدا بفضائلها ، مزريا بخصومها !.. ولم ينسلخ تفكيره عن تفكير قبيلته ، ويأخذ فى التعبير عن أفكاره الفردية ومشاعره الشخصية إلا عندما بدأ المجتمع يتطور نحو التعقد !.. على أن المجتمع المتطور ، البالغ درجة من الرقى ، قد يظهر فيه الالتزام : فى الفكر ، والأدب ، والفن ؛ إذا ظهرت فيه فكرة من الأفكار ، أو عقيدة من العقائد ، ذات أثر فى نفوس الناس !..

وهذا ما حدث عند ظهور الإسلام ، فقد نهض ــ من بين الشعراء ــ « حسان بن ثابت »، يؤيد هذا الدين الجديد بشعره ، ويحارب أعداءه ، ويجاهد بقصيده فى سبيله !..

كما أن طريقة الحكم فى مجتمع ، وعمق الإيمان عند شعب : لهما أقوى الأثر فى ظهور الالتزام !.. وهذا ما حدث فى « مصر » القديمة !.. ولنرجع إلى ما قال العلامة « موريه » فى كتابه « النيل والحضارة المصرية » فقد ذكر أن الفن والأدب والعلم ، أشياء كانت دائمًا فى خدمة الدين والدولة ، وأن « مصر » القديمة ، ما عرفت ــ إلا فى النادر ــ ما يسمى بالثقافة الخالصة والفن للفن والبحث العلمى المقصود لذاته والتفكير النظرى والأدب الشخصى .. وأن آثارها الكبرى بروحها الجماعى لا تحمل حتى اسم صانع بعينه . وأنها كلها

خاضعة لمذهب فني واحد ، يتجه بكل دقة إلى أهداف اجتماعية دينية .. هذا المذهب الفني المصرى ، كما يقول « موريه » قد ضيق أحيانًا كثيرة مجال الابتكار ، عند أولئك الفنانين العظام ، ولكنه عبر على كل حال عما يكن الشعب ، من تقديس للسلطة والعقيدة .. ذلك الالتزام المصرى القديم تقابله حرية شبه مطلقة عند اليونان القديمة !.. فطريقة الحكم والإدارة فيها ، والاتجاه إلى الديموقراطية ، وضعف الإيمان الدينى ، وغلبة النزعة العقلية ؛— كل ذلك سلخ الفكر والفن عن سلطان الدولة والدين ، فظهرت مذاهب الشك والبحث العلمي والفلسفي المتحرر من كل هدف نفعى ، والفن المتجرد من خدمة سلطان دينى أو دنيوى !..

هل لنا أن نستنتج من ذلك أن أساس الحرية والالتزام واحد لم يتغير فى الماضى والحاضر ؟.. وأن دوافع الالتزام والحرية هى بعينها فى العصور القديمة والحديثة ؟.. لو تتبعنا مواطن الفكر الملتزم فى عصرنا الحاضر ، لوجدناه فى عنفوانه وتألقه فى البلاد التى تقدس هى أيضًا الدولة والعقيدة ، ولما كانت العقيدة الدينية آخذة فى الضعف فى بلاد الغرب ، فقد حل محلها فى القوة والتمكن العقيدة الاجتماعية ، أو المذهب السياسى !.. فحيثما وجدنا اليوم شعوبًا تدين كلها بدين اجتماعى جديد فى كنف سلطان الدولة القاهر ، نجد الفكر فيها ملتزمًا بخدمة الدولة والدين ، ونرى من النادر أن يتجه فيها مفكر ، أو أديب ، أو فنان ،— إلى خدمة فكرة خاصة تعارض المذهب العام الذى اعتنقه الشعب والدولة !..

فإذا نظرنا إلى بلاد الديمقراطية ، حيث سلطان الدولة ضعيف بالقياس إلى حرية الفرد ، وجدنا الفكر فيها يكاد يشبه ما كان عليه فى بلاد اليونان القديمة ، من حيث عدم الالتزام بخدمة سلطان دينى أو دنيوى !.. فالمفكر أو الأديب أو الفنان فى تلك البلاد لا يستطيع أن يلتزم على الصورة السابق ذكرها ، لأن سلطة الدولة عنده تتناوبها حكومات متغيرة ، وعقيدة الشعب منتشرة فى مذاهب متناقضة متعددة ، وهو — بين الشك واليقين — يؤثر فى أغلب الأحيان

الاحتفاظ بفنه لنفسه ... وهو لو أراد أن يلتزم لما وجد أحدًا هناك يلزمه غير نفسه !.. وهذا هو المظهر الوحيد للالتزام ، عندما يظهر من حين إلى حين فى البلاد الديمقراطية !...

فالأدب الملتزم فى البلاد الديمقراطية لا يعدو اليوم أن يكون فى صورة مذاهب شخصية ، لأمثال « سارتر » و « كاموس » ، فى فرنسا ، وأضرابهما فى البلاد الأخرى !... مذاهب أدبية ينشئها ، أو يروج لها أفراد من الأدباء ، يلزمون أنفسهم بمبادئها فيما يكتبون وينتجون ! فالالتزام عند « سارتر » ليس دافعه « الدولة » ، بل شخصه وحياته .. ولقد سئل عن مبدأ اعتناقه مذهب الأدب الملتزم ، وهل هو ناشىء عن تجربة الحرب الأخيرة ؟... فقال : « نعم ، إن الأحداث الاجتماعية هى التى تأتى باحثة عنا ، ولكن التجربة الحاسمة كانت فى أيام الأسر بين الأسلاك الشائكة ، حيث تيقظ الضمير متسائلا عن حقيقة الحرية ..» أما « كاموس » فقد نبع التزامه من أعماق تفكيره ، فقد قال : « إن فكرتى عن الفن سامقة الارتفاع .. وهذه الفكرة المرتفعة هى التى تجعلنى أريد للفن أن يخدم شيئًا . إن غاية الفنان الخالق هى أن يصور عصره .. ولقد كانت مشاعر العصر فى القرن السابع عشر تدور فى الغالب حول الحب .. أما اليوم فإن مشاعر العصر هى مشاعر جماعية ، لأن المجتمع اليوم يسبح فى الفوضى ..» على أن « كاموس » نفسه لا يحلو له كثيرًا أن يوصف بأنه أديب ملتزم .. فقد علق على كتيب نشر عنه بقوله : « إنى شاكر لمؤلفه ، إذ لم يصفنى بأنى كاتب مذهبى خاضع لمذهب بعينه »..

إذا استثنينا هذين الأديبين ، كان من الصعب أن نجد فى بلاد الديمقراطية قادة للأدب الملتزم من هذا الطراز .. على أنهما وأتباعهما لا يكادون يؤثرون فى الصفة الغالبة على الأدب الفرنسى المعاصر !.. فهذا الأدب فى مجموعه بعيد عن كل التزام ، لا فى أدب الكتاب وحده !.. وهو بطبيعته أقرب إلى الفردية ، بل فى أدب المسرح ذى الطبيعة الجماعية .. ولنصغ إلى الكاتب الناقد المسرحى المشهور « جبريل مارسيل »، فى محاضرة أخيرة له إذ قال :«إنه لمن الغريب أن

نلاحظ إلى أى مدى يغيب عن المسرح الفرنسى المعاصر كل مظهر اجتماعى للواقع الحاضر ؛ بمشكلاته الحقيقية التى تعرض لكل واحد منا !.. »

وهذا صحيح إلى حد يدعو إلى الدهشة لمن يتتبع روايات المسرح الفرنسى الآن رواية رواية .. أغلبها حقًا بعيد كل البعد عن معالجة المشكلات المباشرة للمجتمع !.. ومع ذلك فإن ذلك المجتمع يقبل عليها إقبالاً يثير العجب !.. فلقد لبثت رواية « الكوخ الصغير » لـ « أندريه روسان » تمثل بلا انقطاع ثلاث سنوات متتالية !.. وهى ملهاة تدور حول زوج وزوجته وعشيق ، كانوا على ظهر سفينة غرقت بهم ، فنجوا هم الثلاثة وعاشوا وحدهم فى جزيرة نائية !.. ولقد سئل مؤلفها هذا السؤال : « أليس من التناقض العجيب أن ينجح مثل هذا المسرح هذا النجاح كله فى لحظة مؤلمة من تاريخنا ؟.. » فأجاب المؤلف : « هذا بالضبط هو السبب !.. إننا نعيش فى مأساة ، فما من نوع يلائم عصرنا غير الملهاة »!..

فإذا تركنا « فرنسا » وذهبنا إلى « إنجلترا » وجدنا الأمر مثل ذلك وأكثر ؛ فالعقلية الإنجليزية لا تطيق قيودًا على الفكر والمتعة ، مهما تكن فائدتها !.. لهذا قلما نجد ظاهرة الالتزام ـــ بالمعنى المذهبى المذكور ـــ فى الأدب الإنجليزى المعاصر !..

أما المسرح فهو أيضًا بعيد كل البعد عن تصوير مشكلات حقيقية مباشرة للمجتمع ، وأكثر المسرحيات نجاحًا عند الجمهور الإنجليزى روايات « نويل كوارد » وهى من طراز روايات « أندريه روسان » الفرنسى !..

فإذا اتجهنا إلى « أمريكا » ألفينا نفس الأمر ، ولنستمع إلى الناقد الأمريكى الشهير « بروكس أتفكنسون »، يصف فى جريدة « النيويورك تيمس » حالة المسرح فى الولايات المتحدة بقوله : إن الحياة الفكرية والفنية فى هذه البلاد تكاد تكون عائمة على السطح .. فالناس هنا لا يودون التعرض لأى مخاطرة فكرية ، ويترددون فى التصريح بما يعتقدون .. والخوف من الشيوعية جعل أصحاب

الذوق المبتذل هم الذين يتحكمون فى الإنتاج الفكرى والفنى ؛ كما هو الحال فى « روسيا » الآن فأصبح المسرح تافهًا هنا كما هو هناك !.. ولن نأمل فى أن يكون لنا فن مسرحى حى ما دمنا نقلد الدول الدكتاتورية فى فرضها الرقابة على الحياة الثقافية ، ووضعها زمام هذه الرقابة .. فى أيدى أجلاف مغلقى النفوس عن كل فهم ، وفن ، وذوق !.. »

من هنا يبدو — كما يعقب أحد الباحثين فى حالة الفن الأمريكى المعاصر — أن المنتجين يتجنبون الموضوعات التى تجنح إلى نقد المجتمع ، ويتوخون السلامة والعافية فى إنتاج كوميديات موسيقية خفيفة من نوع «الموزيكهول»!.. ذلك النوع الذى تمثل فيه «جودى جارلاند» وضريباتها بنجاح يجتاح «برودواى» اجتياحا!.. ذلك النوع من الإنتاج يدر على منتجيه ربحًا لا ينضب معينه ، ويجنبهم فى عين الوقت المثول يومًا ما أمام لجنة من لجان تحقيق الكونجرس !..

تلك خلاصة لقول بعض النقاد الغربيين ، فى شأن الحرية والالتزام فى العصر الحاضر .

فإذا كان لا بد لى من إبداء رأيى فيما ينبغى للأديب — ولا بد لى من إبداء آرائى هنا صريحة ؛ لأن طبيعة هذا الكتاب — كما لاحظ القارئ — هى عرض لشئون الأدب والفن من خلال أفكارى ، ومطالعاتى ، وكتاباتى ، وتجاريبى فى الثلاثين سنة الماضية ؛ من حياتى الأدبية والفنية !.. فإنى أقول — وقد قلتها من قبل كثيرًا — إن الأديب يجب أن يكون حرًا ؛ لأن الأديب إذا باع رأيه ، أو قيد وجدانه ذهبت عنه فى الحال صفة الأديب .. فالحرية هى نبع الفن ، وبغير الحرية لا يكون أدب ولا فن !..

تلك هى النصيحة التى ينبغى أن تزجى إلى الأديب الفنان ، ولا تتصور نصيحة أخرى خالصة يمكن أن تقدم إليه ؛ لأن الذى يقول لفنان ، أو أديب : التزم بكذا ، أو بكيت ؛— فقد قتله .. إنما التزام الأديب أو الفنان شىء ينبع حرًا من أعماق نفسه ؛ فإن لم ينبع الالتزام حرًا من قلبه وبيئته وعقيدته فلا تلزمه

أنت ، ولا تلزمه قوة فى الوجود !.. يجب أن يكون الالتزام جزءًا من كيان الأديب أو الفنان ، ويجب أن يلتزم وهو لا يشعر بأنه ملتزم ؛ مثله مثل حمام زاجل ، ينقل رسالة وهو حر طائر ، لا يشعر بقيد فى ساقه ، ولا بغل فى جناحه ، فإذا شعر الفنان لحظة واحدة أنه يؤدى بفنه ضريبة عليه أن يؤديها وجوبًا ، فإن الذى سينتجه لن يكون فنًا .. فإذا لم يشعر بأن الالتزام واجب وإنما هو شىء طبيعى .. شىء لو أرغمته على ألا يؤديه لعصاك وأداه ، لأنه جزء من طبيعته وتفكيره وعقيدته ، فإن الذى سينتجه مع الالتزام سيكون هو الفن !..

وهكذا كان الالتزام عند الفنان المصرى القديم فيما أعتقد !.. كان فنه ملتزمًا بخدمة عقيدة دون أن يشعر بإرغام على ذلك ؛ لأن العقيدة فعلا عقيدته التى نشأ عليها ، وركبت فى طبيعته !.. فالالتزام المثمر للفنان فى رأيى هو الالتزام الذى ينبع من طبيعته ، وهنا لا يتعارض الالتزام مع الحرية — بل هنا ينبع الالتزام نفسه من الحرية !.. لذلك لم أقل يومًا لأديب أو لفنان : التزم !.. بل قلت وأقول : كن حرًا !..

هذا موقفى تجاه الأدب والأدباء على وجه العموم !.. ولكن الموقف مختلف كل الاختلاف فيما يختص بإنتاجى أنا على وجه خاص ، فعلى الرغم من مناداتى بالحرية ، فإن عملى فى أكثر كتبى هو من صميم الأدب الملتزم ، ولست أدرى أهذا راجع إلى رواسب ماضينا وتاريخنا القديم ، أم إلى طبيعتى الخاصة ؟.. إنما الذى أعرفه هو أنى منذ أمسكت بالقلم ما حاولت قط أن أنشىء لنفسى أسلوبًا جميلا ، يتميز بجزالة اللفظ ، وحسن الديباجة ، مما يستهوى القارئ بحلاوة الجرس والرنين !.. هذا الفن للفن فى الأسلوب ما خطر لى أن أمارسه .. ولكن أردت أن أتخذ من الأسلوب خادمًا لأهداف أخرى ، غير مجرد الإمتاع !.. هذه الأهداف ، كما ظهرت واضحة للناس ، كانت قومية ، وشعبية ، وإصلاحية ؛ فى « عودة الروح »، وفى « عصفور من الشرق »، وفى « يوميات نائب فى الأرياف » وفى « مسرح المجتمع » !.. وكانت مذهبية متصلة بمصير الإنسان ؛

كما لم تظهر بوضوح لكل الناس خصوصًا فى « مصر »: فى « أهل الكهف »، وفى « شهـرزاد » وفى « سليمـان الحكيم » وفى « بجماليــون »، وفى « الملك أوديب ».. إلخ .. أقول لم تظهر لكل الناس ، لأن كثيرين منهم هنا لم يروا فيها أكثر من أساطير أخرجت فى إطار فنى .. والقليل أدرك أن الأسطورة لذاتها لم تكن هى المقصودة ، فهذه القصص لم تكتب لإظهار جمال الأسطورة ، كما كتبت « مجنون ليلى » لشوقى ، فأظهرت جمال الشعر والعواطف والشعور ، وأبرزت روعة الفن للفن نفسه .. إنما كانت هذه الأساطير والقصص وسيلة لهدف آخر ، لا غاية فى ذاتها .. فلم يكن الغرض منها مجرد رواية « حادثة الكهف »، أو حكاية « ليالى شهرزاد ».. إلخ .. بل وضعت كلها لخدمة قضية خاصة بالإنسان ومصيره !.. قضية يعتنقها المؤلف ، ويبدو اتجاهها فى هذه الأعمال كلها !.. فقد جاء فى صحيفة « النوفيل لترير » الباريسية ، هـذه الملاحظة التى تلخص الرأى كله فى عبارة : « هذه المسرحيات العشر على تباينها فى نواحى الإلهام ، تكشف عن روح واحد يسيطر على المؤلف ، هو ذلك الاتجاه الملحوظ عنده دائمًا إلى موضوع خالد : عجز الإنسان أمام مصيره .. »

وسيأتى تفسير ذلك فيما يلى من فصول !.

الأديب وليد عصره

لا بد للفنان المثمر أو الأديب الحق من أن يكون وليد عصره وابن بيئته !.. بغير ذلك يصبح الأدب أو الفن شيئًا ضعيف الأثر ضئيل القدر ، بعيدًا عن قضايا العصر ، منعزلا عن مصاير البشر !.. ولقد سبق لى أن قلت ذلك فى كتابى « تحت شمس الفكر »، فى فصل بعنوان « الفكر والشعب » جاءت فيه هذه الكلمات : « إن الأدب فى مصر لم يكن إلى عهود قريبة — حتى مطلع هذا القرن — غير حلية عاطلة فى معاصم الأدباء !.. لقد كان يعيش هؤلاء الكتاب ، ليس فقط على هامش المجتمع ، بل على هامش حياة الآخرين من أصحاب الجاه أو الثراء . لم يكن الأدب فى مصر إذن أداة تسجيل وتوجيه لشئون المجتمع ، و لم تكن أقلام الكتاب أبواقا توقظ النائمين ، ولكنها كانت معازف ، ينعس على أنغامها المترفون !.. إلخ »..

على أن تناول الأدب والفن لشئون البيئة والزمن ، والمجتمع ؛ لا بد — أيضًا — من أن يكون على نحو لا يشبه — من قريب أو بعيد — ما تعرضه الصحف ، أو الدعايات ، أو المناسبات !.. فأداة الفن والأدب لا تعنيها المادة الإخبارية الطارئة المتغيرة ، بل هى تعنى بالجوهر الثابت ، والمبدأ العام المستخلص مما يجرى فى الزمان والمكان !...

وهنا يختلف الحال أيضًا بين أديب وأديب ، وفنان وفنان !.. فحوادث البيئة وقضايا العصر عملة ذات مراتب وطبقات ، فيها قروش النيكل وفيها عشرات الفضة ، وفيها جنيهات الذهب !.. فهناك الأديب أو الفنان الذى لا يرى من حوادث البيئة غير الحى أو القرية أو المدينة التى يعيش فيها ويعرف أهلها ، وأحوالها ؛— فيصفها ويصورها أدق وصف وأبرع تصوير !.. وهناك الأديب أو الفنان الذى يضيف إلى هذا التصوير الدقيق للحى أو القرية أو المدينة ؛—

نفوذه إلى روح مشكلاتها العامة — لا الخاصة بكل شخصية من الشخصيات — ليخرجك بعد مطالعة تصويره الممتع للبيئة والناس ، بشيء أكثر من مجرد تصوير أمكنة وحوادث وأشخاص ؛— شيء يمس قضية عامة تتصل بوضع هذه الجماعة البشرية فى الظروف المحيطة بها ، شيء يشعرك بأن الأديب أو الفنان ليس مجرد مصور لبيئة وسارد لقصة وخالق لأشخاص ، ولكنه — أكثر من ذلك — محرك لقضية ،ومفسر لوضع!.. ثم هنالك أخيرًا الأديب أو الفنان الذى لا يكتفى بسرد القصة وخلق الأشخاص : ليحرك قضية بيئة معينة ويفسر وضع مجتمع خاص ، ولكنه يرمى من وراء عمله الفنى إلى تحريك قضية العصر كله ، وتفسير وضع المجتمع البشرى ، فى الجيل الذى يعاصره والزمن الذى يعيش فيه أو الأزمان المختلفة التى يتطور خلالها !.. هذه المهمة الأخيرة للأديب أو الفنان هى كالعملة الذهبية التى تصلح للتعامل الدولى فى العالم أجمع !..

والقول بأن الأدب أو الفن وليد بيئته ليس معناه فى كل الأحوال أن يكون هذا الأدب أو هذا الفن هابطًا فى مستواه الفكرى إلى مدارك الطبقات الدنيا !.. مهما تكن البيئة بدائية ، فالفنان الرفيع قد ينتج فنًا رفيعًا من بيئة متواضعة ، والفنان السوقى قد ينتج فنًا سوقيًا من بيئة مرتفعة ؛ ففى الموسيقى مثلا نجد « الجازبند » ينبع ويعيش فى بيئة مرفهة ، فى حين أن بيئة الشعب المكافح أخرجت اليوم فنانًا شابًا مثل « شوستا كوفتش »، الذى تجول موسيقاه الرفيعة عواصم العالم المتحضر ، فقد وصف الناقد « دافيد رابينوفتش » « سانفونياته » الشهيرة ، التى أوحت بها الحرب الأخيرة بأنها تعبير عن مأساة الإنسان فى المصير الذى كتبه عليه هذا البرزخ المسدود بين الفرد والعالم المحيط به ، فقد عبرت هذه الموسيقى الرفيعة — بما فيها من تفكير عميق عن حقيقة الإنسان باعتباره جزءًا من العالم ، منتهية إلى أن خلاصه من مصيره القلق هو أن يغمر نفسه فى الواقع .. واقع الجماعة التى يعيش بينها كجزء منها .. ولقد قارن الناقد ختام « السانفونية » الخامسة « لشوستا كوفتش » بختام سانفونية « البطولة » لـ « بيتهوفن » !..

كما أن الأدب أو الفن الذى يحرك قضية ، ويفسر وضعا لبيئة اجتماعية ، قد يكون مستساغًا لجمهور واسع من الشعب ، كما أنه قد يكون أيضًا مغلفًا بالشعور والرمز ؛ كما هو الحال فى مسرحيات « هنريك إبسن » المستساغة لخاصة الناس دون عامتهم ، مع أنها ثورة على صميم الأوضاع الاجتماعية فى « النرويج » !.. فأولـئك الذيـن يفهمـون ويتذوقـون مسرحيـات مثـل « برانـد » أو « بيرجنت » ؛ـ لا شك هم من الصفوة المثقفة دون الكثرة الغالبة.ذلك أن الأديب أو الفنان لا يؤثر فى كل الأحيان مباشرة فى كتل الجماهير كما ينبغى للصحفى والسياسى ، ولكنه يؤثر أولا فى قادة الجماهير ، وهم الذين يتلقون عنه التوجيه الفكرى للعصر والمجتمع ، ويضعونه موضع التنفيذ والعمل : فإذا تركنا المجال القومى والتفتنا إلى المجال العالمى ، ونظرنا إلى الأديب أو الفنان باعتباره وليد العصر الذى يكتنف العالم بأسره ، وجدناه مطالبًا ـــ خصوصًا فى العهـود الحديثة ـــ ببحث قضية العصر كله ، وتفسير وضع المجتمع البشرى برمته !..

ولنتخذ مثلا لذلك فى الأدب « چان بول سارتر » بمذهبه المعروف عن « الوجودية » فقضية العصر عنده هى قضية الحرية !.. « حرية الإنسان » ذلك أنه يرى وضع الإنسان فى المجتمع البشرى المعاصر مهددًا فى حريته من ناحيتين ناحية السلطة الدينية ، وناحية الدكتاتورية السياسية !.. لهذا قام ينادى بتحرير الإنسان المعاصر من كل سلطة !.. ويعلن أن الإنسان حر !.. حر بطبيعـه وسليقته ، وأنه لا يستطيع الخلاص من حريته ، دون أن يتخلص من وجوده !.. وهو حر فى إرادته ومسئوليته أمام الذات الإلهية التى لا تملك معه حلا ولا عقدًا : لأنه هو نفسه إله هذا الوجود ـــ إلى آخر تلك الأفكار ، التى ضمنها كتاباته ، وعرض لبابها فى مسرحيته « الذباب » ؛ التى أجمع النقاد على أنها : تمثل آراءه فى قضية الحرية أعمق تمثيل !.. وهذه المسرحية الفلسفية مفرغة فى إطار الأسطورة الإغريقية ، التى سبق أن تناولها « إيشيل »، و « سوفوكلس »، و « إيروبيد » من قبل !.. ولكن « سارتر » استخدم أشخاص الأسطورة للرمز عن اتجاهاته ،

والتعبير عن نظراته ؛ فى موقف الإنسان فى العصر الحديث !..

ولقد أخرجت هذه التمثيلية — على المسرح الفرنسى — فى نطاق جمهور ضيق ، من خاصة المثقفين !.. فهى أيضا ، كمسرحيات « إبسن » فى عصرها ، ليست مما يهبط إلى مستوى سواد الناس !.. ولكن ذلك لم يحل دون ذيوع أفكار المسرحية عن طريق النقاد والمفسرين ، ذيوعًا كاد يبلغ آذان الجماهير فى جميع أركان الدنيا ..

هذا الموقف من قضية العصر قد وقفته وتأملته ، وعرضت فيه نظرتى باعتبارى شرقيًا مسلمًا .. فالإنسان عندى ليس إله هذا العالم وهو ليس وحده فى الوجود ، وليس حرًا ، ولكنه يعيش ويريد ويكافح داخل إطار الإرادة الإلهية .. هذه الإرادة التى تتجلى للإنسان أحيانًا فى صور غير منظورة من عوائق وقيود ، على الإنسان أن يكافح لاجتيازها والتغلب عليها .. فأنبياء الشرق أنفسهم يبعثهم الله ويضع أمامهم العقبات .. فطريق النبى ليس معبدًا ، ولكنه يجاهد فى تبليغ رسالته وسط أشواك من غرائز الناس .. إن قضية العصر اليوم ، وهى التى تقوم على حرية الإنسان سواء باعتباره فردًا أو باعتباره جماعة ، إنما تتحد وتتلاقى فى أمر واحد هو إنكار الله .. وإنكار القوى غير المنظورة التى تؤثر فى مصير الإنسان .. وهذا ما لم أسلم به عقلا وإيمانًا .. فقول بعض النقاد الأوربيين إن مسرحياتى تسيطر عليها فكرة عجز الإنسان أمام مصيره صحيح إلى حد ما .. وأصح من ذلك ما لاحظه البعض من أن مصير الإنسان عندى مرتبط دائمًا بجهاده أمام القوى غير المنظورة، فهو بشعوره الداخلى « أنه ليس وحده فى الكون ، وأنه ليس حرًا » أدرك أنه سجين تلك القوة الخفية التى تسمى « الزمن »، وأن مصيره مرتبط بالزمن ارتباطًا وثيقًا ، وأنه ليس حرًا فى التخلص من زمنه ، وليس فى مقدوره أن يعيش طليقًا فى كل جو وكل زمن !.. هذا محور مسرحية « أهل الكهف » التى كتبت ونشرت قبل أن يظهر « سارتر »، فى عالم الكتابة والأدب بأعوام !.. كما أن مصير الإنسان مرتبط بأرضه تمام الارتباط ؛ فالقوة الخفية

الأخرى التى تسمى « المكان » — المكان المادى أو المعنوى — لها قبضتها القوية على كيان الإنسان !.. وهذا محور مسرحية « شهر زاد »!. لقد أراد الإنسان فى هذه القصة أن يتخلص من الأرض ليبلغ السماء ، فظل معلقًا بين الأرض والسماء ، ولكن مصير الإنسان مهدد أشد تهديد بقوة أشد خطرًا من تلك القوى — هذه القوة الخطرة ، هى التى تنفجر من صميم قدرته ، كما تنفجر النواة فى الذرة !.. إن حكمة الإنسان — خصوصًا فى عصورنا الحديثة — ليست هى التى توجه مصيره ، بل الذى يوجه مصيره هو قدرته — ذلك العفريت المنطلق من قمقم الحكمة ، هو العلة المباشرة لأزمة الإنسانية فى العصر الحاضر !.. هذا محور مسرحية « سليمان الحكيم »!... على أن شعورى بعجز الإنسان أمام القوى المؤثرة فى مصيره ؛ ليس مؤداه التشاؤم ، كما أنى لست أرى فى النظريات الأوربية القائلة بحرية الإنسان أمام مصيره ما يدعو إلى التفاؤل !.. العكس هو الأصح ؛ فإن فكرة تأليه الإنسان وحده على هذه الأرض ، كانت فى رأيى من الأسباب التى أدت إلى كوارث العالم اليوم ؛ فالإنسان ، الإله الحر الذى لا شريك له ، ولا سلطان لقدر عليه ، مع ما ركب فيه من غرائز الحرب والكفاح — عندما جحد وجود غيره على الأرض وأنكر كل قوة غير قوته فى الدنيا ؛ لم يجد ما يوجه إليه غرائز حربه ، ونشاط كفاحه غير نفسه ، فانقلب محاربا نفسه ، هادما ذاته !.. وهذا ما يفسر لنا انقسام العالم الأوربى اليوم على نفسه ، وهدم المدنية الأوربية لذاتها !.. فى حين أن فكرة الشعور بالقوى الأخرى التى تواجه الإنسان وتؤثر فى إرادته وحريته ، تدفع به فى نهاية الأمر أن يحشد غرائز حربه ونشاطه وكفاحه ، لا ضد نفسه ، بل ضد هذه العوائق المستترة ، وهذه القوى الخفية !.. فالشعور بعجز الإنسان أمام مصيره ، هو عندى حافز إلى الكفاح لا إلى التخاذل !.. فى « أهل الكهف » كافحوا ضد الزمن ، ولبث أحدهم متعلقا بالحياة يقارع الزمن بسيف بتار هو « القلب »، إلى آخر لحظة !.. و« شهر زاد » جاهدت محاولة أن ترد — إلى الصواب — زوجها الذى أراد أن ينبذ أرضه

وآدميته وأن تعيد إليه إيمانه ببشريته !.. و « سليمان » جاهد ضد إغراء القدرة التي كادت تخرس صوت الحكمة !..

وهكذا كان الإنسان يجاهد دائما ضد العوائق الخفية ، التي شعر بتأثيرها في حريته وإرادته ومصيره !.. وهو جهاد — لا من نوع هدام ؛ كجهاد الإنسان المتأله ضد نفسه — بل جهاد بناء ، كجهاد المصريين القدماء ضد الزمن وعوامل فنائه ، بإقامة الهياكل الكبرى ، واختراع التحنيط والأصباغ ، وكجهاد أهل الدين السماوي في الشرق ، ضد قلق النفس وغرائز الإنسان ، بتثبيت العقائد ، ووضع الشرائع !..

ومهما يكن من عجز الإنسان ، وإخفاقه أمام مصيره ، فإن العبرة هي بجهاده — جهاده المنتج الشريف !.. ذلك ما أرادته القدرة الإلهية للإنسان ، فهي قد ألقت في سبيله الأحجار ليجاهد في تحطيمها ، والعوائق ، ليكافح في إزالتها !.. وليس المهم للإنسان أن ينجح ، بل المهم أن يكدح ، وليس الشرف للإنسان في أن يقول إني حر ، بل في أن يقول إني سجين ، ولكني أجاهد للخلاص !.. لولا شرف الجهاد لهدى الله الناس بغير أنبياء مجاهدين ، ولجعلهم ينجحون في هداية الناس من أول كلمة ؛ بدون كفاح !.. لا .. إن الإنسان ليس إلها ، وإن الإنسان ليس حرًا ، ولكنه مجاهد — بإرادة الله — ضد قيود .. مكافح ضد سجون !..

لو اتجه تفكير الأدب الأوربي المعاصر إلى هذه الوجهة ، ودعا إلى حشد قوى الإنسان ؛ ضد القيود الخفية ، التي تكبل حريته الحقيقية ؛— لكان في هذا النوع من التفكير بعض الحل لأزمة الإنسانية في العصر الأخير !.. فأزمة الإنسان اليوم هي حربه ضد نفسه ، فهو ليس له قريع آخر غير نفسه ، لأنه لم يعد في غروره ، يرى سوى حريته المطلقة !.. لم يعد يرى القوى الأخرى غير المنظورة ؛ التي تحرك وجوده وتلعب بمصيره ، وتستوجب نضاله وتتطلب تفكيره !..

الأدب لا يلتزم

إذا كان الأديب يلتزم فالأدب لا يلتزم ، وبمعنى أصح : إن الأديب لا يستطيع أن يلزم الأدب باحترام التزاماته والنظر فيها ؛ إلا إذا توسل إلى ذلك بالقيم الأدبية الرفيعة .. فالأدب لا يمكن أن يضع فى مراتبه العليا أديبًا استخدم أدبًا رخيصًا أو فنًا رديئًا مهما يكن شرف الغرض الذى يهدف إليه !.. فالأدب لم يضع « حسان بن ثابت » فى طبقة « المتنبى »، مع أن « حسانا » دافع بشعره عن الإسلام ، ولم ينظم المتنبى إلا بدافع اكتساب المال ، والطمع فى جوائز الخلفاء !.. فالأدب أو تاريخ الأدب ينظر إلى الوسيلة قبل الغاية ، لأن الغاية فى الأدب والفن لا تبرر الوسيلة!..والغرض الشريف وحده لا يستطيع أن يكون جواز مرور يدخل به أصحاب الأدب الرخيص هيكل الفن العظيم، بل لا بد أن يكون صاحب الهدف النبيل أديبا رفيعا أولا حتى يسمح له بالدخول .. وإلا قيل له : ابتعد عن سبيل الأدب ، واسلك سبيلا آخر تبلغ به رسالتك !.. أمامك طريق الصحافة ، أو طريق الدعاية ... أما من يريد أن يستخدم الأدب أو الفن وسيلة لتبليغ رسالته فإنه يجب عليه — قبل كل شيء — أن يكون صاحب فن عال ، وأدب رفيع !... ولو أن الموسيقى « شوستا كوفتش » وضع معانيه القومية الإنسانية النبيلة ، فى إطار موسيقى « الجاز » أو غيرها من ألوان الموسيقى الخفيفة ؛ — لما أخذت هذه المعانى على سبيل الجد ، ولما كان لها صفة البقاء التى التصقت بها فى هذا الوضع الفنى الجدى !... ولو كان « إبسن » وضع أهدافه الإصلاحية وثوراته الاجتماعية ، فى مسرحيات خفيفة المظهر ، سوقية الذوق ، عامية التفكير ؛— لما استطاعت — حتى مع نجاحها فى بيئتها ، وجيلها — أن تعيش بعد ذلك فى كل جيل موفورة الاعتبار !...

على أن الالتزام فى الأدب ــ على شرف غايته ونبل مقصده ودلالته على شعور الأديب بواجبه نحو جماعته وعصره ــ لا يكافئ الأديب فى كل الأحيان !ــ بل العجيب أن « الأدب » أو « الفن » بمقياسه العام ، الخارج عن نطاق البيئة والجيل ، قلما يلتفت إلى الدافع الكريم التفاته إلى القيمة الأدبية والفنية الخالصة !... فسانفونيات « شوستا كوفتش » ــ التى تسمع الآن فى باريس ولندن ونيويورك ، لا تظفر بتقدير الناس من أجل ما فيها من اتجاهات اجتماعية أو مذهبية ، بل لما فيها من فن رائع رفيع !... كذلك الحال فى مسرحيات « إبسن » ؛ فقد تغيرت الظروف كما تغير المجتمع الذى ثار عليه هذا الفنان ، وحقق الزمن أكثر الإصلاحات التى طالب بها ، وأصبحت آراؤه الاجتماعية ــ كما يقول أهل السياسة اليوم ــ « غير ذات الموضوع » !.. ولكن القيمة الأدبية الرفيعة لهذه المسرحيات بما فيها من شعر وفكر ــ لم تزل باقية ، يتذوقها المثقفون من أهل هذا الجيل كما يتذوقها المثقفون فى كل الأجيال .. لأنها لم تكتب بأسلوب الدعاية الوقتية ؛ لتمضى بمضى وقتها ، بل كتبت بأسلوب الأدب العميق ، الذى يبقى للفكر والأدب فى كل زمان !...

أكثر من ذلك : أن الالتزام بالأغراض القومية والإصلاحية قد يكون من منفرات الأثر الأدبى إذا نقل إلى بيئة أخرى تشعر شعوراً آخر !،.. ولأضرب مثلا بتجاربى الخاصة !..

قال أحد النقاد الأوربيين فى عام ١٩٣٧م عن كتاب « عودة الروح » : « إن نزعته الوطنية مما يضايق قليلا !... غير أن ظروف الحياة المصرية الحاضرة تجعل من الصعب محو هذه النزعة ، دون المساس بصدق الكتاب كله !... وإنه لمن الظاهر فيه ــ فضلا عن ذلك ــ وجود بعض عناصر أدب الطبقات الفقيرة ..إلخ .. » .

كما قال ناقد أمريكى عن كتاب « يوميات نائب فى الأرياف » : إنه على الرغم من تصوير الريف المصرى ؛ فى أدق تفصيلاته الإنسانية التى تجعل القارئ يحس

كأنه موجود هناك — فإن نزعة الإصلاح الاجتماعى فيه هى « الهانديكاب » : أى هى الحمل الذى يثقل على القارئ الأمريكى !... وقال ناقد صحيفة « ماريان » : إن القارئ الأجنبى ينسى فى أغلب الأحيان المقاصد الإصلاحية التى حركت المؤلف لوضع كتابه . بل إن القارئ يتمنى ألا يتغير شىء فى عالم هذه المخلوقات الإنسانية !... وأشارت صحف إنجليزية ؛ مثل « اللسنر » و «السبكتاتور» وغيرهما إلى الفقر والظلم فى بيئة الفلاحين ، وفساد الأداة الإدارية إشارات عابرة ، ولم تقف طويلا إلا عند الصور الفنية والأشخاص وأسلوب الفكاهة والسخرية !.. كل ما جاء فى هذه الصحف — متصلا بالوضع الاجتماعى اتصالا يوحى بالمشاركة فى الشعور القومى — هو قول إحداها : « إن فى هذا الكتاب ، عن مهزلة الفساد الاجتماعى الخالدة أكثر من مجرد استنكار ، وكما حدث مع كتاب الروس فى القرن التاسع عشر ، وكما حدث مع كاتبنا « ديكنز » — يشعر الكاتب المصرى أن مجرد العطف لا يكفى ، وأن الغضب عبث ، وأن السخرية وحدها هى أمضى سلاح للهجوم !... » إلخ .

من هذا الاختبار الشخصى خرجت بهذه الحقيقة ، وهى أن الشعور القومى خاص بأهله وبيئته ، وأن الإصلاح خاص بمجتمعه وزمنه !...

* * *

على أن الأديب — الذى يشعر بإحساس بيئته ووطنه وجيله — يحزنه على كل حال أن يرى الناس فى بيئة أخرى تنصرف عن شعوره الإصلاحى إلى الأدب الخالص !... من الواجب إذن على الأديب أن يتوقع ذلك دون أن ينصرف عن جهاده ، فالأدب الملتزم لا يلزم غير بيئة واحدة فى زمن واحد . فإذا اختلفت البيئة أو تغير الزمن فإن الأدب يتحلل عندئذ من كل التزام ، ولا يعيش بعدئذ إلا بقيمته الذاتية ...

الأدب لكل عصر

مشكلة الأديب هى أنه إنسان قبل أن يكون أديبًا !.. إنسان ابن بيئته وجيله ، ومجتمعه وعصره !.. لا بد له أن يحس إحساس مجتمعه ، وأن يتأثر بما يحدث فى بيئته وزمنه !.. ومع ذلك لا بد له من أن ينتج أدبا : أى شيئًا يستطيع الحياة فى كل بيئة وعصر ، والشىء الذى يستطيع الحياة فى كل بيئة وعصر ، هو ذلك الذى يهم الإنسان فى كل بيئة وعصر ، هو الذى يتصل بالإنسان باعتباره نوعا بشريًا ممتد الوجود فى الزمان والمكان الخالد !.. هو ذلك الذى يصل عصره بكل العصور ، ومجتمعه بكل مجتمع ، ونفسه بكل النفوس !.. هو ذلك الذى يستخرج من جيله المحدود مادة تحيا فى أجيال غير محدودة !.. هو ذلك الذى يتأثر ويؤثر فى بيئته وزمنه ثم يستمر بعد ذلك يؤثر فى كل مكان على مدى الأزمان !.. ومعنى هذا أن الأثر الأدبى الخالد لا بد إذن من أن ينطوى على شقين : شق يعنى أهل زمنه خاصة ، وشق يمكن أن يعنى الناس فى كافة كل زمن وموطن !..

على أن هذا القول — على إطلاقه — قلما يحدث بهذه الصورة فى أغلب الآثار التى اعتبرت خالدة ؛ فأذواق الأمم متغيرة ، ومدارك الأجيال متطورة ؛ فمن الآثار الباقية ما أغفل فى عصر ولمع فى عصر ، وما غمض فى بيئة وفهم فى بيئة !.. فأعمال « شكسبير » لا يمكن أن تكون قد فهمت فى بيئتها وعصرها ؛ كما تفهم فى العالم الآن ، بعد أن شرح غوامضها وألقى الضوء على أغوارها الألمان !.. بل بعد أن استطاع علم النفس فى العصور الحديثة أن يجوس بمصباحه خلال أشخاصها وما تكن من نفوس .. أكثر من ذلك نجد بيئتين — فى عصر واحد — متساويتين فى المدارك ولا تتفقان على فهم أديب فى الوقت عينه ؛ وهذا ما حدث لبرناردشو ، وهذا سبب من أسباب سخطه على أبناء لغته الإنجليز ، فقد لبث

مسرحياته وقتًا لا تظفر بإقبال هؤلاء المواطنين ، إلى أن التفت إليها الألمان ، وأقبلوا على نقلها ، وتمثيلها وشرحها ؛ فمدوا بذلك طريق استساغتها للعقل الإنجليزى !..

ومن الآثار ما دفنت فى عصرها لظروف شخصية أو سياسية ، وبعثت فى عصر آخر ، عاشت فيه موضع عناية الأدباء والباحثين ، وأقرب مثل لذلك فى الأدب العربى آثار « أبى حيان التوحيدى !.. »

وهكذا لو تأملنا أغلب آثار الأدب والفن تأمل الباحث عن سر حياتها ، لوجدنا أنها لا تعيش حياة واحدة فى كل العصور ؛ لأنه ما من عصر ينطبق حاله على عصر آخر تمام الانطباق !.. فالآثار قد تعيش فى كل عصر ، بشخصية مختلفة بعض الاختلاف ؛ ويرى فيها أهل كل عصر الناحية التى تتفق مع مزاجهم وذوقهم وتفكيرهم ومداركهم !.. فهى أحيانا تعيش فى زمان ، بوجهها البراق المشرق وتعيش فى زمان آخر ، بروحها الخفيف الجذاب ، ثم تعيش فى زمان أخير بتفكيرها الدقيق العميق ، والقليل جدًا من بين هذه الآثار تلك التى تستطيع أن تعيش بوجه واحد فى كل العصور !.. وحتى تلك التى استطاعت أن تعيش لناحية واحدة فيها ، فإن نقاد كل عصر يختلفون فى أسباب تذوقها ، وأساليب بحثها وطرائق تفسيرها ، فالبراعة اللغوية التى التزم بها « أبو العلاء » لا تهمنا اليوم بمقدار ما يهمنا تفكيره الذى صبه فى تلك الصورة الشعرية الرفيعة !..

بل إن اختلاف البيئات فى مجتمع واحد وعصر واحد ، قد يجعل للأثر الواحد حياتين مختلفتين. ولأضرب هنا أيضًا مثلا بتجربتى الخاصة ، فأقول ملاحظا إن مسرحيات مثل « أهل الكهف » و « شهر زاد » و « سليمان الحكيم » إلخ ، استطاعت أن تحيا بعض الحياة فى الكتب ، ولكنها لم تستطع الحياة حتى الآن فوق مسرحنا العربى — مما جعلنى يومًا أعتقد أنها لم تكتب إلا لتنشر فى كتب .. إلى أن نقلت إلى لغات أجنبية ، واطلعت أخيرًا على بعض تقارير متحمسة لبعض رجال المسرح الأدبى عن صلاحيتها هناك لحياة التمثيل ، فسألت نفسى : أتراه

اختلاف البيئة الثقافية لدينا ، بين قراء الكتب الأدبية ، ورواد المسارح العامة ، ذلك الاختلاف المتسع الشقة حتى الآن هو الذى يجعل لمثل هذه الأعمال هاتين الحياتين المختلفتين ؟..

على أننا نبالغ أيضًا إذا قلنا : إن الآثار الأدبية والفنية تعيش فى كل العصور ، كما خلقها مؤلفوها ذلك أن الذى يحدث عادة هو أن أغلب هذه الآثار تعرض فى كل عصر عرضًا ، قد يختلف عن الأصل قليلا أو كثيرًا .. فآثار « أرستوفان » و « سوفوكلس » و « شكسبير » قلما تعرض فى غير اقتباسات ، أو عدادات ، فيها من الحذف والتعديل والتبديل ، ـــ ما يلائم النظارة وفن المسرح ، وظروف الحياة الاجتماعية فى كل زمن ..

كما أن الملاحظ فى الآثار الأدبية ، التى تنتقل من عصر إلى عصر ، أنها تكاد تكون محصورة فى نطاق أدب الخاصة . فالأدب الشعبى قلما ينتقل من جيل إلى جيل ، ومن موطن إلى موطن ، بالكمية والسرعة التى ينتقل بها الأدب الرفيع .. لقد كان « راسين » يقول إنه يكتب لمائتين فقط من الصفوة .. وها هو ذا « راسين » يعيش إلى اليوم ، حياة موفورة فى ثقافة كل أمة متحضرة ، على أنه يصل عصرنا كثيرون من شعراء الشعب أو مؤلفيه الذين صفق لهم فى المحافل والمسارح وطرب لهم فى المغانى والمشارب .. أترى الخلود الأدبى لا يصنعه غير نفر قليل من الصفوة فى كل بلد وعصر ؟.. إذا كان هذا صحيحا فما هو السبب ؟.. أهو فى عجز الأدب الشعبى عن الحياة فى بيئة أخرى غير بيئته ، وزمن آخر غير زمنه .. إلا فى القليل النادر ، عندما يسمو على نفسه بقوة فى الخلق ترفعه فوق اللغات واللهجات والحدود ، والأزمان ، والأجناس ، كما هو الحال فى قصص « ألف ليلة وليلة » .. ومع ذلك من الذى نقل هذه القصص إلى مرتبة الفن العالى والآداب العالمية ؟.. أليسوا هم خاصة من الصفوة التفتوا إلى قيمتها الذاتية ، وفطنوا إلى استحقاقها للبقاء والتقدير ؟.. إذا كان هذا أيضًا صحيحًا فما هو السر ؟.. لماذا تختص الصفوة المثقفة بمهمة التخليد ؟ لماذا خلدت لنا كل من

تناولته بالعناية من الشعراء والأدباء والفنانين ، — حتى إن كانوا قد عاشوا حياتهم فى نطاق ضيق من اهتمام الناس ؟..

ربما كان السبب هو أن الصفوة المثقفة هى التى تكتب وتفسر وتسجل ، فى حين أن سواد الناس يكتفون بالتلقى العابر .. وربما كان السبب هو أن الصفوة المثقفة هى التى تصدر الأحكام الثابتة على أساس من فهم ثابت ، فى حين أن أفهام الناس وأذواقهم — فى مجموعهم وسوادهم — متقلبة متموجة تتحرك وتتطور كلما ازدادت حظًا من المعرفة والإدراك !..

أما بعد ، فإنى أستخلص من كل ذلك الرأى الذى سبق أن أشرت إليه ، وهو أن الأدب الكبير ، هو ذلك الذى يصلح لعصره ولكل عصر ، وينفع الناس ويعرض لشئونهم ، ويوجه حياتهم فى جيلهم ثم يمضى بعد ذلك ينفع الناس فى كل الأجيال .. هو ذلك الذى ينظر — بإحدى عينيه — إلى الوطن الصغير ، ممثلا فى بيئته وزمنه ، وبعينه الأخرى إلى الوطن الأكبر ، ممثلا فى الإنسانية إلى نهاية الدهر ..

فهرست الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

رقم الإيداع : ٣٩٦٥ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٥ ـــ ٠٤٢٢ ـــ ١١ ـــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٣٧٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه